سلسلة كنوزالحضارة

التاريخ
والمؤرخون العرب

إعــداد

د. محمد رماح عبد السلام مخلص   د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٩٠١.٩ مخلص ، محمد رماح عبد السلام .
م . ه سلسلة كنوز الحضارة / محمد رماح عبد السلام مخلص.{واخ}.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.
٣٢٨ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
تدمك : 6 - 659 – 308 – 977 – 978
١. الحضارة – تاريخ .
أ – مخلص ، محمد رماح عبد السلام (معد مشارك) .

رقم الإيداع : ٢٨٨٣ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق – شارع الشركات– ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف– فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥–٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com ، elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

تنويه:
حقوق الطبع والتوزيع بكافة صوره محفوظة للناشر
ولا يجوز نشر أي جزء من هاذ الكتاب بأي طريقة إلا بإذن خطي من الناشر
كما أن الأفكار والآراء المطروحة في الكتاب لا تعثر إلا عن رأي المؤلف

2020

الفهـــــــرس

مقدمـــة

المؤرخ: هو العالم الذي يدرس ويدون عن التاريخ، ويُعتبر مرجعاً في هذا العلم، يهتم المؤرخون بالسرد المنهجي المتتالي والبحث في الأحداث الماضية وعلاقتها بالجنس البشري، تحول التأريخ إلى مهنة في نهاية القرن التاسع عشر وذلك بتحديد معايير معينة لمن يريد احتراف المجال. على المؤرخ أن يكون محايدًا بعيدًا عن النزاعات السياسية والفكرية والعقائدية.

التاريخ ليس كتابة تاريخ فرد، أو حادثة تاريخية، أو تاريخ شعب وأمه، أو التاريخ الكلي أي التاريخ الإنساني الشامل، وإنما هو تحليل وفهم للأحداث التاريخية عن طريق منهج يصف ويسجل ما مضى من وقائع و أحداث و يحللها و يفسرها على أسس علمية صارمة بقصد الوصول إلى حقائق تساعد على فهم الماضي و الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

وكذلك وجب القيام بدراسة تعتمد على حقائق الماضي وتتبع سوابق الأحداث في الماضي والحاضر، ودراسة ظروف السياقات التاريخية وتفسيرها في الماضي والحاضر والمستقبل فمنهج البحث التاريخي هو مجموعة الطرق والتقنيات التي يتبعها الباحث والمؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه و زواياه، وكما كان عليه زمانه ومكانه تبعاً لذلك فالمنهج التاريخي يحتاج إلى ثقافة واعية وتتبع دقيق بحركة الزمن التي تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على النص التاريخي، لهذا وجب ارتباط المنهج بمستويات النقد في كل مراحله الممثلة في التفسير والتأويل والتنقيح والحكم نظراً لعنايته الجادة بالنص كرؤية واقعية ترتبط بالزمن والعصر.

ويجب كذلك إعطاء الأهمية الأولية للسياق التاريخي لتأويل النصوص لان هناك وثائق تعبر عن انحياز كامل للمرحلة التي كتبت فيها،

لهذا فبعض الوثائق التاريخية لا تعبر عن حقيقة مايجري من أحداث لهذا وجب التركيز على قراءة النص التاريخي ونقده لان هناك كتابات لمؤرخين سيطرت عليهم الإيديولوجيات السياسية السائدة أثناء الفترة التي أنتج فيها. وإذا كانت الوثائق وغيرها من المواد التي يجمعها المؤرخ بخصوص الموضوع التاريخي الذي يعالجه بالدرس والتحليل والتمحيص تمثل الحقيقة، فماهي إذن الحقيقة التاريخية؟

✍ **وهل يمكن اعتبار تلك الوثائق والمواد بمثابة الحقيقة عينها؟**

ثم إن وجود هذه الحقائق والوثائق بين أيدي هذا المؤرخ أو ذاك لا يضمن الاتفاق بين المؤرخين على تأويلها نفس التأويل لأن لكل مؤرخ وجهة نظره ودوافعه، لهذا فالمؤرخ هو من يتخذ القرار المسبق في عملية ترتيب النصوص والوثائق التي تخدم وجهة نظره، لهذا لا يمكن أن نضمن اتفاقا بين المؤرخين على حدث معين ، فلكل تأويله وتحليله لهذا عند تحليل النصوص التاريخية لا بد من الوقوف على علاقة المؤرخ بالوثائق والحقائق التي يملكها بين يديه كمواد خام للدرس والتحلي، هل يعتمدها كحقيقة مسلم بها؟ أم يقارنها بمعطيات أخرى مثل التحدث عن الإيديولوجيات والمواقف السياسية السائدة في العصر التي كتبت فيه الوثائق؟ وكذلك مقارنتها بالموقف السياسي لكاتب الوثيقة وعلاقته بعصره.

إن الحقائق والوثائق ليست في حد ذاتها تاريخا، وإنما هي شهادة تشهد على جزء من اللحظة التاريخية وقد تكون هذه الشهادة مزيفة، ولذا ينبغي مقارنتها بشهادات أخرى بهدف الوصول للحقيقة لأن الحقائق التاريخية لمرحلة معينة تخضع دائما وللتعديل، وكذلك لحذف بعض عناصرها بسبب المصالح، أو بغية إخفاء ما لا يتلاءم مع الفاعلين في التاريخ، لهذا وجب على المؤرخ وهو يدون كتاباته التاريخية أن يتعامل مع النصوص والوثائق بحياد، وأن يبحث في علاقة تلك النصوص بأصحابها لتوفير بعض الموضوعية ويتفاعل مع الوقائع التاريخية بموضوعية في كتاباته التاريخية والابتعاد عن الذاتية التي تجعل من النص التاريخي يخضع للتأويل ليتلاءم مع منهج المؤرخ في الكتابة .

✍ **وأثناء تحليل النص التاريخي لابد أن يستحضر الباحث في التاريخ:**

أولاً: العلوم الاجتماعية والإنسانية:

منها دراسات الأنثروبولوجية فالباحث في التاريخ لا يمكن أن يستغني عن الدراسات الأنثروبولوجية خاصة عندما يدرس التطور الثقافي في المجتمع والتمكن من معرفة مراحل هذا التطور ومدى عملية التأثير و التأثر، وهناك أيضاً علم الجغرافيا وهو من العلوم المرتبطة بالتاريخ فالارتباط وثيق للغاية بين التاريخ و الجغرافيا أي بمعنى آخر بين الزمان والمكان وتتحكم الجغرافية في التوجهات السياسية لحد كبير فمثلاً امتداد نهر النيل من بلاد الحبشة يفرض على مصر علاقات معينة وخاصة بينها و بين دول حوض النيل.

الفصل الأول
التاريخ والمؤرخون في الوطن العربي
(نظرة مجملة)

يعرف العالم اليوم جملة تحولات عميقة متلاحقة، بوتيرة تصل إلى حد التسارع. الأمر الذي أدى إلى قصر أعمار المنظومات المعرفية المختلفة بحيث لا تكاد تمر شهور أو سنوات إلا ويبدأ أحد الأبنية العلمية في الانهيار أو التلاشي، بعد أن كان بالأمس ملء السمع والبصر. وقد أدت هذه التطورات المتسارعة إلى انفجار معرفي مبهر فاقم من اتساع الهوة العلمية القائمة بين الوطن العربي و العالم المتقدم.

وإذا كان الأمر مفهوما بالنسبة إلى المعارف البحتة والتطبيقية لأنها مجال صراع للمصالح المادية، ثم لكون البحث فيها قد يفضي إلى تطوير بعض التقنيات التي توصف بالحساسة، فإن الأمر يصبح غريبا إزاء العلوم الإنسانية والاجتماعية، بفعل انتفاء المراقبة داخل حقل الأبحاث في هذه العلوم. وبالرغم من ذلك لم يستطع الباحثون العرب، ومنذ عقود، أن يصلوا إلى مرحلة تأصيل للإنسانيات بمستوى يبشر بقيام علم اجتماع عربي، أو مدرسة تاريخية عربية مثلاً.

١. عوائق مبدئية:

وإذا قصرنا النقاش، لاعتبارات ذاتية ومنهجية، على حقل الدراسات التاريخية، فإنه يمكننا القول إنه لم تفلح أية مؤسسة جامعية عربية، وإلى اليوم،في إرساء قواعد مكينة للمدرسة التاريخية العربية المرتقبة، وهو أمر يرجع إلى اختلاف المسالك والاتجاهات التي سلكها البحث التاريخي العربي، في مختلف الأقطار العربية شرقاً ومغرباً. كما يرجع إلى طبيعة المعارف التاريخية نفسها. وما يطرحه البحث فيها من عوائق ايبستمولوجية مختلفة. يتمثل أبرزها في كون التاريخ يندرج في حقل العلوم الإنسانية، كما

يسمونها، وهي علوم يجد فيها الباحث نفسه جزءا فعالا في السياق الذي يتتبعه، لأنه يتعامل مع موضوعات ناطقة وواعية تشاطره في حدود معينة اللغة نفسها مما يضيق من هامش المسافة البنيوية "النظرية"التي يجب على كل مقاربة "إنسانية" أن تحافظ عليها إزاء مجالها المدروس

وعلى المستوى المؤسسي البحت، كان البحث التاريخي العربي، ومنذ البداية، رهينا لمختلف المؤثرات في بداية عهد الاستقلالات، عاقته عن التقدم مثل ضعف الوسائل وندرة الباحثين المتمرسين تشتت المصادر فضلا عن أن التوجه كان لتصفية آثار الاستعمار و العمل على تركيز البناء المادي للمجتمع المنهك.

وبالرغم من ذلك فقد عرف البحث التاريخي العربي تطورات هامة، سيما في الجامعات المغاربية التي كانت أكثر انفتاحا على التقنيات التاريخية الحديثة من الجامعات المشرقية التي حافظت على الدرس التاريخي التقليدي الذي يعطي الأولوية للتاريخ السياسي الذي يكرس تقاليد الثقافة الأبوية والمفاهيم المتأسسة عليها هذا مع بعض الاستثناءات البارزة في المشرق.

يمكن القول إن حصيلة البحث التاريخي في الوطن العربي خلال النصف قرن الماضي الأخير كانت متواضعة لكن التزايد الكمي والنوعي فيها نما بصورة ملحوظة لاسيما في العقود الأخيرة من القرن العشرين، لكنها في الغالب ثمار مجهودات فردية تمت وتتم في غياب الظروف المطلوبة من حيث التجهيز والاعتمادات المطلوبة ثم إن المستوى الكمي والنوعي يتفاوت بشكل بين حسب الحقب والمناطق والمواضيع المطروقة لجملة أسباب ذاتية وعملية.

إن المؤرخ العربي لازال يفتقر إلى الأدوات النظرية «المنهجية» الضرورية والتجهيزات المادية الأساسية التي حازها نظراؤه الغربيون منذ عقود من الزمن ويلخص ذلك المؤرخ المغربي د.الحسين بولقطيب قائلاً:

"أما تطبيق المناهج الحديثة فهو من المحرمات التي ينصح الباحثون الشباب بالابتعاد عنها، باعتبارها لا تؤدي سوى إلى الاختلاف، الذي يعد في عرف القائمين على الأمور السياسية والثقافية [...] تكسيرا لمبدإ الإجماع. وهكذا، ظل المؤرخ اللاحق يجتر خلاصات المؤرخ السابق دون نقد أو تمحيص، و هو الأمر الذي أعطانا ركاما هائلا من الدراسات ذات العناوين المختلفة والمضامين المتشابهة. [...] على أن التجديد، في أي ميدان كان، لا يمكن فصله عن الشرط الديموقراطي. فكيف يمكن تجاوز التقليد، وتثوير الكتابة التاريخية في بلدان لا تزال فيها أقلام الباحثين والكتاب تحذرهم من مغبة كتابة هذه الجملة أو تلك؟ وكيف يمكن تدارك الفوات التاريخي، والذهنية الرسمية العربية لا تعترف بوجوده أصله "

٢. اتجاهات البحث التاريخي العربي:

يقسم المؤرخ العربي البارز الراحل د.قسطنطين زريق الأبحاث التاريخية في الوطن العربي إلى أربعة اتجاهات:

- التيار التقليدي: الذي حافظ على نظرة المؤرخين القدامى. يلخص هذا الاتجاه تاريخ الإنسانية في تاريخ الإسلام وينقاد للأنانية القومية. ثم يلجأ في تعليل الأحداث إلى القدر الإلهي ويتورع عن نقد رواية السلفالصالح. ثم ينعته بأنه وسطوي جديد تبعا لتسمية اتجاهات مماثلة ظهرت في الغرب.
- الاتجاه القومي: أكان قوميا عربياً أم قومياً محلياً إقليمياً، الذي ينغمس في الماضي القومي و يميل إلى التجريد والتزويق على الطريقة الرومانسية. يخضع التاريخ لفكرة سياسية مسبقة و في بعض الأحيان لسلطة سياسية قائمة.يغالي في تعظيم الماضي القومي

- و يبخس حق ماضي الإنسانية كجماعة، يستعمل المنهج النقدي لتفنيد أقوال الغير ولا يخضع له فيما يخص أقوال بني جلدته، يمزج دائما التفسير بالغيبيات والتفسير بالقوانين الواقعية. ثم يلخص المؤلف نقده لهذا الاتجاه قائلاً إنه قومي ومع ذلك يرفض أساس القومية العصرية أي العلمانية.
- الاتجاه الماركسي و الاتجاه الوضعي: المتماثلان من حيث الأسلوب وطرائق البحث والخلفيات المعرفية، لكن الأول ضيق في نظر المؤلف، متحيز، غير شمولي، يقول بوحدوية العلة (العامل المادي الاقتصادي)، في حين أن الثاني أكثر شمولية، يقول بتعدد العوامل المسيرة للتاريخ، من مادية وروحية، من فردية وجماعية، من سياسية واقتصادية..إلخ. والاتجاه الوضعي، المدرس في الجامعات، هو الآن ضروري للمجتمع العربي ويكرس د.زريق كل قواه البيانية لاقناع المثقفين العرب بضرورة الخضوع لقوانينه.

وبغض النظر عن خلفيات هذا التقسيم و إجرائيته، فإن د.زريق كان يصف اتجاهات البحث السائدة في زمنه و في المشرق العربي على نحو خاص.

٣. تجديد البحث التاريخي بالمغرب الكبير:

أما في المجال المغاربي فقد كانت الحقبة الفاصلة بين عهد الاستقلال إلى الثمانينيات والتسعينيات، مرحلة حاسمة بالنسبة إلى البحث التاريخي المغاربي.

فخلال العقود الأولى بعد الاستقلال، ظهر توجه في التأليف التاريخي اندرج في سياق ما يعرف بـ"التاريخ الوطني" وهو اتجاه يرمي إلى تخليص التاريخ من الأفكار والتوجهات الاستعمارية وما تؤسسه من تصورات مغلوطة حول الدولة والمجتمع في المغرب الكبير وكان بذلك مرحلة ضرورية لتصفية الحساب مع إرث المدرسة التاريخية الاستعمارية، وللتمهيد، كذلك،لمرحلة أكثر تطورا هي كتابة التاريخ القطري من الداخل.

ولا تزال ظلال هذه المرحلة مسيطرة على جيل من المؤرخين العرب لا سيما في المشرق "حتى لقد أضحى من علامات الوعي لدى المؤرخ العربي المعاصر المناداة بتحرير التاريخ العربي من النزعة الاستعمارية (*décoloniser l"histoire*)

بينما يعتبر هذا النداء - بالرغم من أهميته - " أقل أهمية من نداء تحرير التاريخ من الأسطورة [...] فالمجتمع العربي، قبل أن يطالب بتحرير تاريخه من التصورات الاستعمارية، عليه أن يربي أجيال مؤرخيه على استخدام العقلية العلمية في تناول قضاياه. إذ إن هذه العقلية هي الكفيلة بتحريره من جهة، وخلق تصور تاريخي عربي جديد من جهة ثانية".

وابتداءً من الثمانينيات سيبدأ البحث التاريخي في تجاوز النزعة الوطنية، وسيحاول المؤرخون الجامعيون الشباب وضع الأسس التي ستسمح بكتابة تاريخ شمولي يهتم بالمجتمع. وخلال هذه المرحلة اهتم المؤرخون المغاربيون بالتطلع للمدارس التاريخية الغربية وحاولوا الاستفادة من منهجها دون إغفال الوثائق الوطنية. كما ظهر عندهم اهتمام بالدراسات المونوغرافية المركزة على جهات أو حقب تاريخية محددة.وكانوا في ذلك متبعين سنن مدرسة الحوليات في فرنساومدرسة التاريخ الاقتصادي الجديد في إنكلترا، في إطار تجديد مفهوم الوثيقة التاريخية وسبل التعامل معها، مع إلحاحهم على ضرورة السير في طريق الدراسات الجزئية ونشر النصوص الغميسةبوصفه أسلم الطرق لبناء تاريخ شمولي قائم على أسس صلبة تسمح بصياغات من قبيل تاريخ المدة الطويلة وتاريخ البنيات الذي تقدمه مدرسة "الحوليات *école des annales* *الفرنسية* الشهيرة التي سعت إلى كتابة "التاريخ الشمولي" القائم على مقاربة الحدث التاريخي في مستوياته الثلاثة:

- الزمن السريع: وهو مظنة التاريخ الحدثي الذي يهتم بالأحداث المدوية كالثورات والحروب والدارج من حياة القادة والأعيان والمشهور من الأحداث الطبيعية أو الاقتصادية. وهو زمن قصير "سنوي أو يومي أو شهري" سريع التقلب، لا يعكس إلا جانبا بسيطا من "الحقيقة" التاريخية.
- الزمن الاجتماعي: وهو مصدر الأحداث غير المنظورة وقواتها العميقة ومجاله البنيات الاقتصادية والمجتمعية والفكرية التي تتطور عبر القرون، ولذلك لاتمكن مقاربته إلا في ما يسميه رواد "الحوليات": المدة الطويلة *longue durée* .
- الزمن الراكد: ومداره تواريخ الحقب المناخية الممتدة لآلاف السنين وملايينها وما يرتبط بذلك من تواريخ التربة و الشواطئ والأنهار، وهو يؤرخ للمكان عبر فترات موغلة في القدم ولذلك فهو شبه راكد.

كما قامت هذه المدرسة بتطوير مفهوم الوثيقة التاريخية من مقتضاها الدارج إلى مفهوم جديد قوامه شمولية المصدر والمعنى ومرونته بحيث صارت الوثيقة هي كل ما يوصل إلى الحس معلومة أو رمزا عن الماضي، سواء كان الأمر مبنى أو سكة، نقشا، غذاء، سلاحا، زينة، سلاسل أسعار، نصا مناقبيا، نازلة فقهية، نمط معمار، أو غير ذلكومن هنا اهتم مؤرخو مدرسة الحوليات بتواريخ الأسعار وتواريخ القمح والطرق البحرية والبرية وتطور النظم والتقاليد في الاجتماع والسياسة والفكر، بغية كتابة الحدث في كليته التاريخية بدل النظر إليه من زاوية واحدة كسيحة لا تعكس إلا الجانب الظاهر من جبل الثلج كما يقال.

٤. نحو تجديد التاريخ في الوطن العربي:

وبنفس المستوي ترددت دعوات مختلفة تحذر من الاقتباس أو النقل بصورة ميكانيكية عن المنظومة المعرفية التاريخية الغربية. وأكدت وبصورة مختلفة، على أن البداية يجب أن تمر من خلال فك الحصار عن وثائق التاريخ العربي، سيما تلك التي تتسم بكونها لم تكتب من أجل التاريخ الحدثي إبتداء. وكانت النوازل والفتاوى الفقهية أبرز الأمثلة على تلك النوعية من المصادر.

وطفق الباحثون في جمع هذه المصادر وتقديمها للجمهور، وبدؤوا في تحليلها بغية الكشف عن مختلف الإشارات التاريخية التي تختزنها، وأبرزها ما تعكسه من تطور بطئ للبنيات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية التي يحجبها التاريخ الحدثي سريع المدة.

وكانت حصيلة هذه الطروحات الجديدة، في غاية الأهمية، إن من حيث نتائجها على مستوى مناهج البحث الجديدة، أو على مستوى تأصيل البحث في التاريخ العربي، رغم أنها ظلت جهودا موجهة أساسا إلى التاريخ القطري.

ومنذ التسعينيات ازدادت وتيرة الإلحاح على ضرورة خلق مدرسة تاريخية عربية تحافظ على التصور القومي الوحدوي من جهة، وتكرس حواراً معرفياً أصيلا مع المنظومة المعرفية الغربية.

فأكد شيخ المؤرخين العرب د.عبد العزيز الدوري على ضرورة وضع إطار نظري للرؤية القومية للتاريخ وبناء هذه الرؤية انطلاقا من تقدم الأبحاث في حقل المعرفة التاريخية المعاصرة.

وشدد آخرون على ضرورة التخلص من مشاغل التاريخ السياسي ومدرسته التقليدية، التي تكرس نظرة متصلة للواقع تحول دون تبلور رؤية نقدية له وأن البحث التاريخي العربي لن يتطور إلا إذا كف المؤرخون

العرب عن التصور الخطي للتاريخ وعن الانهمام بفلسفته التي أصبحت عند الغربيين في عداد الأمواتوالحق في نظرنا أن هذا الرأي مصيب إذ لازال الكثيرمن المؤرخين العرب يتشوف دوما إلى كتابة التاريخ على نحو طروحات "اشبنجلر"و "توينبي" دون أن يعلم شيئا عن المؤرخين جهود الفرنسيين المقتدرين من أمثالأبروديل، لروا لادوري، مارك ابلوخ، جاك لوجوف وغيرهم من رواد مدرسة "الحوليات" الشهيرة. و أبرز ممثل لهذا المنحى د. عماد الدين خليل حيث كثرت كتاباته عن فلسفة التاريخ الإسلامي بالرغم من أنه بدأ بعمله المعروف حول: الإمارات الارتقية في الشام.

وذلك بالرغم من أنه لا علاقة بين التصور الديني للتاريخ والبحث عن خصوصية منهجية في مقاربة التاريخ الإسلامي، فبدل تجديد التاريخ الإسلامي من خلال مقاربات جديدة لمصادره غير المباشرة: كتب الفقه، التراجم، وثائق المال، وتطوير مفاهيمه الأساس: كالملكية العقارية، الإقطاع الإسلامي، الدولة والمجتمع، والتوكيد على اختلافها عن: الإقطاع الأوربي، الطبقة في المجتمع الأوربي.. بدلا من ذلك تركز الاهتمام على أدبيات لا طائل من ورائها كما هو حال مسألة إسلامية علم التاريخ؟ وما شاكلها. وهناك من المؤرخين العرب البارزين من كتب عن المناهج الحديثة لكنه تنكبها في أعماله الأساسية حيث ظل وفياً للتاريخ السياسي ومنطلقاته.

ونادى المؤرخ القدير د.عبد الله العروي بآراء محددة لتجديد الكتابة التاريخية العربية، في المغرب على الأقل، منها إعادة الاعتبار للدراسات المنهجية والإبستيمولوجية، بتعميمها في الدراسات التاريخية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلوم المساعدة. هذا بالإضافة إلى إنشاء معهد للحفريات، وإقرار دراسة اللهجات والإلمام بقواعد الحاسوب. وذلك لأن التأليف التاريخي الجديد ـ في نظره ـ يسعى لتفادي الخطرين المحدقين: الخيال المفرط والنسبية المطلقة.

ولعل في جملة هذه الآراء نصيب من الصحة لكنه ينبغي التوكيد على المنطلقات الآتية:

- ضرورة تبيئة آليات المنظومة المعرفية الغربية في سياق البحث التاريخي العربي، دون إغفال الوعي بالشروط التي تحكم تلك الآليات في مجالها التداولي الأصلي.
- الحفر بتلك الآليات بعد تبيئتها في طبقات الصناعة التاريخية العربية القديمة من خلال إبراز تاريخيتها الحقة وإمكانها المعرفي لكي يتم ربط الآليات الحديثة بها من خلال البحث لها عن مرجعية في ذلك التراث.
- تجديد المادة التاريخية المقدمة في مختلف المستويات الدراسية سواء من حيث المناهج أو من حيث المواضيع والإشكالات.

الفصل الثانى
التواصل مع الآخر لدى المؤرخين العرب المسلمين
(ابن خلدون نموذجاً)

عندما نشر "فوكوياما" في بداية التسعينات كتابه "نهاية التاريخ وخاتم البشر"[(١)] المُؤَسّسِ على نظريّة حتمية سيادة نمطيّة اقتصادية - سياسيّة وحيدة في العالم لم يُفهمْ من توجّهه العام غير رفضٍ للآخر وتعبيرٍ عن توجّهٍ فكري نَاكِرٍ لقيمة التواصل بين الحضارات. لكنّ ذلك الكتاب لم يُنه نزوعا بدأ من زمن قديم لاستيعاب ماهية "الآخر" لا فقط من أجل تحديد العلاقة مع المُخْتلِفِ بل وكذلك لفهم هُويّة الذاتِ بما أنّ هذا المبحث كان موضوعا مركزيا لأكثر من ندوة علمية أو بحث أكاديمي منذ بداية التاريخ المعاصر[(٢)].

ولئنْ لم تُثرْ قضيّة التواصل مع الآخر في المراحل التاريخية السابقة بنفس مُقاربات البحث الحالي وبذات منهجه فهذا لا يعني غيابها من تصوّرات المؤرخين والرحالة وحتّى بعض المشرّعين. فبرغم الضبابية التي ميزتْ بداية الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين فقد توصّل المؤرخون بسرعة إلى أنّ التاريخ الإسلامي ليس إلاّ جزءا من تاريخ

---

١ - Francis Fukuyama, *The End of history and the Last Man*, Free Press, New York 1992

وتُرجم الكتاب إلى الفرنسية: *La Fin de l'Histoire et le Dernier Homme*, édition Flammarion, Paris 1992

كما نُقل إلى العربية: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة و النشر، ١٩٩٣

٢ - من أحدث الأعمال حول الموضوع في الوطن العربي نخصّ بالذكر: محمد نورالدين أفاية، الغرب المتخيّل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي بيروت ٢٠٠٠/ ولنفس الباحث، المُتخيّل و المتواصلُ، مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي، بيروت ١٩٩٣/ شمس الدين الكيلاني، الآخر في الثقافة العربية، صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠٠٩/ Kalifa Chater, La perception de l'Autre en Tunisie et en Egypte au XIX : L'émergence d'un Nouveau paradigme, *Cahiers de la Méditerranée*, vol.66(2003)

عالمي يمثّل الإسلام تتويجا له. وهو ما يفسّر العناية بتاريخ الشعوب الأخرى معتبرين أنّ التجربة النبوية للرسول محمد ليستْ غير تتمّة لتجارب دينية سابقة. بدأ ذاك الاهتمام في المصادر العربية مع محمد بن إسحاق (وإليه تُنسبُ أقدم سيرة نبوية وصلتنا) منذ القرن الثاني للهجرة ثمّ توسع في القرون التالية.

إلاّ أنّ ما يُلاحظ في ذلك التوجّه هو أنّ صورة الآخر في تلك المصادر لم تكنْ ثابتة بل تأثّرتْ بالإطار التاريخي الذي صيغتْ فيه؛ فمنذ *القرنV*هـ/*XI*م ومع انطلاق الحملات الصليبية تحوّلتْ تلك الصورة بشكل عامّ في اتجاه أكثر سلبية إذْ لم يعُدْ هذا الآخر ذاك المُختلف المُستهدَف من قَبل الجيوش الإسلامية بل المتعدّي الغازي لدار الإسلام. وع هذا فإنّ عبد الرحمن بن خلدون(٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) والذي عاش في هذا الظرف الدولي المتوتر العصيبِ على العالم الإسلامي بدرجة خاصة قد اتّخذ موقفا متميّزا في هذا الشأن؛ وهو ما سنحاول تبيّنه في القسم الأول من هذا البحث.

وتأسيساً على تقييمه السالف لم ير ابن خلدون حرجا في التواصل العلمي مع موروث الحضارات الأخرى فقد اعتمد في تأريخه على "آخرَ" مُدَوّنٌ، فنقل كمّا كبيرا من المعلومات عن مصادر غير إسلامية وتحديدا مسيحية ويهودية معيدا بذلك الاعتبار للإسرائيليات، وهو الجانب الذي سيقف البحث عند أهم معالمه في قسمه الثاني.

الآخر في المنظور الخلدوني:

من المفيد بدايةً تحديد ماهيّة هذا الآخر بالنسبة للعرب المسلمين في العصر الوسيط: هل هو الخصمُ السياسيّ والعسكري؟ أم الغيرُ المختلفُ ثقافيّا؟ أو المقيمُ ما وراء حدود "دار الإسلام"؟

يُحيل تعدّد الأسئلة في الواقع على صعوبة تقديم إجابة دقيقة وشافية ونهائية وذلك بسبب تبدّل طبيعة هذا الآخر أوْ تغيّر علاقاته مع الكيانات الإسلامية بحسب الظرف التاريخي وبالتالي تحوّل صورته في المخيّلة الجماعية: فهو الخصم السياسي وأيضاً الديني الذي جابه الدولة الإسلامية أثناء توسعها بالمجال المتوسطي لكنّه كان في ذات الحين شريكاً تجارياً وحضارياً، ومثّله في بداية التاريخ الإسلامي البيزنطيون قبل أنْ ينضاف إليهم الفرنجة لاحقاً. والآخر هو كذلك المُختلف دينيا والغريب ثقافياً والذي سعى الجغرافيون والرحالة العرب إلى استكشافه والتعرف على خصائصه ومثّلته مختلف شعوب وسط وشرق أوروبا وآسيا وكذلك مختلف المجموعات السكانية المنتشرة بالمحيط الهندي. لكنّ الآخر كان أيضاً المختلف دينياً وثقافياً والمقيم "بدار الإسلام". وفي تصوّره لهذا الآخر انطلق عبد الرحمن من جملة من المبادئ: فما هي تلك الأسس؟ **وفيما تتلخّص سمات الآخر في المنظور الخلدوني؟**

أ. أسُس النظرة الخلدونية للآخر:

بقطع النظر عن موقف الباحث من الفكر الخلدوني، وقد كان محلّ اهتمامِ عدد لا يُحصى من الدراسات منذ بداية القرن الفائت[1]، فإنّ أهمّ ما يميّزه هو التكامل بين مختلف المفاهيم المُكوّنة لنظريّته وترابطها والتي مثّلت المقدمة خاصة إطارا لبحثها؛ **ولذلك جاءتْ نظرته للآخر ضمن:**

- تصوّره العام لنشأة الحضارات وتكوّن الدول، إذْ أنّ الإنسان مدنيّ بالطبع عاجزٌ عن تلبية حاجاته بمفرده وهو ما جعل من الاجتماع الإنساني ضروريّا. وكان من نتائج ذلك أنْ كانت فكرة العمران البشري المركزية في كتاب المقدّمة[2].
- قناعته (ابن خلدون) الراسخة في تطوّر التاريخ البشري، بل التنبيه إلى خطورة السهو عن ذلك[3]. ومن أجل ذلك عمل على إثبات فكرة تطوّر الحضارات ودافع عن نظرية التطور الكوني الكامل بناءً على تراكم تجارب المجتمعات المختلفة. ولعلّه من المفيد هنا الإشارة إلى

---

١ - زيادة عن الأعمال المتصلة مباشرة بالفكر الخلدوني والتي سترد في متن البحث، نُضيف ذكرا لا حصرا: عبد الرحمن بدوي، مؤلفات ابن خلدون، القاهرة ١٩٦٢/ عبد العزيز الدوري، ابن خلدون والعرب، أعمال مهرجان ابن خلدون، القاهرة ١٩٦٢، ص٥٠١-٥١٥/ عبد الله عنان، ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، القاهرة ١٩٦٥/ على أومليل، الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، بيروت ١٩٨٥/ أعمال ندوة" ابن خلدون، ناظرا ومنظورا إليه"، تونس ١٦-١٨ نوفمبر ٢٠٠٦، جمع النصوص و أشرف عليها محمد حسن، نشر مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٩.

R.Arnaldez, Réflexions sur un passage de la Mukaddima, dans *Mélanges R. Crozet*, Poitiers 1966, p.1337 et suivantes/ G.H.Bousquet, *Les textes sociologiques et économiques de la Mukaddima*(1375-1379), Paris 1965/H.Gibb, The islamic background of Ibn Khaldûn's political thouth, in *Bulletin of the School of Oriental Studies*,VII (1933-5)/ Yves Lacoste, *Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire*, Paris 1966/ N. Nassar, *La pensée réaliste d'Ibn Khaldûn*, Paris 1967/ M. Talbi, *Ibn Haldûn*, Maison tunisienne de l'édition, Tunis 1973

٢- ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الجيل ببيروت ، دوت تاريخ ، ص ٤٦،٤٧.

٣ - " من الغلط الخفيّ في التاريخ الذهول عن تبدّل الأحوال في الأمم و الأجيال... لا يتفطّن له إلاّ الآحاد من أهل الخليقة" ابن خلدون، المصدر السابق، ص٣١، ٣٢.

- أنّ فضل صاحب المقدّمة هو تعميق هذا التصوّر ودعمه بإثباتات تاريخية من خلال نماذج محدّدة من التاريخ الإنساني بما أنّ ما ذهب إليه لم يكن في واقع الحال غير تتويج لإرهاصات لاحتْ معالمها لدى عديد المفكرين العرب المسلمين منذ القرن الثالث للهجرة. هذا ما حاول الباحث التونسي محمد الطالبي إثباته في بحثه حول الفكر التاريخي عند ابن خلدون[1] عندما أكّد أنّ فكرة حتمية التطوّر التي دافع عنها صاحب المقدّمة ليستْ في الواقع من إنتاجه بل ترقى إلى أبي عمرو الجاحظ(ت٢٢٥هـ/٨٦٨م) ثمّ تبنّاها من بعده إخوان الصفاء ودافع عنها مسكويه(ت٤٢١ هـ/١٠٣١م) وابن سيناء(٤٢٨ هـ/١٠٣٧م) والبيروني(٤٤٢ هـ/١٠٥٠م) وغيرهم؛ إذْ رغم اختلاف منطلقاتهم الفكرية فقد كانت مكانة الإنسان في الكون و مرتبته بين "مراتب الموجودات" حاضرة بقوّة لديهم جميعا[٢].
- ربط الدولة لديْه والمُلك وإنْ انتبه إلى أنّ زوال الدولة لا يعني اختفاء التمدّن والتحضّر وهو ما يفسّر تواتر المدنيات الكبرى في المجالات ذات الحضارات العريقة مثل حضارات الصينيين والهنود والمصريين[٣]. وفي هذا السياق أكّد على كثرة العلوم"في أمم النوع الإنساني" وعلى إسهام مختلف الحضارات القديمة فيها[٤] وذهب إلى أنّ ذاك الموروث الثقافي والعلمي يمكن أنْ ينتقل إلى دول

---

١ - Talbi M., Ibn Khaldûn et le sens de l'histoire, *Studia Islamica* n° XXVI p. 73-148.

٢ - يقول مسكويه: "إنه و إنْ كان قصدنا الأوّل الكلام على النبوءات فإنّا لا نصل إلى تحقيقه إلاّ بعد ذكر مراتب الموجودات و الحكمة السارية في جميعها... فنقول: أمّا اتّصال أجرام الموجودات بعضها ببعض و أنّ الكلّ واحدٌ إذا أخذ من مركز الأرض إلى أنْ ينتهي إلى السطح الأقصى من الفلك و أنّه حيوان واحد و أجزاء مختلفة..."، الفوز الأصغر، طبعة بيروت ١٩٠٢، المسألة الثالثة، الفصل الأول ص٨٥ و ما بعدها.

٣ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص١٦١.

٤ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص٤٢.

أخرى ناشئة باعتبار أنّ" أهل الدول...يقلّدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم"[١]؛ وفي هذا الإطار أقرّ باستفادة العرب من الموروث الحضاري الفارسي والبيزنطي بل أنهم أبدعوا في تطويره حتّى أنهم"أتوا من ذلك وراء الغاية"[٢].

- إيمانه العميق بالعلاقة الجدلية بين العمران البشري والمُعطيات الطبيعية: إذْ انطلق من تصوّرات الجغرافيين المسلمين وبخاصّة ممّا دوّنه الإدريسي في كتابه صورة الأرض(الموروث أصلاً عن جغرافية الإغريق وبالأخص بَطليموس) وأكّد على الترابط التام بين العمران وأحوال الجماعات البشرية من جهة والعوامل الجغرافية من جهة ثانية، فقسّم المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم وأكّد على أنّ الأقاليم الثالث و الرابع و الخامس والمتميّزة بالاعتدال هي الملائمة لازدهار العمران والحضارة بينما تتضاءل الشروط الجغرافية / البيئية المساعدة على ذلك في الإقليميْن الأول والثاني بسبب الحرّ الشديد وفي السادس والسابع بسبب البرد القارص[٣]. وبهذا قد يكون صاحب المقدّمة أوّل من توصّل من بين مؤرّخي وجغرافيي العصر الوسيط إلى أنّ العامل الطبيعي سابق للاجتماع البشري وأنّه بالضرورة أحد العناصر المُحدّدة سلباً أم إيجاباً في نشوء العمران. يعني هذا أنّ الحضارة لا تتأسّس على قاعدة دينية أو مذهبية بل على العمران المرتبط هو ذاته بالأحوال المناخية. ولأنّ أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق والهند والسند والصين وكذلك سكان الأندلس المجاورين لهم من الفرنجة والروم

١ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص١٩٠.

٢ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص١٩١.

٣ - ابن خلدون، المقدّمة، ص ٥٧ و ما يليها، ٦٥ وما بعدها، ص ٧٩ و ما بعدها.

واليونانيين كانوا موزّعين على الأقاليم المعتدلة فقد كانوا مبدئيا الأقدر على بناء الحضارة و إنماء العمارة[١].

ب.ماهية الآخر لدى ابن خلدون:

ضمن السياق السابق نظر ابن خلدون إلى الدور الذي لعبته مختلف الشعوب في التاريخ البشري. ومن المفيد في هذا الخصوص التذكير بأنّ الاستيعاب الدقيق لنظرة ابن خلدون للحضارات لا يمكن أنْ تكون من خلال المقدّمة أو كتاب ترجمته الذاتية "التعريف" فحسب[٢] بلْ بالانطلاق من كتاب العبر. فلقد كان الغرض الأصليّ من هذا كتاب دراسة تاريخ العرب والبربر في بلاد المغرب ومن خلال ذلك تعرّض مؤلفُه لتاريخ الشعوب الأخرى، ولهذا استنتج الباحث المغربي علي أومليل منذ النصف الثاني من سبعينات القرن الفائت أنّ موسوعة ابن خلدون تستوعب في الواقع تاريخيْن: تاريخ أساسي(هو تاريخ العرب و البربر)، وهو عماد الكتاب، والآخر هو تاريخ الأمم الأخرى كتبه ليبيّن موقع التاريخ الأوّل ضمن بقية حقب التاريخ الكوني[٣].

غير أنّ إعطاء الأولوية لتاريخ البربر والعرب لم يُؤدّ إلى إهمال تاريخ الشعوب الأخرى، وهو ما يجعلنا لا نقبل بسهولة ببعض الاستنتاجات التي تذهب إلى أنّ معرفة العرب المسلمين بأوروبا كانت محدودة خلال العصر الوسيط. فقد اعتقد المستشرق أندري ميكال[٤] أنّ تلك المعرفة بقيت هلامية وسطحية، وهو اعتقاد سليم لو سلّمنا بما يردُ في كتب الجغرافيين والرحالة بما أنّ اهتمام هؤلاء توجّه بدرجة أولى إلى الشرق وبخاصّة إلى الهند والصين، لكنّه لا ينطبق على المصادر التاريخية التي تزايدت فيها

---

١ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص٩٢.

٢ - نشر ابن تاويت الطنجي، لجنة التأليف الترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١

٣ - علي أومليل، المرجع السابق، ص١٣٣، ١٣٥.

٤ - Andrés Miquel, L'Europe vue par les arabes jusqu'à l'an mil, *Actes colloque « Lumières arabes sur l'occident médiéval : Civilisations arabe et européenne , deux cultures complémentaires »*, Monpellier 12, 14 et 15 mai 1877, p. 65-81.

معرفـة الآخـر الأوروبـي تـدريجياً وبصـورة تصـاعدية مـع تـوفر المصادر المُعتمدة في ذلك. ويمكن اعتبار ما أورده ابن خلدون تتويجاً لذلك، **فيكفي تتبّع ما يرد في المقدّمة وخاصة كتاب العبر لإثبات عناية ابن خلدون بالآخر:**

فقد اهتمّ "بالآخر الغائب" أيْ بالشعوب القديمة إذْ تتبّع تاريخ ملوك بابل[١] وتاريخ القبط بمصر[٢] وأوْلَى عناية خاصة بتاريخ الفرس[٣]، وهو ما قد يُفسّر بتحّول السيادة السياسية بالعالم الإسلامي منذ أواسط *القرن V هـ / XI* م من يد العرب إلى يد العنصر الإيراني ثمّ التركي[٤].

كما توسّع ابن خلدون في استعراض مختلف أطوار تاريخ بني إسرائيل ثم التاريخ اليهودي بفلسطين[٥] وقدم صورة إيجابية عن تاريخ اليونانيين[٦] ونظر إليهم نظرة صاعد الأندلسي على أنهم "من أعظم أمم العالم و أوسعهم مُلكاً وسلطاناً"[٧]. وعَنيَ بشكل لافتٍ بدراسة مختلف مراحل التاريخ الروماني[٨] من نشأة روما إلى آخر القياصرة[٩] (وإن لم يفرّق بين التاريخيْن الروماني والبيزنطي) معتبرا "اللطينيّين" مؤسّسي روما من"أشهر أمم العالم"[١٠].

١ - ابن خلدون، كتاب العبر، الشركة العالمية للكتاب و دار الكتاب اللبناني ببيروت١٩٨٦، ج٣ ص ١٢٩ وما بعدها.

٢ - ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ١٤٠ وما بعدها.

٣ - ابن خلدون، نفس المصدر، ج١ص ٥٩٨، ج٣ص ٣٠٨ - ص ٣٧٢.

٤ - في مستهلّ ذكره لأخبار الفرس والتحّولات التي طرأتْ على دولتهم قال" هذه الأمة من أقدم أمم العالم، وأشدّهم قوّة وآثارا في الأرض"، نفس المصدر، ٣ ص٣٠٨.

٥ - ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ١٥٢ - ص٢٨٠.

٦ - ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٣ ص ٣٧٤ – ص٣٩٧.

٧ - ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٣ ص ٣٧٤.

٨ - ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٣ ص ٣٩٨ وما بعدها.

٩ - ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٣ ص ٤٠٤ – ص ٤٨٠.

١٠ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٣ص٣٩٨.

وبنفس المنطق نظر ابن خلدون إلى الأديان، وبقطع النظر عن معنى النبوءة والديانة عنده ربط ابن خلدون بين العمران و نشأة النبوءات وأكّد على أنّ الأوساط المناخية المعتدلة هي المؤهّلة قبل غيرها من المجالات لاحتضان الديانات و النبوءات[١]، وبذلك وضع ابن خلدون انتشار المسيحية مثلاً في بلاد "الصقالبة والفرنجة" كأحد علامات العمران والتقدّم الحضاري. كما تبدو ايجابية موقف ابن خلدون من الديانة المسيحية كذلك من خلال معرفته الدقيقة بمذاهبها[٢] ومن خلال استعراض مختلف مراحل نشأتها[٣] وتطوّرها بدْءًا باضطهاد القياصرة لمعتنقيها[٤] إلى تحوّلها إلى ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور "قسطنطين"[٥].

وفي الجملة ولأنّ التقييم الخلدوني قام على مبدأ الاجتماع البشري وعلى أنّ العمران الحضري هو أكثر مُلاءمةً من العمران البدوي لنمو الحضارة فقد تميّز استقراء ابن خلدون للحضارات السابقة للإسلام بنوع من الحيادية، بل يمكن أن تستنتج بسهولة إقراره بمساهمتها كلّها في التحوّل الذي عرفته الإنسانية خلال أطوارها المختلفة؛ وذلك باستثناء الأتراك الذين اعتبرهم شعبا مدمّرا للعمران[٦].

١ - و جاء في صفحة ٩١ من المقدّمة: «ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل العمران من كليهما، والذي حافتيه من الثالث والخامس اقرب إلى الاعتدال، ويليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع ابعد بكثير.... فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات، والفواكه بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً، وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خير بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالي وذلك لأنّ الأنبياء والرسل إنّما يختصّ بهم أكمل النّوع في خلقهم و أخلاقهم...".

٢ - ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣ ص ٤٣٩، ٤٤٨.

٣ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٣ص ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٦.

٤ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٣ص ٤١٦، ٤٢٥.

٥ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٣ص ٤٣٦، ٤٣٧.

٦ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٥ ص ٣٦٥.

فعلى غرار بقية الشعوب اهتمّ ابن خلدون بتاريخ الأتراك، بل تجاوز اهتمامه بهم أغلب الشعوب الأخرى، إذْ وزيادة عن المعلومات الغزيرة عنهم والمُنبثّة في المقدّمة وفي كتاب التعريف فقد أفردَ لهم المؤلف القسم الأهمّ من المجلّد التاسع من كتاب تاريخ العبر. وقد لخّص علي أومليل ذلك الاهتمام بجملة من الأسباب[1] أهمّها الدّور الذي لعبه الأتراك في التاريخ الإسلامي وتحديدا استبدادهم بالسلطة في مرحلة من مراحل الدولة العباسية وبهيمنتهم على المشرق في عصر ابن خلدون نفسُه وكذلك بنمط عيشهم البدوي المُخلّ بالعمران و الحضارة[2]؛ وهي كلّها أسباب برّرتْ سلبية التصوّر الخلدوني إزاءهم.

ولأنّ منهجه في استقراء التاريخ البشري يقوم على المزج بين التحليل والتتبع الكرونولوجي لم يقف اهتمام ابن خلدون بالآخر في الحضارات السابقة بل اعتنى "بالآخر الحاضر" القريب زمنيا من عصره وتحديدًا بالآخر الأوروبي رغم أنّ السمة العامة لعلاقة مع العالم الإسلامي كان يغلُبُ عليها التوتّر منذ القرن الخامس/ XIم[3]. فقد أصبح المشرق الإسلامي هدفا لخطر الحملات الصليبية التي استفادتْ من واقع الوهن السياسي للخلافة العباسية و الصراع بين مختلف مكوناته، وتمكّن الصليبيون من بسط سيطرتهم على مجالات واسعة من بلاد الشام وعلى كلّ شواطئها وهدّدوا مصر. ولم تكدْ جهود الزنكيّين وخاصّة الأيوبيين من بعدهم تأتي أكلها في التصدّي لذاك الخطر حتّى تعرّض المشرق إلى موجات غزو

---

١ - علي أومليل، المرجع السابق، ص١١٨ وما بعدها.

٢ - ابن خلدون، نفس المصدر ، ٩ ص ٥.

٣ - من الأبحاث حول تاريخ المتوسط في تلك المرحلة: Braudel Fernand, *La Méditerranée, Espace et Histoire*, édit. Flammarion Paris 1997/ Heers J., *Précis d'histoire du Moyen Age*, Presse Universitaire de France 1968/ Jehel G., *La méditerranée médiévale de 350à1450*, Armond Colin 1992/ Carpentier J.(direction de), *Histoire de la Méditerranée*, édition du Seuil 2001.

جديدة جاءتْ هذه المرّة من سهوب وسط آسيا منذ أواسط *VII* هـ/*XIII*م تمثلت بخاصّة في زحف المغول الذين استولوا على بغداد سنة ١٢٥٧/٦٥٦ واضعين بذلك حدّا للخلافة العباسية ثمّ سيطروا على أهم المدن الشامية وهدّدوا مصر الأيوبية. كما شهد الشطر الغربي من المتوسط وضعا سياسيا وعسكريا مشابها إذْ استطاع الملوك المسيحيون توطيد سلطتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، فنجح فردينان الثالث في منتصف القرن الثاني عشر في الاستيلاء على قرطبة واشبيلية وتمكّنتْ مملكة قشتالة من السيطرة على غرناطة بين أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر. وكان من نتائج ذلك أنْ بدأت هجرة واسعة لنخبة من الأندلسيين تجاه المغرب(خاصة إلى تونس مستفيدة من الوضع الإيجابي للحفصيين) منها عائلة ابن خلدون.

صحبَ ذلك كلّه تحوّل موازين القوى لغير صالح العرب المسلمين في حوض المتوسط إذْ سيطر ملوك قشتالة على مضيق جبل طارق وتمكّن البتغاليّون من الاستيلاء على سبتة سنة ١٤٥٠؛ كما استفاد الأوربيون من التحوّلات العميقة للبُنى الاقتصادية والاجتماعية ومن الابتكارات في مجال الملاحة البحرية لتطوير التجارة البعيدة التي كان المحيط الأطلسي مجالها وهو ما مهّد لتحوّل الثقل التجاري عن حوض المتوسّط وبالتالي التهميش التدريجي للقوى التجارية القديمة وفي مقدّمتهم الكيانات العربية الإسلامية. ورغم ما سبق لا نلمس في أدبيّات ابن خلدون ما يشير إلى تحامل غير مبرّر على الآخر الأوروبي الغازي وتفادي الصيغ والعبارات الدالّة على أنّ الصراع كان صراعا دينيا بحتا، واكتفى عموما باستعراض مراحل توسّع "الإفرنج"في بلاد المشرق والمغرب وجزر المتوسط[١]. وفي ذات الوقت حاول في مواضع مختلفة من كتاب العبر التوقّف عند الظرفية العامّة لنجاح الحملات الصليبية مثل التأكيد على واقع "الفتنة و الاختلاف" بالمشرق أو

١ - ابن خلدون، نفس المصدر، ٩ ص ٣٨٨ وما بعدها.

"تقلّص ظلّ" الصنهاجيين في بلاد المغرب[١]. وإذْ لاحظ ابن خلدون نامي قوة (الفرنجة) فإنّه ذكّر قارئه أنّ تنامي تلك القوة لم تكنْ بمحض الصدفة وإنّما تعود إلى "ضعف ملك العرب" وكثرة الصنائع التي هي دليل على عراقة العمران[٢].

ونستنتج ممّا سبق أنّ ابن خلدون يتباين في تصوره هذا لنشوء الحضارات مع ذلك الذي يعتبر الدين عنصرا أساسيا في نشأة الدول وقيام الملك إذْ لا يضع «الوازع الديني» أو حكمة «النبوة» شرطاً للاجتماع البشري؛ بل أنّ مؤلّف المقدّمة يذهب إلى أن الدعوة الدينية نفسها تحتاج إلى عصبية تستند عليها لتقوم وتنتشر[٣]. كما خلُص ابن خلدون إلى أن الأمم التي لها تقليد قديم في الحضارة، ومنها الأمم الأوروبية النصرانية، تكون أكثر قابلية للعمران. لهذا نلاحظ أنّ القاموس الوصفيّ للآخر عند ابن خلدون، وعلى رغم تكوينه الفقهي قد خلى من عبارات الشتيمة واللعنة أو من لغة الحطّ، التي ميزت الكثير من النصوص القريبة للحقبة الصليبية.

فلئنْ كان الآخر الأوروبي مثلا حاضرا في مؤلفات جغرافيي المسلمين ومؤرخيهم[٤] فيظهر أنّ نظرة عبد الرحمن بن خلدون إزاءه كانت متميّزة لا مقارنةً بمن سبقه منهم فحسب بل وكذلك بمعاصريه: فلا نلحظ في أدبياته فكرة أفضلية العالم الإسلامي في موازنته مع أوروبا المسيحية بينما يمثّل ذلك الرأي القاسم المُشترك بين جلّ الجغرافيين العرب المسلمين رغم إقرارهم بوجود كلا العالميْن في نفس الإقليم المناخي.

١ - ابن خلدون، نفس المصدر، ٩ ص ٣٩٨، ٤٤٠.

٢ - " و أمم النصرانية عُدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها (الصنائع) لأنهم أعرق في العمران الحضري و أبعدُ عن البدو وعمرانه"، ابن خلدون، المقدّمة، ص٤٤٩.

٣ - ابن خلدون، المقدّمة، ص ١٧٥، ١٧٦.

٤ - نعمان محمود جبران، جوانب من صورة الآخر في التاريخ الإسلامي، دراسات تاريخية، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩-٥٠، آذار/حزيران١٩٩٤، ص ٤٥-٦١.

نجـد تلـك الصـورة واضـحة عنـد الجغـرافيين المشـرقيين كـابن خرداذبـة(ت٢٧٠ هـ) وابـن رسـته (ت ٢٩٠ هـ) والمسـعودي(ت٣٤٦ هـ) والمقدسـي(٣٩٥ هـ)[1] وخاصـة ابـن الفقيـه(ت ٢٩٠ هـ) الـذي قسـم الأرض إلى خمسة أقاليم تطابقا مع أجزاء الطير معتبرا العالم الإسلامي صـدر الـدنيا وأوروبا ذنبها[2]. كما نجد نفس التصوّر عند نظرائهم المغاربـة مثل صـاعد الأندلسـي(ت٤٦٢ هـ) الـذي رأى أنّ موقـع الأروبيـين مـن الأرض جعلهـم ضمن الأمم التي لا تعتني بالعلوم واعتبرهم "أشبه بالبهائم"[3]. أمّا أبو عبيد البكري(ت٤٨٧ هـ) فقد أورد معلومات مشابهة وإنْ كانت أكثر غزارة عن بلدان أروبية مختلفة[4]. وفي ذات المنحى تتباين صورة الآخر الأوروبي لدى ابن خلدون عمّا نجده عند غيره من المؤرخين القريبين من عهده و الذين قد يكونوا تأثروا في نظرتهم للغرب الأروبي بمخلفات الحروب الصليبية مثل ابـن القلانسـي(ت٥٥٥ هـ) الـذي وصـف الأوروبيين بكـونهم "أهـل غـدر"[5] وأسامة بن منقذ(ت٥٨٤ هـ) الذي نعتهم بالغدر وبعدم الوفاء[6].

وإذا كـان إطـار البحـث لا يسـمح بالتوسّـع فـي إثبـات خفايـا هذا التميّز الخلدوني في نظرته للآخر فإنّ التذكير بأنّ غرض الكتابة التاريخية عند ابن خلدون مثّل إطارا مُواتياً لذلك: فحقيقة التاريخ بالنسبة إليه هي"نظر وتحقيق وتعليل للكائنات" و آلياته في ذلك "البصيرة...والعلم"[7] وإلاّ تحوّل إلى

١ ـ المسعودي، على بن الحسين، التنبيه والأشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١، ص٣٨، ٣٩.

٢ ـ ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، تحقيق ونشر دي جوييه، بريل ١٨٨٥، ص ٣، ٤.

٣ ـ صاعد الأندلسي، القاضي أبو القاسم أحمد، طبقات الأمم، مطبعة النجف ١٩٦٧، ص ٦، ٨.

٤ ـ أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن حجّي، دار الإرشاد ببيروت ١٩٨٦، ص٧٤، ٧٥، ٨٢، ١٢٧.

٥ ـ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣، ص٢١٨.

٦ ـ ابن منقذ، أسامة بن مرشد الكناني، كتاب الاعتبار، بيروت ١٩٨١، ص٢٤.

٧ ـ ابن خلدون، المقدّمة، ص ٤.

جملة من"المزلآت و المغالط"[١]، وهو تصوّر يختلف أيّما اختلاف عن الاتجاه العام للمؤرخين السابقين مثل الطبري الذي ألحّ على أنّ هدفه من تاريخه لا يتجاوز سرد "أخبار الملوك الماضين وجُمل من أخبارهم"[٢] والمسعودي الذي أقرّ بأنّ ما دعاه لتأليف كتابه مروج الذهب لم يكن غير المحافظة على أخبار السابقين[٣] وأيضا معاصريه كابن إياس الذي برّر تأليفه لكتاب بدائع الزهور بتتبّع الأخبار الطريفة و الصالحة للسمر[٤].

الآخر مصدر للمعرفة: "الإسرائيليات" نموذجا:

انتقد ابن خلدون المؤرخين المسلمين السابقين (المسعودي، الطبري، الجرجاني،الثعالبي، الزمخشري..) لثقتهم المطلقة في الأخبار واعترض على الالتزام الباتّ بالإسناد إلى حدّ إيراد أخبار أسطورية مؤكّداً على أهميّة اعتماد مبدأ التمحيص في محتوى الخبر التاريخي وضرورة التثبّت من سلامته على أساس مطابقته للوقائع التاريخية و" لطبائع الأحوال والعمران"[٥].

ومع ما في موقفه السابق من مناوأة لأسلوب المحدّثين ومن دعوة لتأسيس منهج خاص بالمؤرّخين يبدو أنّ ابن خلدون لم يكن بإمكانه، أو

---

١ - "التاريخ فنّ عزيز المذهب... فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحُسن نظر وتثبّت يُفضيان بصاحبهما إلى الحقّ...لأنّ الأخبار إذا أعتُمد فيها على مجرّد النقل...ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربّما لم يُؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم"، ابن خلدون، نفس المصدر، ص ١٠

٢ - الطبري، أبو جرير، تاريخ الأمم و الملوك، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧، ج١ ص ١٢، ١٣

٣ - "وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ ....محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء... و أن يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلما منظوما عتيدا..."، مروج الذهب و معادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، دون تاريخ، ج١ص٢٠.

٤ - " وبعد فهذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ، الموسوم ببدائع الزهور في وقائع الدهور. و قد أوردتُ فيه فوائد سنيّة، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس وتكون للمنفرد كالأنيس"، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ ص ٣.

٥ - ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠، ٣٩، ٤٠.

بإمكان غيره في ذلك العصر، بحسب تعبير برنشفيك[1] كتابة تاريخ عالميّ بنفس الضوابط ذاتها التي قام هو نفسُه بتحديدها في المقدّمة. ولهذا اضطُرّ عند تأليفه موسوعتَه التاريخية (كتاب العبر) إلى نقل الأخبار عن السابقين؛ فأكثر النقل عن عديد المؤرخين المسلمين السابقين في مقدّمتهم أبي جرير الطبري[٢] وهشام بن الكلبي[٣] والمسعودي[٤] وغيرهم كما لم يرَ حرجا في التواصل العلمي مع موروث الحضارات الأخرى بناءً على قاعدة أنّهم "أدرى بتاريخهم"[٥] وأنّه لم يجد " في كتب التاريخ (الإسلامية) مع كثرتها واتّساعها ما يلمّ بتاريخهم (الشعوب الأخرى)" كما عبّر عن ذلك في أكثر من موضع من كتاب العبر. وضمن هذا السياق نقل كمّا كبيراً من المعلومات عن مصادر مسيحية: منها عبد الله بن الياس الشهير بابن العميد[٦] وهيروشيوش أو أهروشيوش[٧] كما استند بشكل واسع إلى موارد يهودية معيدا بذلك الاعتبار للإسرائيليات، وكانت إحدى مصادر الخبر التاريخي في صدر الإسلام، وهو الجانب الذي سيتوسّع فيه البحث وذلك لأكثر من دافع.

---

1 -R.Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVème siècle*, Paris 1940-1947, volume 2, p.392-3

٢- ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣ ص ٣٦، ٤٣، ٤٧، ٥١، ٦٣، ٩٨، ١٠٠٣، ١١١، ١٥٤، ١٦٥، ١٧٣، ١٨٠، ٢٠٠، ٢٠٦، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٣٧، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٦٩، ٦٩٧.

٣ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣ ص ١٣، ٢١، ٤٣، ٥٠، ٨٥، ٨٩، ١١٣، ١٢٠، ٣٢٦، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٩٦، ٥٢٧، ٥٤٧، ٥٥٢، ٥٨٢.

٤ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣ ص ٣٥، ٣٦، ٦٥، ١٢١، ١٤١، ١٦٨، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٨٤، ٥٠٨، ٥٨١، ٥٨٤ .

٥ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣ ص ٢٢٣

٦ - ابن خلدون، المصدر السابق ، ج٣ ص ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٨٤، ٣٨٩، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٨، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٢، ٤٦٠.

٧ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣ ص ٢٢، ٧٩، ١٣٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٠، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٩، ٤٣٦، ٤٢٧، ٤٤١، ٤٤٤.

وللتذكير، فقد أثار استعمال الإسرائيليات جدلاً واسعاً منذ بدأ نقد الحديث والخبر عامة عند المسلمين. وساد اتجاه عام مُشككٌ في قيمتها المعرفية واصفا الأخبار المُسندة إليها بالضّعف، وهي صفة سلبية عند نقّاد الرواية. ورغم هذا يلاحظ الباحث في الأثر الخلدوني اعتمادها بشكل واسع من قبل عبد الرحمن بن خلدون الذي عاش بين القرنيْن *X-IX*هـ/ *XIV-XIII*م.

إلى جانب المبرر السابق هناك دوافع أخرى تحفّز على التركيز على الإسرائيليات كمصدر للخبر، أوّلها: أنّها وجه من وجوه التعامل مع الآخر باعتبار أنّ غير المسلم هو مختلف حتّى وإن كان متواجدا في المجال العربي الإسلامي (وليس دار الإسلام باعتبار أنّ هذا المصطلح قد اختفى منذ *القرنV*هـ/*XI*م). وثانيا المساهمة في سدّ فراغ يميّز الدراسات الخلدونية، رغم غزارتها، والمتمثّل في عدم تناول مصادره بالعناية الكافية؛ فباستثناء جملة من الأعمال الجيدة للباحث"فيشل"(*W.J.Fischel*)[١] ودراسة قصيرة لعبد الرحمن بدوي حول استفادة ابن خلدون من مؤرخ إسباني عاش بجليقية خلال القرن الخامس[٢]، لم تحض الإسرائيليات كمورد من موارد كتاب العبر بدراسة مستقلّة.

١- W.J.Fischel, *Ibn Khaldûn's use of historical sources*, *Studia Islamica* MCMLXI, n°13-15 pp.109-121. /

Ibn Khaldûn in Egypt. His public formation and his historical research (1382-01406), Berkley 1967/

Ibn Khaldûn and Josippon, Homenaje a Millas Vallicrosa, Barcelona 1954-6, vol.I pp.587-598

Ibn Khaldûn On The Bible , Judaism and Jews, I. Goldziher Memorial, Budapest 1948, volume II, pp.147-0171.

٢ - عبد الرحمن بدوي، ابن خلدون و أوروسيوس، أعمال ندوة ابن خلدون بكلية الرباط، ١٤-١٧فيفري١٩٧٩/ وأشرف بدوي على ترجمة كتاب أوروسيوس *Adversus Paganos Historiae* إلى العربية بعنوان تاريخ العالم و صدره بمقدمة جيدة حول قيمة الكتاب و أثره في التأريخ ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت ١٩٨٢.

ومع الإقرار بالصعوبات التي يواجهها الباحث عند تناول هذه المسألة وفي مقدّمتها نقص المصادر الأساسيّة ففي هذا القسم من البحث سعْيٌ للإحاطة بجانبيْن رئيسييْن: أيّ بُعدٍ للتوظيف الخلدوني للإسرائيليات؟ وما هي الموارد التي استمدّ منها عبد الرحمن بن خلدون معلوماته ذات الصلة بالموضوع؟

- ✓ ابن خلدون يعيد الاعتبار للإسرائيليات:

حرص الإسلام بمختلف أجهزته على صياغة تصوّر متكامل للتاريخ البشري يبدأ مع الخلق و ينتهي باليوم الآخر؛ صيرورةٌ تتخلّلها جملة من التجارب الدينية يمثّل الإسلام تتويجا لها. في هذا الإطار عمل رواد السيرة ثم رواة الخبر التاريخي الأوائل على ملء فراغات لم تأتِ في شأنها إجابات دقيقة في القرآن وذلك بالالتجاء إلى أشخاص انحدروا من أوساط كان لها اتصال من قريب أو بعيد بأهل الكتاب، وخصوصا من اليهود، زوّدوا المسلمين بكمّ من المعلومات. سُمّيت تلك الأخبار بالإسرائيليات.

وبتتبع ما ورد في المأثور نلحظ أن الإسرائيليات تتركب من مواد خبرية مختلفة، غير مرتبطة ضرورةً بمنطق كرونولوجي:

أوّلها تلك التي تمّتْ صياغتها بغرض تفسير أو توسيع المعلومات الواردة في النص القرآني حول الأنبياء الأولين و الشخصيّات الدينية السابقة للإسلام. وقد عُرفت تلك المعلومات بمعارف أهل الكتاب وتم تداولها في الجملة شفويا؛ وقد أُسندَ القسم الأكبر منها خطأ إلى التوراة أو الزبور-(*Psaumes*) بينما هو مُقتبسٌ من الأدبيات الربية (*rabbiniques*) الأمر الذي قد يُفسر برغبة المسلمين في عدم الظهور بمظهر المستفيد من المصادر اليهودية المتأخرة[1]. ورغم أن بعضَ ذاك المنقول أتى مُبهمَ المصدر، حتى و كأنّه بَدَا مُنتَجاً إسلاميّاً، فقد سيقت مختلف تلك المواد في

1 - Goldziher I., Isra'iliyyat, *Revue des études juives*, XLIV 1902 pp.63-66

أسلوب صارم وجدّي من قبل رواة انتموا سابقاً إلى أوساط أهل الكتاب وخاصة إلى يهود اليمن ثم أسلموا. تتردد من هؤلاء أسماءُ وهب بن منبه وابن سلام وغيرهم وقد حصلوا على حظوة اجتماعية معينة جعلتهم مرجعاً لتفسير القرآن أو الحديث، ومن هناك تسربتْ رواياتهم للمصادر التاريخية بحكم ارتباط نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين بالحديث أو بالسيرة لتصبح مصدراً رئيسياً لفهم أحداث تمت الإشارة إليها في النص القرآني بصورة أو بأخرى.

في مرحلة لاحقة توسع توظيف أخبار أهل الكتاب وربما أصبحت المصدر الأساسي في رصد أهم محطات التاريخ البشري الماقبل إسلامي (أهم أطوار تاريخ بني إسرائيل والغزو الروماني لفلسطين)؛ ومن خلال ذلك تمّ استعراض قسم من تاريخ الشرق القديم. وقد استُعملتْ تلك المعلومات بكثافة في كتب السيرة والتواريخ (نقل الطبري أكثر من ثلاثين رواية عن وهب بن منبه وحده) وحتى كتب الأدب الجغرافي. وفي الأثناء برزت مجموعة ثالثة من القَصَص ذات بُعد أسطوري في الغالب[1] لا علاقة له بالشخصيات التوراتية ولا ينقلها رواة منحدرين من أوساط يهودية.

إلاّ أنّ يُلاحظ هو أنّ توظيف روايات أهل الكتاب في قبل مدوّني الأحداث التاريخية في العصر الوسيط الإسلامي لم يكن على نسق واحد:

١- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت١٩٨٦ ص١٥-٢٨ / جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي، عدد١(١٩٥٠)عدد٢(١٩٥٣)عدد٢(١٩٥٤)/

I.Goldziher, *Isra'iliyyat*, *Revue des Etudes Juives,* XLIV(1902)/ G.Vajda,*Isrâ'îliyyat*, E.I.2 vol.IV pp.231/

F.Rosenthal,*The influence of the biblical tradition on muslin historiography*, *Historians of the Meaddle East*, Oxford University 1862 pp.35-45

فقد استعملت بشكل واسع في المصادر التاريخية الأولى خلال القرنين الثالث والرابع (أعمال الطبري والمسعودي..) ولا سيما من قبل روّاد مدرسة التاريخ الشامية المتأثرة بالرواية اليمنية[١] قبل أنْ يخفتَ استعمالها ويتقلّص بشكل لافتٍ في القرون اللاحقة وخصوصا منذ القرن الخامس للهجرة إذْ اقتصر على بعض كتب السّيرة والأدبيّات ذات المنحىً التأمّلي(الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء والموفّق بن قدامة في كتاب التوابين وأبو الفداء بن كثير في كتاب السّيرة...). **ويعود التحوّل السابق إلى مجموعة من الأسباب، منها:**

- سبب ذو صبغة معرفية، يتمثّل في موقف نقّاد الرّواية المناوئ للمصادر التي لا تتوفر فيها صفة العدالة حسب المقاييس التي حدّدها الفقهاء بصرامة على قاعدة الجرح و التعديل. وإذا كان هذا التشدّد مبرّراً في كثير من الأحيان بسبب تزايد ظاهرة وضع الأحاديث منذ فترة مبكّرة من التاريخ الإسلامي فقد استهدفتْ تلك الصرامة نَقلَة الأخبار عن غير المسلمين بشكل خاصّ. وقد اختزل ابن النديم(وقد عاش في القرن العاشر) موقف المحدّثين من هذه المسألة من خلال ما ذكره عن محمد بن إسحاق "بأنه غير مرضي الطريقة... كان يحمل عن اليهود والنصارى ويسمّيهم في كتبه أهل العلم الأولِ وأصحاب الحديث يضعّفونه ويتّهمُونَه.."[٢]
- سبب موضوعي: يتلخّص في تعمّق أزمة العالم الإسلامي وبخاصّة خلال القرنيْن اللذيْن عاش فيهما ابن خلدون إذْ تميّزا بأزمة شاملة بكلّ المقاييس كان من انعكاساتها تزايد الصّراعات بين مكوّنات المجتمعات العربية الإسلامية المخلفة. فنمتْ خلالهما الدعوات المُحذّرةّ من تزايد دور أهل الذمة في الحياة العامّة واستهدفتْ اليهود بالدرجة الأولى

١- شاكر مصطفى، التاريخ العربي و المؤرّخون، دار العلم للملايين بيروت، ج١ص١٢٥
٢- الفهرست، طبعة دار المعرفة ، بيروت بدون تاريخ نشر ص ١٣٦.

باعتبارهم المجموعة الأكثر حضورا في أغلب مناطق" دار الإسلام". وتُمكّن العودة إلى الأدبيات العربية الإسلامية المختلفة، خلال القرن العاشر مثلاً، من رصد موقفيْن من اليهود، واحد إيجابي مثّله ابن سعيد الأندلسي قاضي طليطلة في كتابه طبقات الأمم[1] والذي وضع فيه اليهود ضمن الأمم الثمانية التي أسْهمتْ في تطوّر المعرفة الإنسانيّة إلاّ أنّ الموقف السلبيّ كان هو السائد لا سيما في الأوساط الدينية وقد عبّر عنه ابن حزم الأندلسي(٩٩٤-١٠٦٤هـ) والماغليّ في رسالته "أحكام أهل الذمّة"[2].

أيّ موقف لعبد الرحمن بن خلدون من المواقف السالفة؟ يضع ما يسوقه في كتاب العبر من مبرّرات للاستفادة من موارد الإسرائيليات ضمن المجموعة الثانية:

- سعيه إلى الاستفادة من الوثائق اليهودية الأصليّة التي أمكن له الوصول إليها ، وفي هذا الإطار يجب فهم امتداحه لكتاب مؤلّف يهوديّ(سنأتي على ذكره لاحقاً) أخذ منه قسما كبيرا من أخبار بني إسرائيل، وبذلك يبدو ابن خلدون وفيّاً لمنهجه الذي اتّبعه في كتاب العبر ويتمثّل في حرصه على العودة لمصادر الأمم التي قام بسرد أخبارها كلّما أمكن ذلك[3] .
- تصريحه في أكثر من موضع بأنّ اليهود أعلم بأخبارهم[4] وهو ما يبرر بالتالي نقل تاريخهم من مصادرهم مباشرةً وإنْ ربط ذلك بعدم وجود تعارض بين تلك الأخبار وبين النصوص المُقدّمة عليها(ولعلّه

١- ابن سعيد الأندلسي، طبقات الأمم، طبعة بيروت ١٩١٢.

2 -*Voir : G.Vajda, Un traité maghrébin « adversus judaeos » : Ahkam ahl al-Dimma du sayh Muhammad b. abd al-Karim al-Magîlî, Etudes d'orientalisme, dédiées à la mémoire de Levis-Provençal, t.2, Paris MCMLVII pp.805-813.*

٣- ابن خلدون، كتاب العبر، الشركة العالمية للكتاب و دار الكتاب اللبناني ببيروت١٩٨٦، ج٣ص٢٢٣.

٤ - ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ٢٢٢، ٢٢٣

- يقصد هنا النصوص الشرعية). ويعني هذا أنّ ابن خلدون لا يمانع من حيث المبدأ في الاقتباس من الإسرائيليات على خلاف ما ذهب إليه آخرون من المفكرين المسلمين بمن فيهم مُعاصرُهُ شمس الدين السخاوي(ت٩٠٢هـ) المدافع عن التاريخ كفرع من المعارف مستقلّ بذاته ولكنّه كان من أنصار"تحريم النقل عن التوراة والإنجيل" بحجة أنّ ما جاء في القرآن والسنّة يغني المسلمين عمّا سواه"[١].
- تأويله للحديث النبوي "لا تصدّقوا أهل الكتاب" بشكل يؤدّي إلى معنًى مناقض لظاهره عندما يضيف" وقال(الرسول) ولا تكذبوهم"[٢]. ويُثارُ في هذا الخصوص السؤال حول مدى مطابقة رأي ابن خلدون السابق مع ما يذهب إليه قسم من المستشرقين(جولدسيهر وكيستر وجويتن وفايدا...) باعتبارهم الإسلام امتدادا للموروث اليهودي المسيحي[3]؛ ويميل الاعتقاد إلى عدم انسجام الموقفين إذ أنّ الاتجاه الإستشراقي يؤكّد علي التواصل الديني التشريعي بين الإسلام والديانتيْن اللتيْن سبقته في حين أنّ ابن خلدون يرى إمكانَ اعتماد وثائق اليهود والمسيحيين عند نقل أخبارهم. ويدعم هذا الرأي ما يضيفه في هذا الاتجاه، إذ هو يُقسّم الأخبار المنقولة عن الإسرائيليات إلى نوعيْن: تلك التي تعني أخبار اليهود وقصص الأنبياء التي جاءتْ في الكتب المقدّسة وبالتالي من الواجب تصديقها وأخرى تعني الوقائع والأحداث والتي رأى أنّ

١- السخاوي، شمس الدين(ت٩٠٢ هـ)، الإعلان عن التوبيخ لمن ذمّ التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩ ص١٤٨-١٤٩-١٥٠.

٢ - ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٣ ص ٢٢٣.

3 -M.J.Kister, Hadditû ‘an banî isrâ’îla wa-lâ haraja. A Study of early tradition, *Studies in Jahiliyya and Early Islam*, Variorum Reprints, London1980/ G.Vajda, Juifs et Musulmans selon le Hadith, *Journal Asiatique* CLXXIX(1937) pp.115-120/ S.D.Goitein, Banû Isrâ’îl, E.I.2 vol.1

- قبولها من عدمه مرتبط بظنّ المؤرّخ ومدى تقديره لصحّتها[1]، وبالتالي أعطى لناقل الخبر التاريخي دوراً أساسياً في تقييم محتواه وإعمال عقله فيه بما أنّه أصبح يتجاوز التّحمّل بحسبِ مصطلح المُحدّثين.

وبإعطائه للخبر التاريخي هذا الأفقَ، مثّل ابن خلدون نقلة في الفكر التاريخي عند العرب المسلمين حتّى من هذه الزاوية، زاوية الإسناد والإخبار:

فقد تباين مع منظري علم التاريخ العرب المسلمين في ذلك الزمن في تصوّرهم للخبر ودور المؤرّخ. إذْ اشترط الكافيجي في كتيّبٍ ألّفه في حدود سنة٨٦٧هـ/١٤٦٣م[2] ضرورة توفر شروط راوي الحديث في المؤرخ بينما رأى شمس الدين السخاوي في الخبر التاريخي مجرّد" فنّ من فنون الحديث النبوي"[3]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فبتوسيع محتوى وموارد التأريخ تجاوز ابن خلدون صورة الخبر التاريخي كما سادتْ بين مدوّني المؤلّفات التاريخية في المراحل السابقة من العصر الوسيط الإسلامي؛ ذلك أنّ نقد الرواية في المرحلة السابقة كان ينصبّ أساساً على مدى الثقة في ناقلها بقطع النظر عن محتواها وهذا ما يفسّر ورود الكثير من المعلومات الخيالية و حتّى الأسطورية في ثنايا كتب التاريخ، وقد نبّه ابن خلدون إلى خطورة تلك الظاهرة في المقدّمة. وتجدر الإشارة إلى أنّ أبا

١- كتاب العبر،ج٣ص٢٢٣

٢- المُختصر في علم التاريخ ، نُشر ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانتس روزنتال، ترجمة أحمد صالح العليّ، بغداد، ص٣١٧-٣٨٠

٣- السخاوي، شمس الدين، المصدر السابق، ص٤٤

جرير الطبري انشغل بدوره بهذه المسألة قبل ابن خلدون بسبعة قرون لكنّه اكتفى بإثارتها وألقى مسؤولية ما يأتي في الرواية على عاتق مؤدّيها إليه[1]، أي أنّ الطبري التزم في النهاية بأصل شروط نقل الرواية كما ضبطها نقّاد الحديث.

✓ ما هي موارد الإسرائيليات التي نهلَ منها ابن خلدون؟

بتتبّع المصادر التي استقى منها ابن خلدون معلوماته في كتاب العبر بالإمكان التمييز بين نوعيْن من الأخبار يمكن وضعها في خانة الإسرائيليات:

- مجموعة أولى مُستمدّة من الموروث الإسلامي: تركّز على التاريخ الأوّل لبني إسرائيل كطور مؤسس وغير مكتملٍ للتجارب التوحيدية، ومن البديهي أن يكون مؤلّف كتاب العبر قد استقاها من المصادر العربية التي أخذتها بدورها من الإخباريين من أهل الكتاب. وقد خصّ ابن خلدون من هؤلاء بالذكر وهب بن منبّه(ت٢٢٨ ه)، الذي نقل عنه خبر الصراع بين بني إسرائيل والكنعانيين في عهد الأنبياء الكبار[2] وخبر عودة المنفيين اليهود من بابل إلى فلسطين ثمّ إعادة بناء الهيكل بعد تخريبها من طرف البابليين[3]. والمعروف عن وهب أنّه أشهر الإخباريين ويُنسب إليه

١- جاء في مقدّمة حولياته: " وليَعْلمْ الناظرُ في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكرَه...إنّما هو على ما رويتُ من الأخبار... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يسْتنِكرُه قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنّه لم يعرف له وجها في الصحّة، ولا معنًى في الحقيقة، فليعْلمْ أنّه لم يُؤتَ في ذلك من قِبلِنا، وإنّما أُتِيَ من قِبل بعض ناقلِيه إلينا؛ وإنّما أدّيْنا ذلك على نحو ما أُدّيَ إلينا"، تاريخ الأمم و الملوك، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ببيروت١٩٩٧، المجلد الأول ص١٣

٢- ابن خلدون، كتاب العبر،ج٣ص١٧١

٣- ابن خلدون، نفس المصدر، ج٣ ص٢٢٦

- كتـاب المبتـدأ المعـروف أيضـا بكتـاب الإسـرائيليّات[1] أو مبتـدأ الخلق[2] ونجد نتفا منه في تـاريخ الطبري وفـي سيرة ابن إسحاق وفي قصص الأنبياء للثعلبي كما نقل المسعودي أجزاء منـه ملاحظـاً أنّـه كـان متـداوَلا فـي عصـره[3]. ومـن اليسـير أن نسـتنتج أنّ تـاريخ اليمن القديم وتاريخ ملوك بابل والأقباط الذي نقلـه ابـن خلـدون عن ابـن إسـحاق والطبـري وهشـام بـن السـائب الكلبـي وابـن سـعيد[4] والمسعودي يرقـى جلّـه إلـى إخبـاريين من أهل الكتـاب: من هؤلاء عبيد بن شرية الجرهمي اليمنـي وقد عـاش فـي العهد الأموي الأول وينسب له"كتاب في أخبار الماضين"[5] وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام الذي كان واسع المعرفة بالموروث اليهودي وإليـه تُنسب أقدم كتب المغـازي والتـواريخ والتفاسير حتّـى أنـه ادعـى الإطـلاع علـى الكتب المنسوبة إلى النبيّ دانيال مباشرة [6].

ومن الواضح أن ابن خلدون لم يكن مجدّدا فـي تطويعـه تلـك الأخبـار لِمَـا يتوافـق مـع الّرؤيـة الإسـلامية العامّـة للتـاريخ البشـري إذ التـزم بالصورة التي سادت في الموسوعات التاريخية التي أُلِفتْ منذ صدر الإسلام، إلاّ أنّ تجديده يبدو من خلال سعيه لاختيار "الصحيح" من تلك الروايـات و كذلك مقابلتهـا مـع مـا نقلـه مؤرّخـون متـأخّرون مـن مصـادر يهودية مباشرةً. ففي هذا الخصوص يقول مستعرضـاً أخبـار مملكة بني إسرائيل خلال مرحلة الأنبياء " وأنا الآن أذكر ما كان

١- ابن النديم، الفهرست، ص١٣٨

٢- ابن قتيبة، كتاب المعارف ص٤

٣- فواد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض ١٩٨٣ ، المجلد١ الجزء٢ ، التدوين التاريخي ص٣٢

٤- الذي نقل عن"كتب الشرق"، ابن خلدون، كتاب العبر، ٣ص١٠٧

٥- ألّفه بطلب من معاوية بن أبي سفيان، الفهرست، دار الفكر، بدون تاريخ نشر ص١٣٢/ المسعودي، مروج الذهب، طبعة القاهرة ١٣٤٧هـ، ج٢ ص٨٢

٦- فؤاد سزكين، التدوين التاريخي، م١ج٢ ص١٢٠

فيها من الحكّام على التتابع معتمدا على الصحيح منه، على ما وقع في كتاب الطبري والمسعودي ومقابلاً به ما نقله صاحب حماة (أبو الفداء) من بني أيوب في تاريخه عن سفر الحكام والملوك من الإسرائيليات"[1].

- المجموعة الثانية هي الإسرائيليات ذات المصدر غير الإسلامي: وهي الأكثر حضورا وتتوزّع بدورها إلى مصادر دينية وأخرى تاريخية.

المصادر الدينية: تتردد في كتاب العبر صيغٌ تعبيرية مختلفة تدلّ على أنّ ابن خلدون أخذ عن التوراة مباشرة من قبيل" ففي التوراة"[2] ومن" كتاب أسفار الملوك "[3]. ولأنّه لا دليل على معرفة ابن خلدون بالعبرية أو الإغريقية التي دُوّنَ بها العهد القديم سابقا فالمرجح أنّه أخذ تلك النصوص من نسخ معرّبة. ونستندُ في هذا إلى معلومات عديدة تشير إلى ترجمة أقسام من العهد القديم من السريانية والإغريقية إلى العربية منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي. وقد وردتْ أقدم تلك الإشارات في كتاب الفهرست لابن النديم(ت٣٧٧ هـ) في ترجمته لأحمد بن عبد الله بن سلام ذاكرًا أنّه نقل إلى العربية كتابا رمى من ورائه حسب تعبيره إلى توفير الحجة لما جاء في القرآن و السنة و ساق فيه تفاسير للكثير ممّن أسلم من أهل الكتاب وصدّره بترجمة لأقسام من التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء (أنبياء العبرانيين) والتلاميذ(التلمود) وذلك منذ عهد هارون الرشيد[4]. وفي المراحل اللاحقة تعدّدت الترجمات وأُضيفتْ إليها شروح وتفاسير مختلفة تزامن بعضها مع الفترة التي عاش فيها ابن خلدون كتلك التي أنجزها مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد وصَدَقة بن منجا السّامريّيْن في القرن السابع للهجرة[5].

١ - ابن خلدون، كتاب العبر، ٣ص ١٦٩

٢- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ص ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠

٣- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ص ١٨٣

٤- ابن النديم، الفهرست، ص٣٢-٣٣

٥- حاجي خليفة، كشف الظنون، دار الفكر،ج١ص٥٠٦

أمّا الصنف الثاني من المصادر غير الدينية للإسرائيليات فيتمثّل في الأدب التاريخي:

في معرض سرده لأحداث إعادة تشييد الهيكل بالقدس بعد تهديمه من طرف الملك البابلي بختنصّرسنة٥٨٦ ق م أشار ابن خلدون بشكل لا لبس فيه أنه نقل تلك المعلومات من وثائق مكتوبة من قِبل "علماء بني إسرائيل" وذلك أثناء إقامته بمصر[١]. وللتذكير فإنّ تلك الإقامة تواصلتْ من ٧٨٤هـ/١٣٨٢، لمّا خير الابتعاد عن إفريقيّة، وحتّى تاريخ وفاته سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م. وقد تقلّب خلالها في مناصب رفيعة منها خطة قاضي قضاة المالكية والإشراف على التدريس في المدارس الأميرية(المدرسة الظاهرية والمدرسة القمحيّة والمدرسة الصرغتمشية، نسبة الأمير سيف الدين صرغتمش). مع الملاحظ أن تولّي تلك المناصب الهامة قد جلب لهذا الوافد المغربي الغريب عن مصر المنافسةَ الشديدة و العداوات المختلفة فكان تواتر العزل عن القضاء والعودة لتوليه السّمة الأساسية المميّزة لمرحلة إقامته بالقاهرة، لكنّ ابن خلدون تعامل مع ذلك بمنطق المتعود على الخيْبَات السياسية فادّعى، وبصورة واضحة التصَنّعَ، ارتياحه للعزل مؤكّدا على أنّه كان يستغل تفرّغه ذلك للتدريس والتأليف[٢].

ومن المفيد في هذا الإطار التذكير بأن مصر تميّزتْ خلال الفترة التي أقام ابن خلدون بها بأزمة عميقة تماما كما هو الحال في باقي العالم الإسلامي، كان من أهم معالمها التناحر بين أفراد الأسرة المملوكية الثانية(الشراكسة) واستشراء الفساد (حتّى أنّه أُنشئ ديوان لمقاومة الارتشاء سمّي "ديوان البذل") وانتشار الأوبئة(١٣٤٨)، ومع ذلك كانت تعرف حركية علمية تشهد عليها كثرة علمائها ومكتباتها و الجدل المذهبي

١- كتاب العبر، ج٣ص٢٢٢

٢- جاء في كتابه التعريف:" فأنشطني(السلطان المملوكي برقوق) من عقالها(خطة القضاء)، فانطلقتُ حميد الأثر ...ورتعتُ فيما كنت راتعا فيه قبلُ من مراعي نعمته...عاكفا على تدريس علْمٍ أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف.." التعريف ؟؟

الدائر بها ومحافظة مراكزها العلمية على إشعاعها. ويهمنا هنا أن نخص منها "جنيزة" القاهرة.

والجنيزة هو مصطلح عام يُطلق على البيوت التي تُودع فيها الوثائق القديمة أو التي استوفت حظها من الاستعمال والتابعة للمعابد اليهودية المنتشرة في أرجاء حوض المتوسّط وهو ما يعني إمكانية وجود جنيزة في كثير من المدن التي عاشت فيها تجمّعات يهودية، إلاّ أنّ أغلبها اندثر لسبب أو لآخر ولم تبق إلاّ جنيزة القاهرة محافظةً على ثروتها من تلك الوثائق. وقد استنتج"غوتاين"(*Goitein*)[١] من خلال دراساته لوثائق "جنيزة" القاهرة تنوّع محتواها مسجّلا بشكل خاص كثرة الوثائق الرسمية(*Actes légaux*) والفتاوى وهي عبارة عن إجابات نُظّار المدارس(*Geonim*) اليهودية الرئيسية في بغداد وفلسطين على التساؤلات الواردة عليهم من الأقاليم الأخرى (*Responsa*) كما وقف عند التنوّع الجغرافي لموارد تلك الوثائق مُسجّلا الحضور اللافت للوثائق الوافدة من بلاد المغرب وخصوصا أفريقية (دور التجار اليهود على غرار يهوده بن يوسف و أبو اسحاق بن ابراهيم بن عطا..).

وإنْ كان لا دليل على أنّ عبد الرحمن بن خلدون قد تردّد على "جنيزة" القاهرة وأفاد من وثائقها؛ فمن غير مستبعد أنّه اطّلع في نفس الفترة على الكتب المقدّسة العبرانية وخاصّة على كتاب اعتبر نفسه أوّل من اطّلع عليه من المؤرخين العرب يتعلّق بالفترة المُمتدّة بين إعادة بناء الهيكل

١- S.D.Goitein,*Les documents de la Geniza du Caire comme source de l'histoire de la civilisation musulmane*, *Studia Islamica* III,Paris 1955 p.75-91/ du même auteur, *The documents of the Cairo Geniza as a Source for the mediterranan Social History*, *Journal of the American Oriental Society*, vol.80 pp.91-100/ du même auteur, *La Tunisie du XIè siècle à la lumière des documents de la Geniza du Caire*, *Etudes d' orientalisme dédiées à la mémoire de Levis-Provençal,* t.2 pp.559-579,Paris MCMLVII

الأوّل وتدميره نهائيا على يد الرومان سنة ٦٩م[١]، ونَسَبَهُ إلى مؤلف سمّاه "يوسف بن كَرِيُّون".

يمثّل يوسف بن كريون المصدر الأساسي للتاريخ اليهودي في كتاب العبر وترقى إليه أغلب المعلومات المتعلّقة بتاريخ بني إسرائيل: أخبار تولّي الملك البابليّ بختنصّر الحكم[٢] واحتلال القدس من قبل الفرس وتهديم الهيكل[٣] وترجمة التوراة إلى الإغريقية[٤] وابتداء أمر الكيتم(الرومان) وبداية التوسع الروماني في المتوسط[٥] وإعادة بناء الهيكل[٦] وانقسام اليهود إلى فرق مختلفة[٧] وأطوار الصراع بين الرومان والفرس في الشرق[٨] وابتداء أمر القياصرة ونفوذهم في المشرق[٩] والعلاقة بين الممالك اليهودية والممالك العربية الشمالية[١٠]. وتوسّع ابن خلدون في الاعتماد على ابن كريّون خاصّة في أخبار التاريخ الروماني[١١] والحرب بين اليهود والرومان والتي انتهت بسيطرة طيطش(*Titus*) على القدس وتهديم الهيكل وتفرّق اليهود[١٢].

---

١ - " هذه الأخبار ... لم يكْتُبْ فيها واحد من الأئمّة؛ ولا وقفتُ في كتب التواريخ مع كثرتها واتّساعها على ما يلُمُّ بشيء من ذلك. وقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بني إسرائيل من أهل ذلك العصر، في أخبار الدوْلتيْن اللتيْن كانتا بها ما بين خراب بختنصّر الأوّل وخراب طيطُس الثاني الذي كانتْ عنده الجلوة الكبرى... مؤلّف الكتاب يسمّى يوسف بن كريون"، ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٣ ص ٢٢٢

٢- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ص٢٢٥.

٣- ابن خلدون، نفس المصدر ٣ص ٢٢٤-٥.

٤- ابن خلدون، نفس الصدر، ٣ ص ٢٢٨-٢٢٩.

٥- ابن خلدون، نفس المصدر ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤.

٦- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ٢٦٣، ٢٦٤.

٧- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ٢٣٥ و ما بعدها.

٨- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ص ٢٤٤ – ٢٤٨.

٩- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ص ٢٤٩ وما بعدها.

١٠- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ٢٥ و ما يليها.

١١- ابن خلدون، نفس المصدر، ٣ ص ٢٤٩- ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠-٢٦١، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢.

١٢- ابن خلدون، نفس المصدر،٣ ص ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٤٠٠، ٤٠١.

من هو يوسف بن كريون؟ قال عنه ابن خلدون في سياق نقل الخبر عنه "وزعم أنّه من عظماء اليهود وقوادهم عند زحف الروم إليهم، وأنّه كان على صولة(قد تكون مدينة صفد القريبة من القدس) فحاصره "وسباسيون" (*Flavius Vespasianus*) أبو طيطُش (*Titus*) واقتحمها عليه عُنوة، و فرّ يوسف إلى بعض الشعاب، وكمَنَ فيها ثمّ حصل في قبضته بعد ذلك، واستبقاه ومنَّ عليه وبقي في جملته. وكانت له تلك وسيلة إلى ابنه طيطُش عندما أجلى بني إسرائيل على البيت..."[1].

وينطبق هذا التعريف على المؤرخ الروماني "فلافيوس يوسيفوس" (*Flauius Josephus*) (بين ٣٧ و١٠٠ م) المُنحدر من عائلة أرستقراطية كان لها نفوذ واسع في المؤسسة الدينية اليهودية في القدس وهو ما أهّله لتلقي تعليم واسع وليصبح قائداً عسكريّاً. ولمّا تعرّضت فلسطين للغزو الروماني في النصف الثاني من القرن الأوّل للميلاد كُلّفَ بقيادة المقاومة في منطقة الجليل لكنّ أسْرَه من قبل القائد الروماني"وسباسيون" (*F.Vespasianus*) أقنعَهُ بعدم جدوى المواجهة وبضرورة التفاوض مع الغزاة فتحوّل إلى وسيط بين الرومان والقيادات اليهودية الرافضة لتسليم القدس للرومان وذلك قبل محاصرة المدينة ثمّ احتلالها وتهديم هيكلها سنة٦٩ م. وقد جلب ذلك الموقف "الفلافيوس يوسيفوس" الطعنَ والتخوين من قبل الأوساط اليهودية المهيمنة على بيت المقدس(السنهدرين)[2]، لكنّه نال في المقابل الحظوة من لدن الرومان، وهذا ما يفسر استقراره بروما

١- ابن خلدون، نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٢٢.

2 -L.M.Amitai, *Romains et Juifs, étude critique sur les rapports publics et privés qui ont existé entre les Romains et les juifs jusqu'à la prise de Jérusalem par Titus,* Paris1894.

مباشرة بعد احتلال "تيتوس"(*Titus*) لفلسطين. وتُنسبُ "الفلافيوس يوسيفوس" كتبٌ عديدة في التاريخ اليهودي[1] اعتمد فيها بدوره على مصادر سابقة كانت مُتداولة في عصره مثل "شيشرون" *Marcus Tullius Cicero* (١٠٦– ٤٠ ق م) و"الأسكندر الميلي" *Alexander of Miletus* (١٠٥م – ٤٠ م) ومؤرخين إغريق آخرين[2].

لكن تأكيد ابن خلدون أنه نقل عن " فلافيوس يوسيفوس " يصطدم بإشكال عميق وهو أنّه لا دليل على ترجمة أعمال ذاك المؤرخ اليهودي-الروماني إلى العربية خلال العصر الوسيط، وهو ما جعل بعض الباحثين يغلّب الرأي في أنّ ابن خلدون وقع في خلط إذْ نسب أعمال مؤرخ آخر إلى ابن كريون[3].

وإنصافًا لمؤلف كتاب العبر يجب التأكيد على أنّه هو ذاته كان ضحية خلط تسبّب فيه مدوّن سابقٌ من يهود اليمن يسمّى زكرياء بن سعيد قام خلال القرن الحادي عشر بترجمة كتاب من العبرية إلى العربية[4] استعرض مؤلّفه في أوّله تاريخ إيطاليا القديم وتأسيس روما ثمّ توسّع في سرد مرحلة هامة من التاريخ اليهودي والمُتمثّلة في مرحلة إعادة بناء الهيكل التي تلتْ الإبعاد أي المرحلة الحسمونية والمكابية وأنهى كتابه باستعراض أطوار الحرب بين اليهود والرومان؛ وكما هو بيّنٌ يتطابق هذا المحتوى بشكل عام مع

---

1 من كتبه: -*Histoire de la guerre des Juifs (77-78ap.JC.)* / *Les antiquités juives* / *Histoire des juifs depuis la création du monde jusqu'à leur révolte contre les Romains*, en 20 livres / *vitae (autobiographie)/ Défense de la nation juive et réponse à Appien*/ *Discours sur le martyre des Macchabées…*

2 -A.Bonnetty, *Documents historiques sur la religion des Romains et sur la connaissance qu'ils ont pu avoir des traditions bibliques*, t.1 pp.29-213-168, Paris 167

٣ - على أومليل، المرجع السابق، ص ١١٣/ *Encycl. Judaica*, vol.X p.298/ W.J.Fischel, *Ibn Khaldûn in Egypt p*.139-148

٤- *Encycl. Judaica*, idem / W.J.Fischel, *idem*

كتاب "فلافيوس يوسيفوس" إضافةً إلى أنّ عنوانهما واحدٌ[١]. كان ذلك السبب الأوّل في الخلط؛ أمّا السبب الثاني فهو التقارب الواضح في الأسماء وفي زمن التأليف الأوّل: فالكتاب الذي تُرجم إلى العربية يُنسب إلى إخباريّ اسمُه "فلافيوس جوزبّون"(*Flavuus Josippon*) القريب من" فلافيوس يوسيفوس" كما قام صاحبُه بتأليفه كذلك في جنوب إيطاليا الذي كان أحد المراكز الفكرية الهامّة ليهود الشتات[٢].

لكلّ هذه الأسباب قد يكون المُترجم اليمنيّ نسب كتاب " فلافيوس جوزبّون " إلى" فلافيوس يوسيفوس" ولم يتسنّ التثبّت من نسبته لصاحبه الحقيقي إلاّ في أواخر القرن الخامس عشر (١٤٨٠) لمّا تمّ العثور على نسخة تؤكّد بما لا يدع مجالا للشكّ هُويّة صاحبه الحقيقي[٣]، أيْ بعد أنْ أفاد ابن خلدون من النسخة العربية السابقة. أمّا في خصوص تسمية"يوسف بن كريّون" الذي يستعملها ابن خلدون فهي على الأرجح تحريف " ليوسيفوس بن جوريّون"(*Josephus ben Gorion*) وهو الاسم العبراني الذي عُرف به " فلافيوس جوزبّون"(*Flavuus Josippon*).

١ - انظر: *Wikipedia*.org / *Encyclopaedia Britannica* 1911

٢- Josippon , *Œuvres choisies*, éd. De H.Honimer,1967

٣- *Encyclopédie Judaica* , T.X p.296-298

خاتمة:

ينبني الاستنتاج الأوّل على القسم الأخير من العمل إذْ يبدو من خلاله أنّ الاستناد إلى "الآخر" بالداخل في تحصيل المعرفة يتجاوز في الواقع التواصل ليُلامس التكامل بين مكوّنات دينية وثقافية وعرقية تعايشت في إطار سياسي واحد. ومن المهمّ الإشارة في هذا المجال إلى أنّ التوسع العربي الإسلامي أنتج ظاهرة طريفة في علاقة اليهود بالدولة الجديدة لم تحصل سابقا إلاّ في ظلّ الهيمنة الفارسية على الشرق القديم بين القرنين *VII*و*VI* قبل الميلاد وتمثّلتْ في وجود غالبيتهم الساحقة في "دار الإسلام" أو في الكيانات السياسية المتفرّعة عنها.

ويذهب أغلب الدّارسين المختصّين في شأن تركيبة المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط إلى أنّ اندماج هذه المجموعة كان كبيرا وتجاوز إلى حدّ بعيد اندماجهم في أوروبا الغربية آنذاك[١]؛ بل أنّ الكثير من الباحثين يميلون إلى أنّ اقتباس الفئة المتعلّمة من اليهود للغة المنتصرين كان عاملاً مهمّاً للتثاقف وأعطى لليهود دوراً ما في تنمية الحياة الثقافية في المجتمعات التي عاشوا فيها بفضل معرفة بعضهم بالتراث الإغريقي [٢].

يُثبت ما تقدّم أنّ المجال العربي الإسلاميّ لم يكن خاصّا بالعنصر العربي ولا فقط بالمتديّن المسلم بل كان في ذات الحين فضاءً للاختلاف والتواصل. اختلافٌ يمكن أنْ يمسّ كلّ ميدانٍ وكلّ مجالٍ شريطة عدم البحث عن تناقض مع السلطة القائمة وألاّ يؤدّي التعبير عن الرأي إلى إثارة "الرأي العام". حينها يكون صاحب الرأي عُرضة لكلّ أنواع التنكيل بقطع

1 -B.Lewis, *Juifs en terre d'Islam*, éd. Flammarion, 1986 p. 95-96

2 -Haim Zafrani, *Les Arabes et les Autres*, dans *les Arabes du Message à l'Histoire*, sous la direction de Dominque Chevalier et André Miquel,pp.239, éd. Fayard 1995/ S.D.Goiten, *Society and institutions under Islam,* Journal of Word History, XI 1968 pp. 173/ E.Ashtor, *The number of Jewis in Medieval Egypt*, Journal of Jewish Studies, XVIII 1967 pp.9-42

النظر عن مذهبه أو دينه أو عرقه، والأمثلة على ذلك غزيرة. بل اللافت للنظر هو أنّ غير المسلمين كانوا أقلّ من تعرّض للقتل والتنكيل لأنهم لم يشاركوا مباشرة في الصراعات الفكرية أو المذهبية التي لها تأثير على السلطان؛ في المقابل كانوا وسيلة تواصل علميّ بدرجة أولى وعاضدوا في ذلك مجموعات عرقيةً أخرى، ويكفي التذكير بالدور الذي لعبه السريانيون في نقل العلوم الإغريقية إلى العربية في صدر الدولة العباسية ثم في ترجمتها إلى اللاتينية في مرحلة لاحقة[١].

من جانب آخر وسّع ابن خلدون مفهوم الإسرائيليات بحيث لم تعدْ تقتصر على روايات الإخباريين الذين أسلموا كما ساد في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي وإنما أضاف إليها مصادر أساسية منها مكونات العهد القديم(التوراة والمدرش وكتب الأنبياء) ومقاطع من الإنجيل كما طوّر مجال استعمالها فلم يعد غرضها مقتصراً على توضيح ما هو غامض في القرآن والسيرة بل تحوّلت إلى أدب تاريخي يرمي إلى التعريف بالأمم الأخرى في إطار نظرة مؤلف كتاب العبر للتاريخ العالمي. ويمكن ملاحظة ذلك التوجه من خلال ما جاء في توطئة المجلّد الثالث من هذا الكتاب والتي أكّد فيها على أنّ تاريخ العرب، كنواة للتاريخ العربي الإسلامي، ليس غير امتدادٍ لتطوّر تاريخي شامل لشعوب مختلفة من "معاصريهم" من السريانيين والكلدانيين والفرس وبني إسرائيل والأقباط؛ ومن هذا المنظار فإنّ العودة لأخبار الماضين لا يرمي للتذكير فحسب بل خاصّة لفهم التاريخ في بعده الإنساني.

١ - Watt M., L'influence de l'Islam sur l'Europe médiévale, *Revue des Etudes Islamiques*, volume XL (1972) fascule 1 p.7-41 et facscule 2 p. 297-327.

وإذا كان من الصعب على الباحث إدراك ما إذا كان ابن خلدون واعياً بذلك أم لا فإنّ التصوّر الخلدوني السابق ليس في الواقع غير دليل على اعتبار الإنسان النواة الأساسية في"عُمْران العالم"[1] بقطع النظر عن وسطه العرقي أو الثقافي، وهو بالتالي وجه من أوجه الفكر الإنسي الذي يجعل الكائن البشري مركز الاهتمام ويمتدح العقل. وبهذا يكون ابن خلدون امتدادا لمنزع فكريّ عرفته الثقافة العربية الإسلامية طفا مرّة وخبا أخرى وتمّ التعبير عنه بصور مختلفة وكان ابن عربي(ت٦٣٨/١٢٤٠) وأبو زكرياء الرازي أهمّ روّاده. فقد كانت فكرة كون الإنسان هو مركز الكون أساسيّةً في تفكير الأوّل بينما مجّد الثاني العقل واعتبره أداة للنجاة[2].

١ - ابن خلدون، المقدّمة، ص ٣٨.

٢ - حول إرهاصات الفكر العقلاني في الإسلام انظر: عبد الرحمن بدوي، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، دار سيناء للنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٥

ولنفس الباحث مقال: L'Humanisme dans la Pensée Arabe, *Studia Islamica* n° VI, pp.67-100

الفصل الثالث
المؤرخون العرب

راعى المؤرخون العرب صدق الرواية في تأريخهم لأنفسهم ولغيرهم من الأمم الأخرى. وكانت أغلب مؤلفاتهم تدور حول تاريخ البلدان التي فتحوها، وتاريخ الإسلام وتاريخ أهم الأقطار والمدن كمصر والأندلس والمغرب ومكة والمدينة ودمشق وبغداد. ومن أبرز المؤرخين العرب والمسلمين المسعودي وأهم مؤلف له في التاريخ (مروج الذهب)، ومحمد بن جرير الطبري وأشهر كتبه (تاريخ الرسل والملوك)، ومن أشهر المؤرخين في العالم عبدالرحمن بن خلدون ويُعد كتابه المقدمة من أروع وأوسع كتب التاريخ، وقد استقاه من ملاحظاته فيما يقع من أحداث، ويرى أن هناك اطرادًا في السلوك الإنساني شبيها بما يحدث في الطبيعة. "موقع الموسوعة العربية العالمية."

من الأمور المسلَّم بها لدى علماء الاجتماع والتاريخ
أن المسلمين جعلوا التاريخ علما قائماً بذاته له فنه وأصوله.

يقول "قدري طوقان" في كتابه "العلوم عند العرب": ويعتبر "ابن خلدون" من أبرز من كتب في علم التاريخ، ومن المجددين فيه ولقد ترجمت مقدمته إلى مختلف اللغات عدة مرات.

ويقول "عبد الواحد وافي" في كتابه: "دراسة مقدمة ابن خلدون": ومن مقدمته استمد "أوغست كانط" العالم الفرنسي كثيراً من آرائه ونظرياته.

التاريخ بين النظرة الإسلامية والنظرة الأوربية

- من علماء التاريخ المسلمين:

محمد بن إسحاق:

هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، ولد (سنة ٨٠ هـ) في المدينة المنورة، وكان من أصل فارسي، نما ابن اسحاق وترعرع في

المدينة المنورة، وتلقى تعليمه على جهابذة الفكر فيها أيض، ونبغ في مجال كل من السيرة النبوية والمغازي، لذا عرف باسم صاحب المغازي والسير، وكان يلقب بالعلامة الإخباري وعميد مؤرخي السيرة، ويُكَنَّى بأبي بكر أو بأبي عبد الله، والمعروف أن جده من سبي عين التمر البلدة القريبةمن الأنبار التي تقع غرب الكوفة.

قام أبو بكر بن إسحاق سنة (١١٥ هـ) بزيارة لمدينة الإسكندرية باحثاً عن الأحاديث التي لها صلة قوية بمغازي رسول الله ق، ولكنه لم يبق طويلاً هناك بل عاد إلى مسقط رأسه المدينة المنورة. وعندما اشتد عود الدولة العباسية في العراق قرر الرحيل إليه، وذلك في أول أيام حكم أبي جعفر المنصور، وعليه استوطن الكوفة والجزيرة والري وقضى بها ردحاً من الزمن، ولكنه قضى آخر أيام حياته في بغداد التي توفي فيها سنة (١٥١ هـ).

والجدير بالذكر أن أبا بكر بن اسحاق تمكن من عقد صداقة قوية بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان من المغرمين بمغازي رسول الله ق؛ ولذا أهدى له كتابه المعروف باسم "سيرة ابن إسحاق" الذي بقي من المصادر المهمة لمؤرخي السيرة النبوية.

✍ **وقال عنه الإمام الذهبي في "سير أعلام النبلاء":**

- ✓ كان ابن اسحاق ثقة، حسن الحديث.
- ✓ لا يزال بالمدينة علم جَمٌّ ما دام فيهم ابن إسحاق.
- ✓ من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق.
- ✓ لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق.
- ✓ محمد بن اسحاق أمير المحدثين لحفظه، وفي رواية: أمير المؤمنين في الحديث.

- ✓ ابن إسحاق رجل قد اجتمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه.
- ✓ قد اختبر ابنَ إسحاق أهلُ الحديث فرأوا صدقا وخبر.
- ✓ محمد بن إسحاق ينبغي أن يكون لـه ألـف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد.
- ✓ إذا جلس العلماء إلى ابن إسحاق فأخذوا في فن من العلم، قضى مجلسه فيه.
- ✓ كان ابن إسحاق أول من جمع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذاع صيت أبي بكر ابن إسحاق بين معاصريه بأسلويه ومنهجه الرائعين في الكتابة، حيث جمع فيهما بين منهج المحدثين والإخباريين. ولقد كان له ميل سياسي وديني، حيث كان يستعين كثيرا بالآيات القرآنية لتعزيز رواياته التاريخية كما كان يستخدم بدقة الوثائق والروايات المكتوبة والشفهية، بهذا استطاع أن يقنع الكثير من المؤرخين في العالم الإسلامي أنه أوسع ثقافة من سابقيه ومعاصريه؛ لذا يعتبر بحق من رواد الحضارة العربية والإسلامية ومن أبرز علماء مدرسة المدينة المنورة التاريخية.

وكان يجمع في كتاباته التاريخية بين منهج كل من المحدثين والقصاص. وعليه تعلم الكثير من تواريخ الأنبياء، ولكنه استعمل طريقة واضحة المعالم في تحديد الجوانب الفعلية لغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهكذا تمكن أبو بكر بن إسحاق من تأسيس مباديء الكتابة التاريخية التي تعتمد على الإسناد والتعليل العلمي المنطقي.

ولقد اهتم أبو بكر بن اسحاق اهتماماً بالغاً بجمع الأحاديث النبوية، وخاصة التي لها صلة بمغازي رسول الله ق، لذا ظهر كتابه الشهير "سيرة ابن اسحاق" عبارة عن موسوعة في علم الحدي، علماً أن معظم هذه الأحاديث حصل عليها عن طريق أساتذته في كل من المدينة المنورة ومصر، والمعروف أن كتابه "سيرة ابن اسحاق" أول كتاب يصل إلى

القرّاء في مجال المغازي **وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:**

- ✓ **المبتد:** ويتناول تاريخ الوحي قبل الإسلام.
- ✓ **المبعث:** ويختص بحياة رسول الله ق في مكة المكرمة.
- ✓ **أما المغازي:** فهي تدور حول حياة رسول الله ق في المدينة المنورة.

ولقد تفوق أبوبكر ابن اسحاق بكتابه " سيرة ابن اسحاق الذي نقحه ابن هشام وأصبح يعرف باسم "سيرة ابن هشام" ولحُسن الحظ تبين أخيراً أنه توجد نسخة مخطوطة لسيرة ابن اسحاق في بلاد المغرب وفوق هذا كله فإن الفضل يعود لابن اسحاق في ترتيب وتبويب الأحاديث الصحيحة التي نقلها من مصادرها الأولية، لذا يقف ابو بكر ابن اسحاق عملاقا بين المؤرخين المسلمين. مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية الإسلامية د/ علي بن عبد الله الدفاع.

الطبري:

هو محمد بن جرير الطبري، يكنى بأبي جعفر ويُلقب بالطبري نسبة إلى إقليم طبرستان الذي يقع جنوبي بحر قزوين، وُلِد في مدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان في سنة (٢٢٤ هـ) وتوفي في بغداد عام (٣١٠ هـ)، حيث استوطنها في آخر أيام حياته. لأنها كانت تعج بفطاحل العلم. والجدير بالذكر أنه بدأ دراسته الأكاديمية في "آمل" ثم في "الري"، وعندما نمى وكبر واستوى عوده علمياً زار معظم المراكز الإسلامية الموجودة في كل من بغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر ليتلقى العلم على أيدي كبار المفكرين آنذاك.

والمعروف عنه أنه رجل ذكي جدا وواضح التفكير، وفصيح اللسان يحب الحوار حول جميع فروع المعرفة وخاصة كل من علم التاريخ والتفسير والفقه. ويرى المؤرخون الكبار في المعمورة أن الريادة انتهت إليه في كل من علم التاريخ الإسلامي والتفسير والفقه.

درس أبو جعفر الطبري كلاً من العلوم الأساسية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية دراسة مفصلة أبدع فيها؛ فظهر ذكاؤه الخارق للعيان.

ومن صفاته الحميدة التي تميز بها أنه حارب الشعوبية التي كانت منتشرة بين العاجم، وهذا يعطي برهاناً على ورعه وتقواه. وهكذا بقي أبو جعفر الطبري منشغلاً بالدين والعلم والمعرفة، فلم يقبل المناصب الحكومية التي عرضت عليه، بل وقسم وقته الثمين بين العبادة والتدريس والقراءة والتأليف، ونجح فيها كلها بجدارة مرموقة. وكان حينئذ يحصل على قوته من مزرعة كبيرة خلفها له والده بإقليم طبرستان. وعليه عاش عيشة مهيبة ومحترمة من الخلفاء والوزراء والعلماء، لذا كان زاهداً عازفاً عن الدنيا وحطامه. أما طلبته فكانوا يجلونه كثيرا لعلمه وفضله، حيث استمروا يأتون إليه بأعداد هائلة من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه.

وهكذا برز أبو جعفر الطبري بين المؤرخين في المعمورة بأسلوبه السلس الممتع وبأفكاره المتجددة وحكمته الناضجة. كما اشتهر بحبه النادر للكلمة ومتابعة تطوراتها عبر العصور، ونتيجة لذلك فقد مر في كثير من المنحنيات والمنعطفات المسدودة؛ لأنه قلما يتبع طريقاً واضح المحجة وساطع الضوء، لأنه فرغ نفسه للبحث والاستقصاء والتنقيب ليس فقط في مجال علم التاريخ ولكن أيضا في جميع فروع المعرفة.

لم يكن أبو جعفر الطبري -فقط-، ولكن أيضا رجل قانون وعلم، فهو من علماء الدين الإسلامي المتميزين. ولكن ذاع صيته بين المؤرخين في العالم في حولياته التي أخذت مكانا بارزا بين المؤلفات التاريخية في المكتبة العربية والإسلامية، والمعروف عن أبي جعفر الطبري الصدق في روايات المعلومات؛ لذا يعد كتابه " تاريخ الأمم والملوك " مصدرا أساسيا في ميدان علم التاريخ.))

مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية الإسلامية د/ علي بن عبد الله الدفاع.

- ✓ مميزات كتاب الطبري:

تاريخ الطبري يمثل بحق قمة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزماني والمكاني، وإطالة النَّفَس في بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبه، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية، وذلك بنسبته الأقوال إلى أصحابه، مع استقامة النظرة التاريخية، وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة، في دقة وأمانة بعيدا عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية.

ويمتاز كتاب الطبري: بطول الفترة الزمنية التي يغطيه، وبسعة معلوماته وتعدد مصادره. كما يمتاز بجمعه لروايات المؤرخيب والإخباريين الذين سبقوه وحفظه لذلك، حيث فقدت رسائلهم الصغيرة وبقي كتابه الموسوعي، ولم يقتصر على روايات الإخباريين المشهورين، بل أضاف لها مئات الروايات التي أخذها عن شيوخه وخاصة علماء التفسيبر والحديث، **ومن أهم ميزاته:** حفاظه على الإسناد ونسبة الأقوال إلى أصحابه، وبذلك يتمكن الباحث من معرفة قيمة هذه الرواية بواسطة نقد إسنادها ومعرفة ما فيه منعلل.

ومن ميزاته وقد رتبه على السنين: تمكين الباحث من ملاحظة الأطوار التي مرّت بها الأمة الإسلامية في بنائها الحضاري، ومعرفة حالات الضعف والقوة التي مرّت به، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد في سبيل الله، والالتزام بشريعته، فكلما كانت المة ملتزمة بشريعة الله مجاهدة في سبيله كانت قوية مهيبة، وكلما وقع فيها الانحراف، وصرف الجهاد في سبيل الله، إلى الصراع الداخلي، والحفاظ على كراسي الحكم، ضعفت وأصابها الهوان.

وتـاريخ الطبـري وإن جعـل محـوره وإدارة حوادثـه علـى الخلافـة والخلفـاء، إلا أنـه لا يخلـو منرصـد وبيـان للاتجاهـات الاجتماعيـة، فثـورة القرّاء فـي العـراق، وثـورة السـودان فـي المدينـة، وثـورات العامـة فـي بغـداد والتفـافهم حـول المُطَّوِّعـة والمحتسـبين، وثـورة الـزنج، والصــراع بـين العصبيات العربية في البصـرة، وخراسـان، والشـام، والصـراع بين العـرب والموالي من جانـب آخـر، كل هذا ينبـيء عن مظلـم اجتماعيـة فـي الدولـة وانحـراف عـن الصـراط السـوي. كمـا يسـتطيع الباحـث ملاحظـة الحركـات المذهبيـة ذات الصـبغة العسـكرية، مثـل: الخـوارج، والشـيعة، والخُرَّميـة، والروانديـة، والقرامطة، والأطوار التـي مرّت بها في دعواته.

وقد أعطى الطبري معلومات إدارية قيمة، تتمثل في تقديم قوائم سنوية بعمال الخراج، والديوان، وأمراء الحج، وحكام الأقاليم، والقضاة.

كما أعطى معلومات عمرانيـة عن خطط المدن التـي أنشئت فـي ظل الدولة الإسلامية، خاصة بغداد حيث أطال في ذكر عمارتها والأطـوار التـي مرّت بها عمارة الحرميين الشريفيين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

✓ ثناء العلماء عليه:

قـال أبـو سـعيد بـن يـونس: محمـد بـن جريـر مـن أهـل (آمـل) كتـب بمصـر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بـن غالـب كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصـره؛ فكـان حـافظـا لكتـاب الله، عارفـا بـالقراءات، بصـيرا بالمعـاني، فقيهـا فـي أحكـام القـرآن، عالمـا بالسـنن وطرقهـا: صـحيحها وسـقيمها وناسـخها ومنسـوخه، عارفـا بـأقوال الصحابة والتابعين، عارفا بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علما وذكاءً وكثرة تصانيف قَلَّ أن ترى العيونُ مثلَه.

✓ وفاته:

قال أبو محمد الفرغاني حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه؛ فقيل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر بن كامل؛ فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحُجَّة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر دينن، وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؛ فقال: الذي أَدِينُ لله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلاما هذا معناه، وأكثر من التشهد وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل: توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال: ولم يغير شيبة وكان السواد فيه كثير، وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين نحيف الجسم طويلا فصيحا وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى. " موقع نداء الإيمان "

ابن خلدون:

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ويكنى بأبي زيد، وذلك لأن اسم ابنه الأكبر زيد (وهذه عادة من عادات العرب الأصيلة) ويلقب بابن خلدون نسبة إلى جده التاسع (الذي يتصل نسبه بالصحابي وائل ابن حجر) خالد بن عثمان الحضرمي الذي قدم إلى الأندلس من اليمن واستوطن (قدمونة)، ولكن ذريته غادرتها إلى إشبيلية التي استقرت بها أمدا طويل، ومن ثم انتقلت هذه العائلة الكريمة إلى (سبتة)، وعندما تدهورت الحياة السياسية في الأندلس، حيث ولد النابغة عبد الرحمن بن خلدون سنة (٧٣٢هـ)؛ فرح به والده محمد بن خلدون الذي يعتبر بحق من كبار فقهاء عصره.

لقد تلقى أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون تعليمه الأول على والده، ولكنه لم يكتف بهذا بل تتلمذ على أيدي كبار المفكرين في تونس، فتفوق تفوقا ملحوظاً في كل من العلوم الشرعية (من حديث وتفسير وفقه) والعلوم اللسانية من (نحو وصرف وبلاغة وأدب) والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك وعلم الاجتماع وغيرها من المعالم والثقافات.

يقول محمد عبد الرحمن مرحبا في كتابه "المرجع في تاريخ العلوم عند العرب": "كان ابن خلدون لسنا فصيح، حسن الترسل متوقد الذهن، خصب التفكير دقيق الملاحظة فيما يقرأ ويرى كبير النفس زاخر النشاط، متمكناً في العلوم التي انتهى إليها ارتقاء الثقافة ونشاط الترجمة والنقل في العالم العربي على عهده، يقلب الأخبار على وجهها ويكشف عن زيفه، ويتتبع الظواهر الإنسانية المختلفة ويستنتج منها ما يستنتج من أحكام.

حفظ القرآن في صغره وجَوَّده بالقراءات، وتلقى على أبيه ثم على كبار مشايخ تونس وفاس طائفة كبيرة من العلوم النقلية واللغوية والعقلية، فدرس التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام واللغة في مختلف فروعه، كما درس المنطق والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية، وعلى الرغم من شؤون السياسة التي استأثرت بعد ذلك بقسط كبيرمن نشاطه في مرحلة شبابه، فإنه لم ينقطع عن متابعة الدراسة واستيعاب التراث الثقافي القديم ومتابعة الحركة الفكرية في عصره، والاطلاع على ما يظهر في العالم حوله من بحوث وآراء... وكان إلى جانب تمكنه في البحوث العلمية محدثاً بارع، رائع المحاضرة، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وذلاقة لسانه وبلاغة عباراته، كيف لا وهو منأعلام الأدب العربي وأمراء البيان؟!!"[1]

١- مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية الإسلامية د/ علي بن عبد الله الدفاع.

✓ "ابن خلدون "وعلم التاريخ:

تبدو أصالة ابن خلدون وتجديده في علم التاريخ واضحة في كتابه الضخم "العبر وديوان المبتدأ والخبر" وتتجلى فيه منهجيته العلمية وعقليته الناقدة والواعية، حيث إنه يستقرئ الأحداث التاريخية، بطريقة عقلية علمية، فيحققها ويستبعد منها ما يتبين له اختلاقه أو تهافته.

أما التجديد الذي نهجه "ابن خلدون" فكان في تنظيم مؤلفه وفق منهج جديد يختلف كثيرًا عن الكتابات التاريخية التي سبقته، فهو لم ينسج على منوالها مرتبًا الأحداث والوقائع وفق السنين على تباعد الأقطار والبلدان، وإنما اتخذ نظامًا جديدًا أكثر دقة، فقد قسم مصنفه إلى عدة كتب، وجعل كل كتاب في عدة فصول متصلة، وتناول تاريخ كل دولة على حدة بشكل متكامل، وهو يتميز عن بعض المؤرخين الذين سبقوه إلى هذا المنهج كالواقدي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والمسعودي بالوضوح والدقة في الترتيب والتبويب، والبراعة في التنسيق والتنظيم والربط بين الأحداث. ولكن يؤخذ عليه أنه نقل روايات ضعيفة ليس لها سند موثوق به.

✓ تعليق المنصفين من الغربيين:

لقد نوّه كبار المؤرخين الغربيين بكل صراحة عن مكانة أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون العلمية، فذكر "**أرنولد توينبي**" في كتابه "**دراسة التاريخ**" أنه تفوق على السابقين له تفوقا ملحوظ، ولم يصل أحد من معاصريه إلى ما وصل إليه، فهو الذي صاغ أصول التاريخ التي تعتبر -لا ريب- أعظم عمل من نوعه ابتكره أي عقل في أي عصر وفي أي بلد. وأضاف جورج سارتون في كتابه مقدمه في تاريخ العلوم: إن أبا

زيد عبد الرحمن بن خلدون يقف بجلاء كأكبر مؤرخ في العالم، فله السبق على مكيافيلي وبودان وفيكو وكونت وكورنو، لذا لا عجب أن يُعد في مقدمة رواد التاريخ في المعمورة.

أما "**روبرت فلنت**" فقد وصف عبد الرحمن بن خلدون في كتابه "**تاريخ فلسفة التاريخ**": بأنه لم يأت في العالم له مثيل في مجال علم التاريخ، فهو كباحث نظري في هذا الحقل ليس له نظير في أي عصر أو في أي قطر، فلم يكن أفلاطون أو أرسطو أو سان أوغسطين أندادا له، بل لا يستحق غيرهم الذكر بجانبه، والحقيقة أن المؤرخين الأوائل جمعوا له المادة التاريخية ولكنه هو وحده الذي استخدمه.[١]

عني المسلمون بالتاريخ عناية كبيرة، ولقد قام بعض مستشرقي الألمان بإحصاء المؤرخين من المسلمين في الألف سنة الأولى من الهجرة فبلغوا تسعين وخمسمائة مؤرخ عدا من فاته منهم، وعلى الرغم من أن بعض المستشرقين قصد إلى الحقيقة والموضوعية في أثناء تناولهم للتاريخ الإسلامي، بل في كل ما يمس الإسلام والمسلمين، إلا أن جمهرتهم قد خنق الحقائق، وزيف الواقع، وحاول التدليس والمغالطة، لأنهم -ولا شك- متأثرون في ذلك بولائهم لعقيدتهم وسياستهم وكل ذلك لا يخفى على الباحث المدقق.

- من علماء العصر الحديث في التاريخ:

العلامة محمود شاكر:

✓ النشأة:

ولد الشيخ محمود محمد محمد شاكر بالإسكندرية فى لأول من فبراير عام ١٩٠٩ "الليلة العاشر من المحرم ١٣٢٧هـ" وكان والده الشيخ محمد شاكر من أسرة أبي علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهى نسبه

١ - المرجع السابق.

إلى الإمام الحسين بن علي، وتتلمذ والده على يد الشيخ محمد عبده، وعمل بعد تخرجه فى الأزهر الشريف قاضياً فى السودان، ثم شيخا لعلماء الإسكندرية، ثم وكيلاً للجامع الأزهر، وقد أثر فى شخصية ولديه أحمد ومحمود، إلى أن توفي وابنه الأصغر محمود فى العشرين من العمر، فكان تأثير الأخ الأكبر على شيخنا أكثر وضوحاً، خاصة أن أحمد شاكر من المحدثين الكبار، وله أكثرمن ثلاثين كتابا بين مؤلَّفٍ ومحقَّقٍ أهمها: تيسيره لمسند الإمام أحمد، بإخراج أحاديثه وترقيمها وعمل فهارس متكاملة له، **وقد قال عنه شقيقه محمود محمد شاكر:** أبليت شبابى وصدرا من كهولتي، وأخى -يومئذٍ- ركن من العلم باذخ، آوِي إليه إذا حزبني أمر، أوضاق عليَّ مسلك.

فى هذا الجو ولد ونشأ محمود محمد شاكر، فنهل من العلم الكثير، وقبل أن يدخل الجامعة، قرأ كتاب (الأغاني) للأصفهاني كامل، كما قرأ لسان العرب كله، وتفسير الطبري وتاريخه، ودلائل الإعجاز للجرجاني، وأتيح له - أيضاً- أن يدرس اللغة العربية على يدي الشيخ سيد بن على المرصفي، أستاذ طه حسين، وصاحب كتاب "**رغبة الآمِل من كتاب الكامل**" الذى يشرح كتاب الكامل للمبرد، وكتاب "**أسرار الحماسة**" وهو فى شرح ديوان الحماسة لأبي تمام.

- ✓ أولى المواجهات:

كان محمود شاكر فى السابعة عشر من عمره، حينما اشتبك للمرة الأولى مع د. طه حسين، فقد فوجيء بعميد الأدب العربي يلقي محاضرته التي كونت فيما بعد كتاب "**في الشعر الجاهلي**" على طلاب السنة الأولى بكلية الآداب، وكان من بينهم، فما كان من الفتى العاشق للشعر الجاهلى إلا أن واجه أستاذه بأن ما يقوله عن "**المنهج**" وعن "**الشكل**" شيء غامض، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت، فما كان من طه حسين إلا أن أسكت تلميذه

الذي لم يستطع مكاشفته بخواطره التى تتهم الأستاذ بالسطو على أفكار مرجليوث، ولم يغير رأيه، حتى بعدما اعترف مرجليوث بأن طه حسين توصل لنفس الآراء فى الشعر الجاهلى في وقت واحد معه ولم يسطُ أي منهما على الآخر.

ومع رفض محمود شاكر لمنهج طه حسين فى النقد والبحث الأدبي اضطر إلى ترك الجامعة، بل وغادر مصر إلى الحجاز حيث أنشأ فى جدة مدرسة إبتدائية كان لها شأن فى التعليم السعودي الجديد، وبعد عام واحد عاد إلى القاهرة مواصلا عزلته بعد الصدمة الأولي.

وبدأ شيخنا يكتب سلسلة من المقالات النارية فى مجلة الرسالة تحت عنوان: (**نمط صعب**) وذلك فى مواجهة صريحة معلنة مع هؤلاء التخريبيين الذين يريدون هدم الكيان الحضارى العربي والإسلامي، والتشكيك فى أصول اللغة العربية.

وبرغم هذا العطاء المبكر يقول الشيخ محمود شاكر عن الفترة الأولى من حياته، قضيت عشر سنوات من حياتي فى حيرة زائغة، وضلالة مضيئة، وشكوك ممزقة، حتى خفت على نفسي الهلاك، وأن أخسر دنياي وآخرتي، محققاً إثماً يقذف بي فى عذاب الله بما جنيت، فكان كل همي يومئذ أن ألتمس بصيصاً أحتذي به إلى مخرج ينجيني من قبر هذه الظلمات المطبقة عليَّ من كل جانب، فمنذ السابعة عشر من عمري إلى أن بلغت السابعة والعشرين كنت منغمسا فى غِمَار حياة أدبية بدأت أحس إحساساً مبهما متصاعداً بأنها حياة فاسدة من كل جانب، ويواصل شيخنا الحديث عن نفسه قائلاً: لم أجد لنفسي خلاصاً إلا أن أرفض متخوفا حذراً شيئاً فشيئاً أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية والتى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف يهدم السدود، وبقوض كل قائم فى نفسى، وفى طريقى، ويومئذ طويت كل نفسى على عزيمة ماضية أن أبدأ وحيداً متفرداً رحلة طويلة جد، وبعيدة جد، وشاقة ومثيرة جد.. بدأت بإعادة قراءة الشعر

العربى كله، أو ما وقع تحت يدى منه على الأصح، واكتسبت بعض القدرات بلغة الشعر وفن الشعر، ثم تدرجت وقرأت ما يقع تحت يدى من كتب أسلافنا من تفسير لكتاب الله، إلى علوم القرآن الكريم مع اختلافها الى دواوين من حديث رسول الله ق وشروحه، إلى ما تفرع عليه من كتب علماء الحديث وكتب الجرح والتعديل إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين، وشئت بعد ذلك من أبواب العلم.

وسافر شيخنا الى السعودية فتره من الزمن وانشأ هناك مدرسة جدة الابتدائية على المبادئ والقيم الإسلامية التى لا تتبدل ولا تتغير وحين عاد إلى مصر طالب طه حسين بان يكون الشيخ أحد أعضاءه وذلك بعد عشرين عاما أو ما يقرب من الخصومة.

ومع بداية الستينات بدأ معركة فكرية أخرى مع الكاتب العلمانى لويس عوض والذى أعلن أن الصفحات الرائعة من التراث العربى يرجع الفضل فيها لليونانيين، واللاتينيين، ثم راح يشكك فى الشعر المغربي، وجذوره الثقافية كأنه يريد أن يسير على نفس الدرب الذى سار عليه طه حسين وكافة التغريبيين؟.

✓ جرأته فى الحق:

وواجه شيخنا هذه الادعاءات وفند أكاذيبها فى مجلد أسماه "**أباطيل وأسمار**" استخدم فيه منهجاً علمياً متميزاً فى البحث والدراسة، ومن أشهر ما كتبه الشيخ أيضا كتابه القيم (المتنبي) ومن أشهر ما حققه تفسير الطبري، وفى السابعة والخمسين من عمره وبالتحديد فى عام ١٩٦٥م اعْتُقِل شيخنا ظلماً وعدواناً واحتمل ظلمة وغياهب المعتقلات، ورفض أن يعتذر عن تمسكه بدينه وعن ذنب هو منه براء.

وبعد خروجه من السجن انتخب مراسلاً لمجمع اللغة العربية فى دمشق، وكرمته الدولة بجائزتها التقديرية، وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية، واستحق بجدارة جائزة الملك فيصل العالمية، وفي منتصف

الثمانينيات واصل جولاته الفكرية الناجحة وانتقد بشدة أفكار نجيب محفوظ وزكي نجيب محمود ووصفهما بأنهما مثل طه حسين وتوفيق الحكيم مقلدون للغرب وليسوا مبتكرين إنهم يقدمون نفس الرؤى التى ينادون بها؛ ولهذا فهم يسيرون في طريق الخطء وقال عنهم: إن وجودهم ليس شيئاً مفيداً لمجتمعهم ولا لقضايا مجتمعهم، ولو كانوا يسيرون فى طريق صحيح لكان لهم شأن آخر صحيح أنهم مجتهدون ولهم مجهود دائم،ولكنه ضئيل، وباهت فعندما أنظر الى الوجود الحقيقي لطه حسين أو توفيق الحكيم أو إحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ أراه وجودا ليس مفيدا لقضايا مجتمعهم أو مشاكل وطنن.

ولعل جرأة شيخنا فى الحق وفي الصدع به كانت سببا فى تجاهل الأجهزة الإعلامية له ولمنهجة الفكرى إلى أن رحل عن دنيا الزيف إلى مستقر ررحمة الله التي وسعت كل شئ.؟

✓ معركته مع طه حسين:

إن الذين حركتهم وفاة هذا الرجل لبيان رسالته إلى العامة قليل من الكتاب ولكن عملهم كان جليل الشأن؛ لأنهم من النخبة، والنخبة دائما عددهم قليل، لكنَّ أثرهم كبير وخطير، فهم مثل الحبة التى ينبت بها سبع سنابل فى كل سنبلة مائه حبة.

ولقد كان هذا الرجل حبة مباركة. ملأ صوته الدني، وهو لا يزال شاباً لم يبلغ العشرين، وكان إذ ذاك فى سن الاستعداد العلمى حيث كان طالباً فى السنة الثانية من كلية الآداب.. فتى فى أول شبابه الجسمي، ولكن عقله كان قد اكتمل بالمعرفة والنضوج إلى الحد الذى نازل فيه أستاذه الدكتور طه حسين، ومهما تكن النيه التى توافرت لدى هذا الأستاذ وهو مصدر كتابه الشعر الجاهلى فإن موضوع الكتاب كان خطيرا للغاية.

لقد كان يدعي أن الشعر الجاهلي لا أساس له وهو غير حقيقي؛ لأنه منتحل فى عصر الإسلام وهو بهذا ينفي عن الأمة العربية كتاب حياتها فالشعر ديوان العرب. وبالتالى فهو ينفي النموذج الذى تحداه القرآن الكريم وبهذا يسقط عن القرآن إعجازه، بالإضافة الى التداعيات الأخري لهذا الكلام.

والكتاب يموج بمفتريات متعددة عن قصص الأنبياء، وتاريخ الأمم السابقة على الإسلام.

ولقد لقي هذا الكتاب تأييداً واسعاً باسم الحرية التى يجب أن تتوافر للأدباء والكتاب والفنانين، ولكنه وجد معارضة أوسع لأن الحرية يجب أن تكون للبناء وليس للهدم، وأن تكون حركتها داخل إطار يوجهها إلى الخير وليس إلى الشر.

ولقد وقف الأزهر الشريف عند هذا الكتاب وقفةً تريد الإصلاح وترفض الإفساد.

وهيئة مثل الأزهر الشريف حين تقف هذه الوقفة إنما تستعين بإعلامها وعلمائها الكبار الذين لهم فى العلم قدم ثابتة، ورسوخ عتيد.

لكن أن يقف شاب فى السنة الثانية من كلية الآداب ضد أستاذه فى قضية كهذه، فإن هذا يشد الانتباه جد، لقد فنَّد مزاعم أستاذه الذي حاد عن الطريق تفنيدا قويا واضح، ورد عليه ما قال حين كان الدكتور طه حسين وقتها ملء السمع والبصر. عاد من باريس بعد أن حاز أرقى الشهادات، وجاء ليردد ما سمعه وتلقاه فى الخارج عن تراثنا العربي والإسلامي، ودخل اليه بحيلة ماكرة، جازت على الكثيرين وضاعت حقائق كثيرة فى رخامة صوته، وحسن إلقاء ما يقول فى أسماع الناس وأهل الحقيقة الذين لا تنطلي عليهم هذه الحيل قليلون، ولكن كان منهم هذا الشاب الفتى فى كلية الأداب، ولأنه كان من أهل الحقيقة فقد وجد أن وجوده فى الجامعة لن يؤدي إلى الغرض الذي يهدف اليه..

فإذا كان هذا هو حال أستاذه الذى جاء إلى الجامعة ليتلقى عنه فالبقاء فيها عبث وأي عبث، وهجر الجامعة ليتعلم من كتب التراث التى تملأ جدران بيوت قومه وهى كثيرة وكانت حصيلته وفيرة.

✓ تحقيق التراث:

يعد شاكر على رأس قائمة محققي التراث العربي، وأطلق عليه العقاد المحقق الفنان، وإنجازاته في هذا المجال كثيرة، وهي عنوان على الدقة والإتقان، ومن أشهر الكتب التي حققه: تفسير الطبري (١٦ جزءاً)، طبقات فحول الشعراء (مجلدان)، تهذيب الآثار للطبري (٦ مجلدات).. وشاكر لا يحب أن يوصف بأنه محقق لنصوص التراث العربي، وإنما يحب أن يوصف بأنه قاريء وشارح له، وهو يكتب على أغلفة الكتب التي يقوم بتحقيقها عبارة: " قرأه وشرحه " وهذه العبارة كما يقول الدكتور محمود الربيعي " هي الحد الفاصل بين طبيعة عمله وطبيعة عمل غيره من شيوخ المحققين، إنه يوجه النص ويبين معناه بنوع من التوجيه أو القراءة التي تجعله محررا ؛ لأنها قراءة ترفدها خبرة نوعية عميقة بطريقة الكتابة العربية، وهو إذا مال بالقراءة ناحية معينة أتى شرحه مقارباً، وضبطه مقنعاً، وأفق فهمه واسع، فخلع على النص بعض نفسه وأصبح كأنه صاحبه ومبدعه...

وبعد رحلة حياة عريضة رحل أبو فهر شيخ العربية وإمام المحققين في الساعة الخامسةمن عصر الخميس الموافق ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨هـ، ٦ من أغسطس ١٩٩٧م).

✓ نصائح للمختصين:

من طبيعة علم التاريخ أنه يسجل الهزات التاريخية بكل أمانة وصدق ودقة، لذا صار المؤرخ يبذل جهدا كبيرا ليقف على أسبابها البعيدة وأسرارها الدفينة؛ لأنه بمثابة الحكم، وأيضا يعرف تمام المعرفة أن تطور

ونشوء وارتقاء الحياة يحتاج إلى تفسير وتحليل لمثل هذه الألغاز الخطيرة، والثابت لدى المؤرخين أن الماضي في امتداد مستمر ومتواصل للحاضر والمستقبل.

إذن يمكن القول: إن علم التاريخ هو علم نمو وتطور الإنسان عبر التاريخ بلا توقف على مدى الزمان الذي يُعتَبر وعاءه وعليه فإن طبيعة علم التاريخ الإسلامي ليس سرد الأحداث والظواهر التاريخية كما يتصوره البعض، بل مهمته الرئيسية ربط العلل بالمعللات والأسباب بالمسببات، لأن علم التاريخ الإسلامي صرح منطقي يستند على الحقائق التاريخية الخالية من مزالق الخيال.

من هنا يجب أن نشحذ إمكانيات أبنائنا الفكرية ليستفيدوا من تاريخ أمتنا العظيم، ولكي يقفوا موقف الواثقين من أنفسهم ليصيروا سدا منيعا أمام الصراع القائم بين المسلمينوالغربيين أعداء الإسلام، وبهذا سيتمكنون بحول الله وقوته من الحفاظ على قيمنا الحضارية من التفتت والذوبان والهرطقة، ومن المشهور أن من طبيعة علم التاريخ الإسلامي أنه يمتاز بأنه محصلة ثمرات العقول الإسلامية التي عرفت الثقافة الواسعة والخبرة الوطيدة، وعليه يجب في عصر التقنية أن يرتبط شبابنا بتاريخهم العريق ارتباطاً وثيقاً لكي يحموه من عبث المستشرقين، وهجوم المهاجمين واعتداء المعتدين.[١]

١- مرجع سابق.

المؤرخون العرب والمستشرقون في تاريخ نجد

لا يوجد بين المصنفات العربية المعروفة الا كتاب واحد الفه شخص تابع تطور الدعوة السلفية والدولة السعودية منذ السنوات الاولى لنشوئها. ونعني كتاب (تاريخ نجد) لمؤلفه حسين بن غنام وهو فقيه من الاحساء توفى عام ١٨١١. في الجزء الأول من الكتاب يستعرض أبن غنام بعض مؤلفات محمد بن عبدالوهاب. وفي الجزء الثاني يسرد تاريخ حروب الدولة السعودية الأولى من عام ١٧٤٦ حتى ١٧٩٦-١٧٩٧. أن مصنف أبن غنام يعتبر مرجعاً فائق الأهمية، فالمادة التي يحتويها هي حصيلة متابعة شخصية للمؤلف أو مستقاة من منابعها الأولى. والمصنف الثاني: (**عنوان المجد في تاريخ نجد**) من تأليف المؤرخ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي. وهو من فقهاء واحة شقراء في منطقة الوشم والمعروفين في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. وقد عايش الكثير من أحداث الجزيرة العربية بعد الفترة التي توقف عندها أبن غنام. وقد توفى ابن بشر في ١٨٧١-١٨٧٢.وتميز عن سابقه بسعة آراءه. فقد أدرج ابن بشر في مصنفه وقائع قيمة عن بنية الدولة السعودية الأولى وعن الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. والتاريخ الذي يستعرضه ابتداء من عام ١٧٤٥ يقترن بجولات الى فترات تاريخية أقدم ويختتم ابن بشر مؤلفه بوصف أحداث عام ١٨٥٤. وتتفق التواريخ التي يوردها أبن بشر في أمور كثيرة مع تواريخ ابن غنام، ويسجل ابن بشر النص الكامل لقصيدة سلفه بمناسبة وفاة ابن عبدالوهاب والتي وردت في "**تاريخ نجد**". إلا أنهما يقدمان بعض الأحيان وصفاً متبايناً لوقائع بعينها، ويركزان على أحداث مختلفة فلا تتفق تواريخها وارقامها على الدوام. وربما لم يكن أبن بشر مطلعاً على مؤلف ابن غنام. وعلى أية حال فهو لا يذكر في المقدمة اسمه بين المؤرخين الذين يعرفهم. وعندما يورد وفاة ابن غنام يورد مزاياه كفقيه وشاعر دون أن

يذكر كلمة واحدة عن مؤلفاته التاريخية.ويمكن تدقيق صحة معلومات ابن غنام وابن بشر بمقارنتها مع الوقائع التي أوردها الأوروبيون. ولم يطلع المؤرخون العرب والأوربيون على هذه المصنفين إلا في القرن العشرين .

ومما يثير الاستغراب ان المستشرقين الذين كتبوا عن جزيرة العرب لم يلتفتوا الى وقائع تاريخ الدولة السعودية التي اوردها المؤرخ الفرنسي منجين في ملحق بكتابه "**تاريخ مصر في عهد محمد علي**". وكان منجين قد وضع تلك الوقائع استناداً إلى معلومات حصل عليها من حفيد ابن عبد الوهاب الذي نفي الى مصر بعد خراب الدرعية عام ١٨١٨، ويتضمن مؤلف ف. منجين "**تاريخ مصر**" معلومات قيمة عن مجتمع الجزيرة، و هي معلومات مستقاة من تقارير الادارة المصرية في نجد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر.

وخلال السنوات الاخيرة جلب انتباه المستشرقين وبعض المؤرخين العرب كتاب "**لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**" ومخطوطته الاصلية محفوظة في المتحف البريطاني. وهو عبارة عن سجل في ٧٦٤ صفحة يشمل فترة من تاريخ الجزيرة العربية تبدأ على وجه التقريب من العقد الرابع للقرن الثامن عشر وتنقطع فجأة عند أحداث كانون الأول (ديسمبر) ١٨١٧. ويعبر واضع السجل عن احترامه لابن عبدالوهاب ولكن يعتبر مذهبه بدعة، وقد استند في ذلك الى رأي شيوخ من البصرة والزبير.ويتكون "**لمع الشهاب**" من رؤوس أقلام كتبت استناداً إلى روايات أشخاص شاركوا في الأحداث وإلى اشاعات وخرافات. ولكن ذلك لا يحرم هذا المصنف من جملة مزايا لا جدال فيها، وهي مزايا تجعله يتل مرتبته بين المصادر العربية الثلاثة لتلك الحقبة.

و مما لا شك فيه أن مؤلفات ابن عبدالوهاب المخطوطة من أقدم المصادر التي ظلت محفوظة حتى الآن. وأثنان منها "**كتاب التوحيد**" و

"كتـاب كشـف الشـبهات فـي التوحيـد" يتفقـان مـن حيـث أحكامهمـا الاساسية مع ما نشـر مؤخراً من مطبوعات. إلا أن مؤلفات أبن عبدالوهاب التي صدرت في القرن العشـرين قد تعرضت لتعديلات كبيرة من المحققين والمراجعين أو طبعت استناداً إلى صياغات أخرى لنفس هذه المؤلفات .

ومن المؤلفات مؤلفات المؤرخين: الحجازي أحمد بن زينـي دحـلان، واليمـاني محمـد علـي الشـوكاني، والعمـاني سـليل بـن رزيـق، والمـؤرخ المصـري الشـهير عبـد الـرحمن الجبرتـي، والبحرانـي محمـد بـن خليفـة النبهاني، والبصري عثمان بن سند البصـري، والبغدادي ابراهيم الحيدري البغدادي .

وبعد أبن بشر واصل تسجيل التـواريخ النجديـة ابراهيم بـن صـالح بـن عيسى الـذي ولـد فـي شـقراء سـنة ١٨٥٣ـ١٨٥٤. فـان مصـنفه "عقد الـدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في أواخر القرن الثالث عشـر والقرن الرابع عشـر" يتنـاول الاحـداث المنتهيـة فـي عـام ١٨٨٥ـ١٨٨٦ ، ولكنـه كتبـه او أنجزه في عهد مؤسس العربية السعودية المعاصر عبد العزيز .

ومن المصادر الهامة مصنف "ضاري بن فهيد بن رشـيد" فهو يعبر عن وجهة نظر شمر بشأن الاحداث فـي نجد فـي النصـف الثـاني مـن القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. و **"تاريخ ملـوك آل سـعود"** فـي أواخـر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشـرين لمؤلفـه الاميـر سـعود بـن هذلول ممثل أفخاذ آل سعود .

ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب وأتباعه مجموعة مـن المراجـع الهامـة جدا لدراسة التاريخ وأكثر هذه المطبوعـات محفوظـة فـي مكتبـات ومتـاحف أوروبـا الغربيـة. وقد ورد عند أبن غنـام او أبن بشـر او كليهمـا ذكـر المؤلفـات التــي تعبــر عــن جــوهر الــدعوة الســلفية: **"كتــاب التوحيــد"** (وهــو أقــدم تلــك المؤلفات، وقد وضع في الثلاثينات من القرن الثامن عشـر) و **"كتـاب كشـف الشبهات في التوحيد"** و**"كتاب الكبائر"** و**"مسائل الجاهلية التي خالف فيها**

رسول الله أهل الجاهلية" و **"مختصر سيرة الرسول"**. أما مؤلفات أبن عبدالوهاب الأخرى، ومنها **"مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد"** و **"أصول الايمان"** و **"فضل الاسلام"** و **"نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين"** و **"الأصول الثلاثة وأدلتها"** و **"الرسائل"** الكثيرة فقد أدرجها بروكلمان في مراجع كتابه تاريخ الأدب العربي .

وقد اشتهر عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، بتأليف كتب في الفقه أيضاً. و منها **"الرسالة"** التي نشرت في الترجمة الانجليزية لأول مرة نقلاً عن مخطوطة عربية عام ١٨٧٤ في مجلة **"جمعية البنغال الأسيوية"** (المجلد ٤٣، الجزء الاول، ص ٦٨-٨٢) . ثم نشرت في مجموعة **"الهداية السنية والتحف الوهابية النجدية"** التي صدرت عام ١٩٢٣/١٩٢٤. و **"الرسالة"** قيمة لانها غير مثقلة بالاستشهادات والاحاديث والتعليقات .

وكتب عبد الرحمن بن حسن، حفيد محمد بن عبدالوهاب، في أمور فقهية كثيرة. فأن مؤلفه **"فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد"** عبارة عن تعليق ضاف على مؤلف أبن عبدالوهاب **"كتاب التوحيد ."**

تجدر الاشارة الى مخطوطتين في المسائل الأصولية محفوظتين في مكتبة توبينغين في ألمانيا الاتحادية. وهما **"رسالة في رد أبن عبدالوهاب"** لمحمد بن عفالق الحنبلي الاحسائي و **"المشكلات المضية ردا على الوهابية"** لابن السويدي .كان الرحالة الدانماركي نيبور أول من حمل أنباء الدعوة الى أوروبا قبل مائتي عام .

و في سبعينات القرن الثامن عشر زار الرحالة والعالم الموسوعي الفرنسي فولني الشام و فلسطين، ولكنه لم يصل الجزيرة العربية. ومع ذلك تميز ملاحظاته عن البدو الأعراب المترحلين على مقربة من غزة وأحاديثه عن قبائل الجزيرة العربية بدقة الملاحظة والاحكام .

و في عام ١٧٠٧ زار الحجاز و مكة مخبر نابليون، وهو أسباني اسمه باديا اى ليبليخ انتحل لنفسه أثناء تجواله اسم علي بك .

ويحتل بوركهاردت مكانا بارزاً بين الرحالة. فهو سويسري كان يحمل الجنسية البريطانية، وكان مندفعا برغبة عارمة في التجوال. وكانت الحجاز التي وصلها في ١٨١٤-١٨١٥ مجرد مرحلة في تجواله. وقد جمع معلومات كثيرة جداً عن الجزيرة العربية وعن حياة العرب استناداً إلى أحاديثه الشخصية مع الحجازيين والنجديين .

و في عام ١٨١٩ عبر الضابط البريطاني ج.سادلر شبه جزيرة العرب من القطيف الى ينبع. وكتب الاوروبيون عن الجزيرة العربية من البلدان المجاورة أيضا. ويحتل مرتبة الصدارة بين هذا النوع من المؤلفات "**تاريخ الوهابيين**" الذي أصدره عام ١٨١٠ ل. كورانسيز القنصل الفرنسي في حلب .

و جمع المدفعي الفرنسي ج. رايمون الذي كان في خدمة والي بغداد مواد في العراق وضمنها تقريرا بعث به الى وزارة الخارجية الفرنسية. ونشر بريجيز المعتمد السياسي لشركة الهند الشرقية في البصرة (اعتباراً من عام ١٧٨٤) ثم في بغداد، مذكراته بعد مرور عدة عقود على عودته من الأقطار العربية.

وقد وصلت الى الصحافة الروسية معلومات عن الوهابيين بالأساس عن طريق أوروبا الغربية. ومن أقدم الكتابات التي تم العثور عليها (بعد طبع "رحلة" فولني) ما نشرته مجلة "بشير أروبا" (فيسنيك يفروبي) في عام ١٨٠٣ : "قدر للجزيرة العربية أن تكون مهد الثورات الأسيوية. الإمام الجديد هناك عبدالوهاب لديه الآن... قوات غفيرة وهو يقترب من مكة". فيما بعد نشرت على صفحات "مجلة المنوعات الادبية" (١٨٠٥) ومجلة "بشير أوروبا" (١٨١٩) مقالات ألقت الاضواء على الاوضاع في الجزيرة العربية .

ويقدم الرحالة الاوروبيون الذين زاروا شبه جزيرة العرب بعد ج. سادلر في القرن التاسع عشر مادة غنية ممتازة لايضاح حياتها الاجتماعية

والسياسية. فهم يضيفون الى ما كتبه بوركهاردت و فولني ونيبور والمؤرخون العرب ويثبتون شيئا فيه او ينفون شيئا آخر فيساعد على دراسة مجتمع الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

و في الثلاثينات زار الضابط البريطاني د.ولستيد عمان وجاب ساحل الجزيرة. وفي ذلك الوقت تقريبا زار الفرنسي م . تاميزيه الحجاز وعسير. وفي الأربعينات تجول العالم الفنلندي فالين في ربوع الحجاز وشمال الجزيرة. وزار الانجليزي ر. بارتون في الخمسينات الحجاز وبادية الشام .

وفي ١٨٥٤ زار الفرنسي ش. ديدية مكة . وفي ١٨٦٢-١٨٦٣ تسلل عضو سلك الجزويتين (اليسوعيين) المخبر الفرنسي و. بلغريف الى أواسط نجد وزار عاصمة الرياض، وكذلك القصيم والاحساء . ل. بيلي المقيم البريطاني في بوشهر زار الرياض في ١٨٦٤-١٨٦٥. وفي ذلك الوقت كذلك زار الايطالي ك.. غوارماني شمال النجد .

وتجول العالم الاثري والكاتب الانجليزي دوتي في شمال نجد والحجاز في ١٨٧٦-١٨٧٨ . ويعتبر مؤلفه تحفة في الأدب الانجليزي. والمعلومات التي يوردها دوتي غنية جداً.

و تجدر الاشارة الى الرحالة الفرنسي يوبير الذي زار شمال نجد والحجاز في ١٨٧٨ وفي ١٨٨٣-١٨٨٤ وقتل هناك .

والى الرحالة الانجليزي بلانت وعقيلته الذين زارا بادية الشام وجبل شمر في ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨١ و مربي الخيول الروسي ستروغونوف وشرباتوف وعقيلته الذين قاموا برحلتين الى بادية الشام في ١٨٨٨ و ١٨٩٠ والضابط الروسي دافلتشيم الذي زار الحجاز في أواخر التسعينات .

والمخبر الالماني فون اوبينهام الذي تجول في بادية الشام في تسعينات القرن التاسع عشر، ولكن كتابة عن البدو بمجلداته الثلاثة لم يصدر الا بعد عدة عقود.

ويبرز خصيصاً بين جميع الباحثين فيلبي و ديكسون. فقد صرف كلاهما قسماً كبيراً من حياته في الجزيرة العربية. وكان فيلبي ضابطاً في الجيش البريطاني الهندي. و اعتباراً من عام ١٩١٧ عمل في الفيلق البريطاني في العراق، وفي العام ذاته صار ممثلاً لبريطانيا عند ابن سعود. وفي بداية العشرينات عين مندوباً سياسياً بريطانياً في شرق الأردن. وفي عام ١٩٢٥ ترك الخدمة الرسمية في الجيش البريطاني و أقام في السعودية وأعتنق الاسلام بعد بضع سنوات. وفي فترة معينة مارس تجارة سيارات فورد. و كان واحداً من الوسطاء لدى توقيع اتفاقية امتياز شركة " **ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا**" التي ارست بداية شركة ارامكو. وقام فيلبي بدراسة عدد من مناطق السعودية وخلف مذكرات كثيرة عن رحلاته .

أما نطاق رحلات ديكسون فهو أضيق من ذلك. كان ممثلاً سياسياً لبريطانيا في أمارات شرق الجزيرة ثم مقيماً سياسياً في الكويت. وقد زار المناطق الوسطى من شبه جزيرة العرب. ويتضمن كتاباه "**عرب البادية**" و "**الكويت وجاراتها**" وصفا هاما، فريدا من نوعه احياناً ، لحياة القبائل البدوية ونشاطها الاقتصادي وبنيتها الاجتماعية ، وكذلك طائفة من المعلومات الهامة عن تاريخ السعودية والكويت .

ويشغل لورنس مكانه خاصة، فقد كان ضابطاً للاتصال عند شريف مكة أبان انتفاضة عرب الحجاز ضد الأتراك. وبعد الحرب العالمية الاولى احتاجت الدعاية البريطانية الرسمية إلى أبطال فجعلت من لورنس واحداً منهم. وزادت من أمجاده مؤلفاته التي كتبها بومضات أدبية لا جدال في قيمتها. ولكن تلك لم تكن عن الجزيرة العربية والانتفاضة العربية ضد الأتراك بقدر ما كانت مؤلفات بقلم لورنس عن دوره شخصياً في هذه الانتفاضة، وليس دوره الفعلي طبعاً، بل الصورة التي تخيلها عبر منظار الغرور الذي كان يعاني منه. أن الاهمية العلمية لمؤلفاته ليست كبيرة .

وطاف التشيكي أ. موسيل كثيرا في شمال الجزيرة العربية والاقطار المجاورة لها اعتبارا من أواخر التسعينات وحتى عام ١٩١٧. وأبان الحرب العالمية الأولى كان يؤدي مهمات الاركان العامة النمساوية- المجرية في جبل شمر. وقد نشر عدة مؤلفات . و تجدر الاشارة الى دراسة أ. جوسان المكرسة لبدو شمال الجزيرة العربية، وكذلك الى مؤلفات ر. مونتان .

وألفت عدة كتب المخبرة البريطانية والمستعربة الكبيرة هيرترودا بيل. وكتب ب. توماس وصفاً لرحلاته الى شمال الجزيرة في العشرينات. الرحالة الانجليزي و. سيبروك والقنصل الهولندي في جدة فان دير ميواين وقائد السلك العربي في الاردن و ج. غلوب وغيرهم .

ونجد معلومات تفصيلية عن الباحثين الاوروبيين الذين درسوا الجزيرة العربية في كتب أ. زيهمة و أ. رالي و س. زويمير و د.هوغارت و ف.بارتولد ور.كيرنان و ج.بيرين.

وتشكل وثائق ومطبوعات الإدارة البريطانية الهندية مجموعة هامة من المراجع والمصادر التي لم يبدأ استخدامه في البحث العلمي إلا في العقدين الاخيرين. ومن أبرزها مجموعة الاتفاقيات بين الهند والبلدان المجاورة، وهي المجموعة التي أعدها ك. .ايتشيسون في أواخر القرن التاسع عشر ونشرت لأول مرة في كلكتا (الهند) عام ١٨٩٢. وصدرت الطبعة الثانية المزيد من المجموعة في دلهي (الهند) عام ١٩٣٣.

و في ١٩٠٨-١٩١٥ نشر ج. لوريمير، وهو موظف في الادارة البريطانية الهندية، مؤلفاً ضخماً بعنوان "سجل الاحداث في الخليج وعمان و وسط الجزيرة". و يحتوي المؤلف على بضع آلاف من الصفحات من القطع الكبير. وكان نمصصاً خلال فترة طويلة للاستخدام الاداري، ولم يتمكن علماء البلدان الاخرى من الاطلاع عليه إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وتمكن قيمته في كونه يجسد وجهة نظر الادارة البريطانية الهندية

بخصوص الاوضاع في بلدان الخليج ومجموع المعلومات التي كانت في حوزتها عن هذه المنطقة ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين .

وتتميز بقيمة معينة منشورات ج. سالدانا المكرسة لمنطقة الخليج في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي أستند فيها إلى مواد الأرشيفات البريطانية الهندية .

و في القرن العشرين ظهر بين المراجع العربية التي ألفها أشخاص ساهموا في الاحداث. كتاب خير الدين الزركلي بأربعة مجلدات **"شبه الجزيرة في عهد عبدالعزيز"**. وهو عبارة عن مجموعة غنية من المعلومات الواقعية المتنوعة عن البلاد – من النشوء حتى تشكيل الجيش النظامي – حتى التفاصيل الفكاهية لحياة البلاط الملكي. و قد أدرج الزركلي الذي خدم مدة طويلة في وزارة الخارجية ضمن كتابه وثائق قيمة من الشعبة الدبلوماسية السعودية .

وترك لنا حافظ وهبة الذي خدم زهاء خمسين عاماً عند الملوك السعوديين مذكرات تزيد من معلوماتنا عن تطور المجتمع السعودي. فقد كان ابن سعود يأتمنه في المباحثات الدبلوماسية، كما شغل وهبة مناصب إدارية هامة في الحجاز بعد فتحه و ترأس ديوان التربية وعمل سفيرا للسعودية في لندن. وخلف عدة مؤلفات، ويتحدث وهبة عن النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي للحضر والبدو في وسط الجزيرة العربية قبل ظهور النفط وعن حركة الاخوان .

وألف فؤاد حمزة السوري الذي كان في خدمة الملوك السعوديين ايضا عدة كتب تتضمن، فيما تتضمن معلومات ذات طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي عن العربية السعودية قبل عصر البترول.

إن المؤلفين العرب يقتصرون عادة على سرد الاحداث التاريخية دون أن يمحصوا مضامينها السياسية ناهيك عن مضامينها الاجتماعية

والاقتصادية. نلاحظ ذلك حتى عند أفضل الباحثين. وينفرد في هذا المجال بعض الشيء كتاب الباحث الحجازي عبد الخطيب **"الامام العادل"** الذي يتحدث عن تاريخ عبد العزيز. وهو يحتوي على طائفة من الوقائع التاريخية المجهولة. وكان مؤلفه من خصوم السعوديين سابقا ومن مؤسسي الحزب الحجازي الليبرالي، وبعد تدمير الحزب عفا ابن سعود عن زعمائه. وكرس عبدالله عبد الجبار وفهد المارك دراسات للفكر والادب في السعودية في القرن العشرين .

ويتناول الحقوقي صبحي المحمصاني بالتفصيل النظام الحقوقي في السعودية. وأورد عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم بعض المواد الجديدة من الأرشيفات المصرية وغيرها من تاريخ الدولة السعودية الأولى، كما أورد عبد الرحمن أبو علية معلومات مماثلة عن الدولة السعودية الثانية.

الفصل الرابع
التاريخ وما يدرسه المؤرخون

الأماكن التاريخية تساعد الناس على معرفة الماضي واكتساب معلومات مفيدة. وفي الصورة نرى المسجد الأموي في دمشق، الذي أنشئ في العصر الأموي.

علم التاريخ:

علم التاريخ أحد العلوم الاجتماعية التي تعنى بدراسة الماضي البشري، ويقوم المؤرخون بدراسة الوثائق عن الحوادث الماضية، وإعداد وثائق جديدة تستند إلى أبحاثهم. **وتسمى هذه الوثائق، أيضًا، تاريخًا**.

ترك القدماء العديد من الآثار، بما في ذلك التقاليد، والقصص الشعبية، والأعمال الفنية، والمخلفات الأثرية، والكتب والمدونات الأخرى. يستخدم المؤرخون كل تلك المصادر، ولكنهم يدرسون الماضي بشكل رئيسي، في ضوء ما هو مدوّن في الوثائق المكتوبة، لذا فإن التاريخ أصبح مقصورًا بصفة عامة على الحوادث الإنسانية، منذ تطور الكتابة قبل نحو خمسة آلاف سنة مضت.

يدرس المؤرخون كافة مظاهر الحياة الإنسانية الماضية، والأحوال الاجتماعية والثقافية، تمامًا مثل الحوادث السياسية والاقتصادية. ويدرس بعض المؤرخين الماضي وصولاً لفهم آلية تفكير وعمل الناس على نحو أفضل، في الأزمنة المختلفة، بينما يبحث الآخرون عن العبَر المستفادة من تلك الأعمال والأفكار، لتكون موجهًا للقرارات والسياسات المعاصرة. على أية حال، يختلف المؤرخون في الرأي حول عبَر التاريخ. وهكذا، فإن هناك العديد من التفسيرات المختلفة للماضي.

أصبح التاريخ ميدانًا للدراسة في العديد من المدارس خلال القرن التاسع عشر، فاليوم، ومن خلال دراسة تاريخ العالم في المدارس، تتم دراسة الماضي عن طريق الكتب بوصفها مصدرًا رئيسًا، ومن خلال نشاطات مماثلة أيضًا، كالرحلات الميدانية للمواقع الأثرية وزيارات المتاحف. ويحرص عدد كبير من الشعوب على تدريس تراثها القومي في المدارس لإنماء شعورها الوطني. وهكذا، يستخدم التاريخ، لا من أجل إخبار التلاميذ عن الكيفية التي تطوَّرت بها الحياة القومية، وإنما من أجل تبرير المُثُل والمفاهيم القومية ودعمها.

ما يدرسه المؤرخون:

مضمون التاريخ:

كان المؤرخون حتى القرن العشرين يعنون في المقام الأول بالأحداث السياسية، وكانت كتاباتهم مقصورة على الدبلوماسية والحروب، وشؤون الدولة. أما الآن، فإن المؤرخين يدرسون العديد من المواضيع الأخرى، فينظر بعضهم في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ويتقصّى آخرون تطور الحضارات والفنون، أو العناصر الأخرى للحضارة.

يُصنَّف التاريخ غالبًا، بوصفه واحدًا من العلوم الاجتماعية، جنبًا إلى جنب مع عدد من ميادين البحث كالاقتصاد، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، ولكن المؤرخين يختلفون عن غيرهم من علماء الدراسات الاجتماعية في الطريقة التي تتم بها دراسة التطورات الاجتماعية. فبينما يبحث علماء الاجتماع عن قوانين تُفسر بعضًا من أنماط السلوك المتكررة في وقت ما، فإن المؤرخين يدرسون الأحوال والحوادث في ذلك الزمن، وقد يلجأ المؤرخون لبعض نظريات العلوم الاجتماعية، والعلوم الأخرى لتساعدهم في شرح تلك الأحوال والحوادث، ولكنهم من النادر، أن يحاولوا تطوير قوانين عامة.

أقسام التاريخ:

ميدان التاريخ واسع وكبير، ولهذا قام المؤرخون بتقسيمه إلى أقسام رئيسية معتمدة على الزمان والناس والموضوع.

تُمّثِل الحقَب الزمنية التقسيمات الرئيسية في دراسة التاريخ، **إذ يقسم المؤرخون التاريخ الغربي إلى ثلاثة أزمنة هي:**

- ✓ العصور القديمة من ٣٠٠٠ ق.م- ٤٠٠م.
- ✓ العصور الوسطى من ٤٠٠ ـ ١٥٠٠م.
- ✓ العصور الحديثة من ١٥٠٠م حتى الوقت الحاضر.

يمكن للعلماء بالمقابل، تقسيم تلك الحقب (الأزمنة) إلى فترات أكثر قصرًا، على سبيل المثال يمكن للمؤرخين أن يدرسوا قرنًا خاصًا، أو حقبة محدودة مثل العصور العليا (القرن الثالث عشر الميلادي) أو عصر العقل.

ساعد تقسيم التاريخ إلى حقب المؤرخين على تنظيم وتركيز دراساتهم. غير أنَّ هذا التقسيم قد يؤدي إلى تشويه الشواهد المقدمة من قبل التاريخ. فقد ظنّ المؤرخون زمانًا أنَّ العصور الوسطى في أوروبا حقبة للمعتقدات الخرافية والفوضى، جاءت بين حقبتين من التاريخ، وقد حالت وجهة النظر هذه دون إدراك أن العصور الوسطى كان لها حيويتها الخاصة التي تشكل الأسس للحضارة الأوروبية الحديثة.

يستخدم تقسيم التاريخ إلى عصور قديمة، ووسطى، وحديثة، للمجتمعات الأوروبية فقط، بينما تعتمد أعمال المؤرخين الذين يدرسون المجتمعات الآسيوية أو الإفريقية، على تقسيمات مختلفة كليًا. وكذلك تتباين طرق التأريخ لأن المجتمع الغربي يستخدم ميلاد السيد المسيح فاصلاً زمنيًا، تسمى السنوات الواقعة قبله قبل الميلاد، والتي بعده تسمى ميلادية. ويؤرخ المسلمون بهجرة النبي محمد بن عبدالله 3 من مكة إلى المدينة المنورة (٦٢٢م) معتمدين على الأشهر القمرية ومتخذين من شهر محرم أول شهور سنتهم.

أما التقسيم على أساس الشعوب، فيتضمن على سبيل المثال، دراسة تاريخ العرب، والأوروبيين، والبريطانيين، والفرنسيين، والأمريكيين، والصينيين.يُمكِّن التقسيم حسب الموضوعات، المؤرخين من التعامل مع مظاهر خاصة من النشاط البشري في العصور الماضية، فقد يدرس العديد من المؤرخين الاقتصاد والاجتماع والتاريخ الفكري، بالإضافة لدراسة التاريخ السياسي التقليدي. ويركِّز بعض المؤرخين على مواضيع متخصصة مثل تاريخ العلم، أو تاريخ مجموعة عرقية، أو تاريخ مدينة، وهذا الجانب برز بشكل ملفت للنظر في التأريخ الإسلامي حيث انصرف العديد من المؤرخين العرب الإسلاميين لوضع تواريخ خاصة بالعديد من المدن مثل: تاريخ مكة المكرمة، دمشق، بغداد، القاهرة... إلخ.

✍ **كيف يعمل المؤرخون:**

تحتاج دراسة التاريخ إلى العديد من العمليات والتقنيات، **ويتبع معظم المؤرخين بعض الخطوات الرئيسية في أعمالهم:**

- ✓ أولا: يتم اختيار قضية أو شخص ينتمي لفترة معينة من الماضي للدراسة.
- ✓ ثانيًا: قراءة العديد من المصادر المادية، أي كل شيء دُوِّن عن أو حول الموضوع، وهو ما يعرف بعملية جمع المعلومات من المصادر المختلفة. وتفسر بعد ذلك المعلومات التي تم جمعها من تلك المصادر.
- ✓ أخيرًا: تدوين حكاية تاريخية أو ترجمة شخصية.

انتقاء وتقويم المصادر:

يستخدم المؤرخون في أبحاثهم نوعين رئيسيين من المصادر، مصادر أولية، ومصادر ثانوية. تتكون المصادر الأولية من الوثائق والسجلات الأخرى، عن الفترة الجارية دراستها، بما في ذلك، الكتب، واليوميات و الرسائل والسجلات الحكومية، وتم استخدام الأفلام، وأشرطة التسجيل

مصادر أولية للحوادث في بداية القرن العشرين. وتتكون المصادر الثانوية من المواد التي يتم إعدادها فيما بعد، من قبل دارسي المصادر الأولية.

ويختار المؤرخون الوثائق التي تُظهر بدقة الحقائق التي يرغبون في معرفتها، لهذا فهم يفضّلون المصادر الأولية على الثانوية، والتقارير السرية على العلنية. ويستخدم المؤرخون الذين يدرسون وقائع حديثة، نموذجًا خاصًا من المصادر. إذ يعتمدون على مقابلة المشاركين في صنع الحوادث، وتدوين شهاداتهم الشفوية، وبذلك يكمّل التاريخ الشفوي، التاريخ الوثائقي.

وتُعتبر ندرة المصادر، إحدى المعضلات الكبيرة للمؤرخين الذين تشبه أعمالهم في بعض الأحيان، الاكتشافات، فهناك العديد من الأعمال والأفكار لأفراد عاديين، لم تُسجل ولم تُدون البتة، كما أن كثيرًا مما قد دُوِّن، فُقد أو أُتْلفَ بمرور الزمن، وكذلك على المؤرخين الاعتماد على كتابات قلة من المؤلفين، أصبح بعضها قطعًا متفرقة هنا وهناك.

يُحلل المؤرخون الوثائق، التي عليهم العمل بها، لتحديد ما يمكن الاعتماد عليه منها. وتتم مقارنة الوثائق بمصادر أخرى منعًا لوقوع أي خطأ في تسلسل الأحداث أو اختلاف في أسلوب الكتابة، وعليهم أيضًا التأكد من أمانة كاتب الوثيقة للتعامل معه.

تفسير الحوادث التاريخية:

تعتبر الحقائق التاريخية الرئيسية، معطيات عامة، تُعتمد من قِبَل جميع المؤرخين، لكونها غير مشكوك فيها. ومع ذلك، يختلف المؤرخون في الغالب، حول معاني ودلالات تلك الحقائق. ويحاولون أن يكونوا محايدين قدر الإمكان، لكن قد تؤثر معتقداتهم والأحكام المسبقة في تفسيراتهم. فعلى سبيل المثال، قد تحمل الأفكار الاجتماعية والاقتصادية والدينية مؤرخًا ما على تقبّل ما يعتقده الأشخاص الآخرون على أنه أمر

عادي أو مسلّم به. يحدد هذا الحكم بالمقابل ما يقبله المؤرخون شهادة موثوقًا بها، أو دليلاً لتفسير الحوادث. وتبين مثل هذه التفسيرات، الأسباب الداعية لعدم قبول أو موافقة المؤرخين على الحوادث، مع استخدامهم لنفس المعطيات.

ويعتمد بعض المؤرخين، في تفسيراتهم، ولحد كبير، على المعلومات من بعض العلوم الاجتماعية، وتُدعى الدراسات التاريخية المعتمدة على نظريات علم النفس، التاريخ النفسي. وبشكل مماثل، يستخدم بعض المؤرخين الطرق الإحصائية لتفسير المعطيات من تلك المصادر، كالإحصاءات القديمة ودفاتر الحساب، ويُدعى هذا سليومتريك.

في نهاية المطاف يُعد المؤرخون بيانات مدونة عن الحوادث. وكتابة التاريخ جزء من ميدان يُدعى التأريخ. ويستخدم بعض أفضل المؤرخين، البراعة الفنية للروائيين والكتاب المسرحيين للتعبير قدر الإمكان.

الفصل الخامس
النظريات التاريخية

طور العلماء، منذ أقدم الأزمنة، النظريات التاريخية لشرح السياق العام للحوادث البشرية من خلال بعض العموميات الرئيسية، فعلى سبيل المثال، يعتبر اليونانيون القدامى التاريخ دورة من الحوادث تعيد نفسها دون نهاية، بينما تعتبره النظرية النَّصرانيَّة التقليدية سلسلة من الحوادث لها بداية ونهاية، ووفقًا لهذا الاعتقاد يوجه الله الحوادث الإنسانية نحو الهدف النهائي للبشرية. وسيطرت هذه النظرية على مجمل المدونات التاريخية في العصور الوسطى.

وينبثق تناول أحداث التاريخ عند المسلمين من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان؛ لذا فإن حركة التاريخ في الإسلام ذات طابع مميز عن حركة التاريخ العالمي الذي لا أثر فيه للوحي.

وكان حياد المؤرخين العرب وعدم تحيزهم سمتين من السمات الكثيرة التي أضفت على نظرة العرب للتاريخ مصداقية كبيرة. وكانوا هم أول من ابتكر ـ لضمان الصواب في تسجيل الأحداث ـ تسجيل الأحداث بالسنة والشهر واليوم أحيانًا وهو ما لم يحدث في أوروبا إلا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

وافترض الباحثون في الأزمنة الحديثة، عددًا من النظريات، كما طَوّر الفلاسفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين مفهوم التاريخ، باعتبارها عمليات حتمية للتطور، واعتقدوا أن حوادث هذا التطور سوف تؤدي إلى نظام اجتماعي منطقي شامل، يعتمد على الفهم العلمي للحوادث البشرية.

حاول المؤرخ الألماني أوزوالد سبنجلر في كتابه انحدار الغرب (١٩١٨-١٩٢٢م) أن يُبرهن على أن الحضارات مثل الكائنات العضوية، تمر خلال دورة من الولادة، والتطور والوفاة. أما أرنولد توينبي، المؤرخ البريطاني، فقد قدم نظرية دورة الحضارات في كتابه المكوّن من اثني عشر مجلدًا: دراسة التاريخ (١٩٣٤- ١٩٦١م). ولم يوافق توينبي على آراء سبنجلر في أن الحضارة الغربية في طريقها إلى الموت.

تفترض جميع النظريات التاريخية، تقريبًا، أن لها معاني وأهدافًا لكن ليس هناك أي دلائل قوية لدعم هذا التصور. يسأل العديد من العلماء اليوم، عمَّا إذا كان التاريخ يتضمن أي معنى أكثر مما يقرأه الناس في مدوناته.

ولذلك ابتعد معظم الفلاسفة عن مثل هذه النظريات وبدلاً من ذلك، قاموا بفحص عدد من المواضيع مثل طبيعة التاريخ بصفته ميدانًا للمعرفة والطريقة المستخدمة من المؤرخين للتفسير.

الفصل السادس
تطور الكتابة التاريخية

العصور القديمة:

جاء أقدم تاريخ مُدّون في العالم من الصين، وقد اكتشف علماء الآثار وثائق عن التاريخ الصيني المكتوب قبل ١٠٠٠ق.م. كان سيماكيان (سوماتشاين) أول مؤرخ صيني كبير، دَوّن معظم أحداث التاريخ الصيني المبكر حوالي عام ١٠٠ق.م.

بدأت كتابة التاريخ الغربي في اليونان القديمة. وكان أول المؤرخين الإغريق هو هيرودوت، الذي عاش في القرن الخامس ق.م، وكتب الكثير عن الحروب التي دارت بين الإغريق والفرس. وكان لدى هيرودوت والذي يُدعى أبا التاريخ القليل من الوثائق الإغريقية ولا يعرف قراءة اللغة الفارسية، لهذا اعتمد بشكل رئيسي في سرده على الشهادات الشفوية والتقليدية، وأضاف إليها تفاصيل خيالية لتصبح أكثر حيوية، غير أن المؤرخين الغربيين يؤكدون دقة كتاباته من الناحية الأساسية.

كان أكثر خلفاء هيرودوت شهرة في ميدان التأريخ ثيوسيديديس الذي اعتمد الدقة والنقد في كتاباته. ويعتبر كتابه تاريخ الحرب البلوبونيزية زاخرًا بمعلومات دقيقة وموثوقة عن تلك الحرب، التي امتدت سبعة وعشرين عامًا، وحققت فيها أسبرطة النصر على أثينا عام ٤٠٤ق.م.

اشتهر أيضًا العديد من المؤرخين الرومان مثل، ليفي، تيتوس ليفيوس. الذي كتب كتابًا مطولاً تضمن قصصًا مفصلة بعنوان تاريخ روما قدم فيه قصة روما، منذ إنشائها وحتى العام التاسع ق.م. واشتهر كورنليوس تاكيتوس خصوصًا بكتابيه تواريخ وتحويلات، وتتناول تلك الأعمال، التاريخ الروماني منذ وفاة الإمبراطور أوغسطوس في العام ١٤م، وحتى نهاية حكم فيتليوس عام ٦٩م.

التاريخ عند العرب:

راعى المؤرخون العرب صدق الرواية في تأريخهم لأنفسهم ولغيرهم من الأمم الأخرى. وكانت أغلب مؤلفاتهم تدور حول تاريخ البلدان التي فتحوها، وتاريخ الإسلام وتاريخ أهم الأقطار والمدن كمصر والأندلس والمغرب ومكة والمدينة ودمشق وبغداد.

ومن أبرز المؤرخين العرب والمسلمين المسعودي وأهم مؤلف له في التاريخ مروج الذهب، ومحمد بن جرير الطبري وأشهر كتبه تاريخ الرسل والملوك، ومن أشهر المؤرخين في العالم عبدالرحمن بن خلدون ويُعد كتابه المقدمة من أروع وأوسع كتب التاريخ، وقد استقاه من ملاحظاته فيما يقع من أحداث، ويرى أن هناك اطرادًا في السلوك الإنساني شبيه بما يحدث في الطبيعة. كما أدى انتشار العربية بين غير العرب من نصارى ويهود إلى أن ألف بعضهم كتبًا في التأريخ النصراني واليهودي باللغة العربية، ومن بين هؤلاء البطريرك يوتيخيوس والأسقف ساويروس الملقب بأبي البشر بن المقفع وقد ألفا في تاريخ الكنائس الشرقية.

ومن أفضل كتب التاريخ التي ألفت في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي كتاب عبدالرحمن الجبرتي عجائب الآثار في التراجم والأخبار ويعد الجبرتي من بين أشهر مؤرخي العالم العشرة .

ومعظم ما كتب عن تاريخ العرب والمسلمين - خلال نهاية القرن التاسع عشر وإلى ما بعد النصف الثاني من القرن العشرين - كان قد كتبه المستشرقون والمستعمرون، وقد وضعوا الأسس الحديثة لكتابة هذا التاريخ، وكانوا ملتزمين فيه بما يعود عليهم بالنفع وهو ما لا يشترط، في الغالب، أن يعود بمثله على العرب والمسلمين. إلا أنه ظهرت مؤلفات في منتصف القرن العشرين الميلادي ونهايته صارت تتناول التاريخ العربي من منظور أوسع، من ذلك كتاب محمد كرد علي الإسلام والحضارة العربية، وعبدالمنعم ماجد في كتابه التاريخ السياسي للدول العربية، وأحمد

شلبي في موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

العصور الوسطى:

شارك الكتاب النَّصارى بما فيهم عدد من الرهبان في غالبية المدونات التاريخية عن تلك الفترة، وقد حاول بعض المؤرخين النصارى كتابة تاريخ عالمي يمزج كلاً من التاريخ اليهودي والنَّصرانيّ، مع سجلات الماضي الإغريقي والروماني. قدم الراهب أوزبيوس من قيسارية في فلسطين في أوائل القرن الرابع الميلادي، التاريخ العالمي الأكثر أهمية في نموذجه. وكذلك تاريخ النَّصرانيَّة المعروف باسم التاريخ الكنسي، وأوضح فيه أن الله يسيطر على الحوادث البشرية. وطَوّرَ القديس أوغسطين هذه الفكرة خلال القرن الخامس الميلادي، إلى فلسفة للتاريخ ضمن كتابه مدينة الله.

كان من المؤرخين الغربيين في أوائل العصور الوسطى الأوروبية الراهب الإنجليزي بيدي، وكان مؤلفه الرئيسي التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي (٧٣١م)، الذي ما يزال مصدرًا رئيسيًا للتاريخ الإنجليزي عن تلك الفترة. حاول العديد من مؤرخي العصور الوسطى، وفيهم بيدي، إظهار الدور الإلهي في الحوادث التاريخية. وتبدو أعمالهم مقبولة اليوم، باعتبارها وثائق رئيسية لتلك الحوادث التي تناولتها مؤلفاتهم.

وكتب المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون، في القرن الرابع عشر الميلادي، دراسته التاريخية ذات المجلدات السبعة. وكذلك تتابعت عملية التأليف التاريخي في القرن الخامس عشر الميلادي، وركّز المؤرخون الأوروبيون على الدور البشري في الحوادث والإقلال من الدور الإلهي.

✍ **ليوبولد فون رانكه الألماني الجنسية وضع كثيرًا من طرق البحث التاريخي الأساسية .**

العصور الحديثة في أوروبا:

كان العالم البريطاني إدوارد جبون واحدًا من المؤرخين في أوائل العصور الحديثة، وقد أظهرت دراسته تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٧٦- ١٧٨٨م) أنه عالم دقيق ومتقن. وعكس كتابه أيضًا نزعته ضد النَّصرانيَّة، لأنه يعتبرها مسؤولة ولو بقدر ضئيل عن سقوط الإمبراطورية الرومانية.

تطورت طرق الدراسة التاريخية الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي، وأصبح التاريخ ميدانًا أكاديميًا مميزًا. ولعب المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه دورًا في تطوير دراسة التاريخ في القرن التاسع عشر. عُرف رانكه في الغرب بأبي التاريخ الحديث. فقد قسّم الطرق الرئيسية المتبعة من قبل المؤرخين المحدثين لتحليل وتقييم الوثائق، وقدّم أيضًا طريقة الحلقات الدراسية لتدريب مؤرخي المستقبل على طرق البحث، ودرس التاريخ السياسي بشكل رئيسي.

بدأ المؤرخون الأوروبيون والأمريكيون في القرن العشرين بالتركيز على أهمية القوى الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ. ويدرس المؤرخون اليوم، تلك القوى وكافة المواضيع الأخرى عن الماضي البشري.

الفصل السابع
بين احلام الجاهل وظلم المؤرخ

بالرغم من كل ما يشوب مصطلح (هوله) من غموض وتضارب أراء ... حول أصل تسميته...؟ وجذور منشأه ...؟ و على من يطلق...؟ و من جاء به...؟ الا أن هذه التسمية تأخذنا بعيداً إلى حيث عبق التاريخ الخليجي، فهذه التسمية أنفرد بها المجتمع الخليجي عن من سواه من المجتمعات العربية الأخرى، فلا تجد هذه التسمية إلا في مناطق سواحل حوض الخليج العربي، فهؤلاء الهوله يمثلون جزء كبير ومهم من النسيج الاجتماعي لمنطقة حوض الخليج العربي، وبالرغم من كل ذلك الا ان تاريخ هؤلاء العرب لا يزال مهمل، وهذا الاهمال تسبب في غموض العديد من الحقائق التاريخية لموروث هذه الشريحة من مواطني دول الخليج العربي، وفي هذه المقاله سنحاول جاهدين اضاءة العقول الى جوانب وحقائق كثيرة حريه بالدراسة والبحث تخص عرب الهوله أو بني هوله، سعياً في وضع خطوط اوليه لتقويم بعض الأراء الأرتجالية المنحرفة التي تفتقر الى الوعي و المسؤلية والحس الاجتماعي الحاذق.

وجد العديد من التعاريف لمصطلح هوله و لكن من أشهر هذه التعاريف، القول بان اصل هذه التسمية مشتق من الكلمة العربية تحولَ فهو متحولٌ. و التي تفيد الانتقال من مكان الى اخر، وتعني هنا في هذه الحالة التحول و الانتقال من ساحل الجزيرة العربية الى الساحل الفارسي، ونظرا لعدم نطق العجم للحرف العربي (ح) قلب الى (هـ)، فاطلق العجم على هؤلاء العرب المنتقلين (المتحولين) لفظ هوله بدل من حوله، ويعتبر هذا التعريف هو التعريف الأكثر شيوعاً بين عامة سكان حوض الخليج العربي، ونتيجة لذلك تبنى هذا القول العديد من مؤرخي الخليج العربي المشهورين أمثال سيف مرزوق الشملان و د. علي أبا حسين... وغيرهم من المؤرخين الأكاديمين العرب غير الخليجيين، وهذا التعريف يعززه نص

الوثيقة العثمانية المحررة المحررة في عام ١١١٣هـ والتي أشارت الى العرب الساكنين في موانئ جنوب الساحل الإيراني وتحديداً الأماكن القريبة من بندر كنج ولنجه بكلمة (حولة) وليس كما هو دارج (هوله)، جاء ذلك مكتوباً في نص الوثيقة العثمانية، وفي ذلك دلالة على احتمال صحة القول بوقوع تحريف حولة الى هولة سواء أكان هذا التحريف واقعاً من قبل الفرس أو الأوروبيين المحتلين للخليج في تلك الحقبة الزمنية التي واكبت ظهور هذه التسمية.

وأما التعريف الثاني لمصطلح هوله والذي يذهب إلى أن اصل التسمية مشتق من الأسم "هول" وقيل أن "هول" هذا ... هو هول بن فهم الأزدي الذي هاجر من اليمن قبل الإسلام على أثر انهيار سد مأرب، إلى بلاد عمان واستقر أخيرا في بلدة مكران على الساحل الفارسي [3]، أضف الى ذلك وجود أخرين يرون بان "هول" هذا ... هو اسم لنهر في العراق يسمى نهر الهولي، واجتهد اخرون بأن قالوا بان هول نسبة إلى جبل في نجد بالجزيرة العربية يسمى جبل هول، وهناك من ذهب به الاجتهاد بأن قال بان "الهوله" هم عشيرة عامرية متفرعة من قبيلة بني منتفق العراق.

وأما التعريف الثالث لتسمية "هوله" فهو القول بانها نسبة الى "غول" يدعى "هول" يسكن منطقة الخليج العربي و تزوج بابنة صياد سمك عربي الاصل فجاء هؤلاء الهوله من ذرية هذا الغول، وهذا تعريف اسطوري ولا يمت للحقيقة بصلة.

تقييم صحة التعاريف:

ينص التعريف الأول على ان اصل التسمية مشتق من الكلمة العربية "تحول" أي انتقل، وبالرجوع الى الوثيقة العثمانية المحررة عام ١١١٣هـ (المشار اليها سابقا) سنجد ما يؤيد هذا الفرضية، ذلك كون الوثيقة تنص صراحةً بأنه يوجد مجموعة قبائل تسكن عند مدخل الخليج يطلق عليهم (حوله) وليس (هوله)، وأن هؤلاء الحوله هم من العرب السنه اتباع المذهب

الشافعي وعددهم سبع أو ثماني قبائل، ولكن هذا التعريف يثير بعض التساؤلات من أهمها، إذا كان فعلاً أصل التسمية حركياً مشتقاً من الفعل "تحول" فلماذا لم تشمل هذه التسمية كل من هاجر أو تحول من سواحل الجزيرة العربية إلى السواحل الفارسية كالمطاريش و زعاب و بني كعب و آل بوسميط و العتوب...؟.

حيث أن الوثيقة العثمانية المشار اليها تفصل وبشكل واضح سكان الساحل الفارسي من حوض الخليج العربي الى مجموعتين رئيسيتين الأولى تدعى بالحولة وهم سبع أو ثمان عشائر والمجموعة الثانية في غالبهم ينتمون إلى عرب العتوب و الخليفات.

أما التعريف الثاني والذي يذهب إلى القول بان اصل التسمية "هول" نسبة الى هول بن فهم الأزدي والذي انتقل من اليمن بعد انهيار سد مآرب إلى مكران من بلاد فارس مروراً بعمان، فهذا قولٌ ضعيف جداً كون أن وقت هذا الانتقال قديم، وعليه كان من الضروري بعد مرور كل هذه القرون وجود الاشارة الى هؤلاء (الهوله) أحفاد هول بن فهم الازدي هذا ... في مصادر التاريخ العربية، ولو وجد ما يشير الي ظهور بني هول هؤلاء في مصادر التاريخ المختلفة لثبت لنا به الانتساب وانتهى الجدل، أضف الى ذلك أن هول بن فهم الأزدي سكن منطقة مكران، وهذه المنطقة هي منطقة سكن قبائل البلوش، وهي تقع خارج مناطق سكن عشائر عرب الهوله الذين تنحصر أماكن سكنهم بين بندر كنج جنوباً وكنكون (كنعان) شمالاً، وأما بخصوص الفرضيات الآخرى والتي تفترض ان اصل التسمية بني "هوله"، نسبة إلى جبل هول في نجد أو نسبة إلى نهر الهولي في العرق فإن هذين القولين يفتقرون إلى البرهان ولم يثبتهم أي من الباحثين وبذلك ويبقى هذا الرأي ينقصه الدليل الذي يدعمه.

ظهور الفظ "بني هوله":

وفقاً للمصادر المتاحة لدينا حالياً فأن أقدم ذكر لمصطلح (هوله أو حوله) جاء في وثيقة محررة عام ١١١٢هـ وأخرى محررة عام ١١١٣هـ، الأولى مخطوطة موسومة بـ "لؤلؤة البحرين" من تأليف الشيخ يوسف البلادي البحراني، وهذه المخطوطة تتحدث عن معركة وقعة بالقرب من سواحل البحرين بين عرب الهولة وعرب العتوب، وأما الوثيقة الثانية فهي الوثيقة العثمانية التي سبق الحديث عنها أعلاه، فهذا اقدم ما تم العثور عليه بخصوص بداية ظهور تسمية (عرب الهوله)، في حين لم نجد إشارة ما في اي من مصادر التاريخة الآخرى الاقدم تشيرإلى ظهور تسمية عرب الهوله، حيث أن ياقوت الحموي مثلاً تحدث في معجمة عن عدد من المواقع التابعة لعرب الهوله حالياً كبندر نابند وبندر سيراف وجزيرة قيس ولكنه لم يذكر ان هذه الموانئ يسكنها عرب يطلق عليهم بني هوله، وكذلك الرحالة ابن بطوطة زار عدد من الجزر والبنادر الواقعة ضمن مناطق سكن عرب الهوله حالياً كجزيرة الشيخ شعيب وجزيرة قيس وبندر سيراف (الطاهرية) وأشار الى وجود عرب في تلك المناطق "كبني سفاف" مثلاً ... ولكن لم يذكر لنا بان من بينهم بني هوله، والكلام هنا ينطبق أيضا على الملاح العربي الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد الذي أشار إلى وجود قبيلة بني تميم في المنطقة القريبة من بندر بوشهر قرابة عام ٩١٣هـ ولكنه لم يذكر لنا قبيلة تدعى بني هوله في أي من قصائده وأراجيزه الملاحية الشهيرة، أضف الى ذلك بأن مصطلح بني هوله أيضاً لم يرد في أي من الخرائط الأوربية القديمة و إنما كان أول اشارة لبني هوله هؤلاء في الخرائط الأوروبية كان في خريطة الرحالة الدنمركي نيبور الذي وضعها قرابة عام ١١٧٤هـ.

ومن هنا نرجح أن ظهور التسمية (بني هوله) كان في الفترة الواقعة بين الأعوام (٩٠٠هـ - ١١٠٠هـ)، كوسيلة أشارة سهلة يتدولها الأغراب لإشارة إلى مجموعة من القبائل العربية، وهذا يعني أن ظهور هذا

المصطلح كان مواكباً لفترة الاحتلال البرتغالي للخليج فلا ربما أن البرتغاليون هم أول أن اطلق هذا المصطلح، إذا أننا نستبعد احتمال ان يكون اطلاق الفظ هوله صادراً عن العجم الايرانيين كون الإيراني أبناء منطقة و يكفيهم التصنيف العرقي كوسيلة للاشارة فيكفيهم القول (عرب استان و بلوش استان) إشارة الى مناطق سكن العرب والبلوش، فهم لا يحتاجون إلى ايجاد تقسيمات ومصطلحات جديدة تعرف ما هو معروف لديهم أصلاً، ولو كان الفرس فعلاً هم من اطلق مصطلح هوله لشمل هذا اللفظ كافة عرب الساحل الايراني بما فيهم بني كعب وبني عتبة في شمال الخليج، وهذا يعني بأن مصدر هذه التسمية جهة خارجية أخرى تقيم في مكان ما عند مدخل الخليج حيث يقيم هؤلاء العرب الهوله وحيث كان مكان اطلاق هذه التسمية، وخصوصاً إذا ما روعي بان المستعمر الأوربي هو أول آثرى هذه المنطقة بالمصطلحات كمصطلح منطقة الشرق الأوسط ومنطقة الهلال الخصيب و حديثاً الشرق الأوسط الجديد ... إلخ. فربما أن ظهور مصطلح هوله كان تميزاً لهؤلاء العرب عن سواهم من عرب الساحل العربي و قبائل البلوش سكان بندر عباس وبلدة مكران وبندر جوادر المطل على بحر العرب، فإن ما يثير الفضول بخصوص مصطلح الهوله هو أن الموقع الذي ظهر فيه هذا المصطلح كان قريباً من جزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربي حيث أكبر مستعمرة برتغالية استحدثت قرابة عام ٩٣٠هـ، وبما أن التسمية اقتصرت على البنادر الممتدة من قبالة جزيرة هرمز وصولاً الى مواقع قبالة جزيرة البحرين، ولم تمتد التسمية أكثر في عمق حوض الخليج العربي فهذا يدعم الفرضية بأن مصدر هذه التسمية هم الأغراب (البرتغاليون) في هرمز، وهذا يبرر أيضاً عدم دخول العتوب وبني كعب ضمن هذه التسمية كونهم كانوا شمال الخليج وبعيدين عن الأحداث ولم يكن لهؤلاء العرب دور فاعل إلا بعد انهيار الدولة الصفوية وقيام دولة الافشار قرابة عام ١١٣٠هـ.

الهوله مواطنين أصلاء:

نستطيع تقسيم عرب حوض الخليج العربي قبل العام ١١٠٠هـ حسب موقع الاستيطان، إلى عدد من التقسيمات الرئيسية والتي بدورها كانت تضم تحت مظلتها تقسيمات أصغر، **وهذه الاقسام كالتالي:**

١. العرب البدو: وهم مجموعة القبائل التي تخضع لحكم شيخ بني خالد حاكم الاحساء وهم في الغالب يتكونون من فروع بني خالد وقبيلة المرة والعجمان وبني هاجر والمناصير.

٢. عرب البحارنة: وهم سكان جزيرة البحرين (اوال) والقطيف والاحساء، من اتباع المذهب الشيعي الاثني عشري، وهم ينحدرون من أصول القبائل العربية القديمة عبد القيس وبني عامر وبني تميم.

٣. عرب شمال الخليج: ونقصد بعرب شمال الخليج مجموعة القبائل العربية البحرية التي تسكن موانئ أقصى شمال الخليج العربي ابتداء من بندر بوشهر وبندر جنابة وبندر ريق وبندر الديلم وبندر عبادان والفاو وأم قصر والبصرة وبلدة (القرين) الكويت، وسكان هذه البنادر ينحدرون أصلاً من عدة قبائل من أشهرها المطاريش وزعاب وبني صعب وبني عتبة (العتوب) والخليفات وبني كعب.

٤. عرب الهوله: وهم مجموعة قبائل بحرية تسكن مجوعة البنادر القريبة عند مدخل الخليج العربي وصلا إلى البنادر قبالة جزيرة (اوال) البحرين، وهم يتكونون غالبا من بني مالك وبني بشر وبني تميم و بني عبيدل و بني حماد والقواسم وآل علي وآل حرمي وآل نصوري وآل مرزوقي.

٥. العجم: وهم سكان السواحل الفارسية من أبناء العجم مضافاً إليهم سكان جزيرة البحرين من غير العرب.

٦. العمانيون: ويقصد بهم بعض قبائل سلطنة عمان وكافة قبائل ساحل عمان (الامارات العربية المتحدة) كـ بني ياس والتي من أهم فروعها آل بوفلاح والسودان والقبيسات والبوفلاسة و البو مهير وزعاب والمطاريش وبني كتب.

٧. البلوش: ويقصد بهم مجموع القبائل البلوشية التي تسكن منطقة الحدود الايرانية الباكستانية، وهم يتمركزون في منطقة بندر عباس وبلدة مكران وميناء جوادر.

لاحظ أخي القارئ بأن التوزيع أعلاه هو التوزيع الذي سبق العام ١١٠٠هـ، وحدث بعد هذه الفترة مباشرة تمازج نتج عنها ما يعرف بالتوزيع الحالي لسكان دول مجلس التعاون الخليجي، فعندما نريد التحدث عن أي من هذه الجماعات هي صاحبة السبق في المواطنة، ينبغي علينا قبل الإجابة دراسة كل موقع جغرافي على حدى، وسنركز على عرب الهوله.

فجزائر البحرين مثلاً كانت قبل العام ١١٠٠هـ، تسكن من قبل عرب البحارونه و الجبور وهم يمثلون فيها أقدم السكان استيطاناً حيث أن ابن بطوطة عند زيارته لجزيرة (أول) اي البحرين قرابة عام ٧٥٠ أخبر بأن سكانها من الروافض الشيعة الأمامية، ثم نجد ان جزيرة البحرين دخلت بعد ذلك في حكم بني جبر (الجبور) الذين انقرضت دولتهم على يد المستعمر البرتغالي قرابة عام ٩٣٠هـ، ومن هؤلاء الجبور انخزل فرع النصور أحد أهم فروع عرب الهوله، ثم رصد لنا التاريخ ظهور عرب الهوله كحكام للبحرين قرابة العام ١١١٢هـ، واستمر حكم هؤلاء العرب الهوله للجزيرة إلى أن استولى عليها زعيم عرب الشمال "حاكم بوشهر" الشيخ ناصر المذكور تسانده نخبة من عرب الشمال بني زعاب و بني عتبه وكان ذلك قرابة عام ١١٦٣هـ.

ومن ذلك نستنتج بان ترتيب سكان جزيرة البحرين من حيث الأسبقية في الاستيطان، يكون ترتيبهم كالتالي، البحارنة ثم الجبور والعماير ثم

الهوله ثم العتوب، وهذا الترتيب هو خلاف المتعارف عليه حالياً حيث يشار إلى عرب الهوله حديثاً بأنهم حديثوا عهد باستيطان جزيرة البحرين وذلك بالرغم أن مصادر التاريخ تثبت تلك الحقيقة، فنحن لا نزال نجد عدد كبير من مؤرخي العصر الحديث يحاولون تضليل العامة بوضع ترتيب آخر مضلل، اما جهلا لاحداث التاريخ أو تجاهلا منهم لحقيقة أحداث الخليج، فهذا الصنف من المؤرخون يجعلون التاريخ جامداً أمام قيام الدول الحديثة مطلع القرن العشرين وحادثة تهجير جزء من عرب الهوله مؤخراً إلى جزيرة البحرين أبان الحكم البهلوي قرابة عام ١٣٣٦هـ، فتجدهم يؤكدون على أن بداية عرب الهوله في استيطان هذه الجزيرة كان مواكباً لتلك الاحداث، مع حرصهم الشديد على أغفال وتجاهل كون جزيرة البحرين كانت تحت حكم الشيخ جبارة بن ياسر الجبري "الهولي" عام ١١٣١هـ، و أن الجزيرة كانت تغص بأعداد كبيرة من العرب المنحدرين من قبائل الهوله سكان البحرين القدماء، وبذلك يستحيل أن تكون هجرتهم طارئة وأن انضم لهم جماعات أخرى بعد أحداث نزع الحجاب أثان الحكم البهلوي.

أما بخصوص سكان شبه الجزيرة القطرية فسكانها الأصليون هم من عرب بني خالد (المسلم) و فرعي عرب الهوله (العبادلة و بني حماد) الذين ظهروا في منطقة العديد قبل نزوحهم الى الساحل الفارسي قرابة عام ١١٦٠هـ، ثم انتقل اليها العتوب قرابة عام ١١٦٢هـ، وأسسوا بلدة فريحة بعد انتصار عرب الشمال (آل مذكور و زعاب و العتوب) على حكام جزائر البحرين آل حرم فرع من تحالف قبائل الهوله، وعليه فإن ترتيب الاستيطان في شبه الجزيرة القطرية كان كالتالي، آل مسلم ثم العتوب ثم مهاجرين من الكويت والبصرة بالإضافة الى فرقة آخرى من العتوب أثناء تاسيس الزبارة على يد الشيخ أحمد بن رزق الشهير ثم هجرة عرب الهوله مؤخرا ابان الاحتلال البهلوي لسواحل ايران.

أما ما يخص بداية استيطان عرب الهوله لسواحل عمان (الإمارات العربية المتحدة) فإن المصادر التاريخية تكاد تجمع على أن عرب الهوله كانوا يمثلون نواة السكان الأصليون والقدماء لسواحل عمان (دولة الإمارات العربية المتحدة) فقد أسس عرب القواسم فرع من عرب الهوله إمارة مستقلة في راس الخيمة (جلفار)، وذلك مباشرة بعد انهيار دولة اليعاربة في عمان قرابة عام ١١٣٠هـ وكان هذا الظهور يمثل باكورة نشوء أول امارة أو كيان مستقل تطورت عنه باقي امارة دوله الإمارات العربية المتحدة، تلى ذلك ظهور عدد من المشيخات المستقلة التابعة لفروع بني ياس في أبوظبي ودبي، كما ونود لفت الانتباه إلى نقطة مهمة جداً قد يغفل البعض عنها وهي أن دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً، مكونة من أتحاد إمارات مستقلة، يشارك عرب الهوله في حكم وإدارة ثلاث إمارات وهي الشارقة وراس الخيمة التابعتين لحكم القواسم وأم القيوين التابعة لحكم آل علي أو المعلا.

من هم قبائل الهوله؟

لمعرفة من هم الهوله الحقيقيون ينبغي علينا أولاً معرفة هل مصطلح هوله يشير إلى قبائل بعينها أم أنه مصطلح أكبر من ذلك أو أصغر؟... ما هو حجمه بالضبط؟.. فلو نظرنا الى ما تعنيه هذه الكلمة (الهوله) في الوقت الحالي لوجدنا بأن مصطلح هوله يشير حالياً إلى شعب بكامله، كما وأن لدولة الكويت مثلاً شعبه الخاص به والمكون من عدة أجناس وأعراق يشكلون بإجمالهم ما يسمى بشعب الكويت، كذلك (هوله اليوم) فلفظ "هوله" حديثاً يشير إلى شعب متباين الأعراق والأنساب، موطنه الأصلي منطقة جغرافية مضخمة تشمل شريط الساحل الإيراني كاملاً من بندر عباس وصولاً إلى شط العرب.

اذا هذا هو المفهوم الخليجي الجديد و الخاص لمصطلح "هولة اليوم" حيث أن هذا الفهم طارئ مستحدث نشئ بعد قيام الدول الحديثة ومنها دولة إيران البهلوية الحديثة، والتي تسببت في تهجير مئات الآلاف من سكان منطقة الجنوب الإيراني السنة غالباً، وغالباً لا يمثل عدد العرب الهولة الحقيقيون من كل هذه الأعداد سوى ما نسبته (٤٥ %) تقريباً، ولكن تم تعميم اللفظ (هوله) واطلاقه على كل هؤلاء المهاجرين، وهذا التعميم ناتج ربما عن شهرة عرب الهوله بالنسبة لسكان بنادر الخليج أو ربما لتطابق المعنى الأصلي لمصطلح هوله (حوله) على حالة سكان باقي البنادر المهاجرين حديثا والذين لا تمتون للهوله الأصليين باي صله، كسكان بندر بوشهر و بندر ريق و بندر عبادان وسكان المناطق الداخلية في جنوب ايران كالبستكية والعوضية والفلامرزية وغيرهم، حيث ان العرب الهوله الحقيقيون أصغر بكثير من كل هذه الكتل البشرية المتباينه **وهذا ما سنأتي اليه تفصيلاً فيما يلي:**

من هم الهوله الأصليون؟

لم يُهمل المؤرخون المعاصرون أمثال نيبور و جاكوب موسيل ولوريمر، الذين رصدوا لنا كم هائل من أحداث الخليج السياسية والاجتماعية خلال الفترة السابقة لفترة الهجرة الأخيرة إلى دول الخليج زمن حكم الشاه رضا بهلوي مطلع القرن العشرين الميلادي، حيث نجد لديهم وصفاً واضحاً لهوية عرب الهوله الحقيقيون، وفقاً لمعاير جغرافية واجتماعية واقتصادية دقيقة.

جغرافيا:

يجمع هؤلاء المؤرخون جغرافياً على أن عرب الهوله يسكنون في منطقة جغرافية محددة تبدأ من بندر كنج جنوباً وصلا إلى بندر كنكون (كنعان) شمالاً، ومن ساحل الخليج العربي غرباً إلى جبال زاجرس شرقاً،

وهذه المنطقة الجغرافية تسمى بمنطقةشيبكوه أي الجبل المنحدر، ولا وجود للهوله وفقاً لهذا الوصف في المناطق خارج هذه المنطقة كمنطقة بندر عباس أو بستك أو بوشهر أو الأحواز، فهي مناطق لا تدخل ضمن هذه المنطقة، وسكانها بالتالي ليسوا من عرب الهوله وأن كانوا في غالبيتهم من العرب.

اجتماعياً:

تخبرنا المصادر التاريخية بأن عرب الهوله لا ينحدرون من أصل قبيلة واحدة وإنما هم ينحدرون من اتحاد عدة قبائل عربية محددة، ويجب التركيز هنا على كلمة محددة، **فالقبائل المنتمية لعرب الهوله هم القبائل التالية:**

١. قبيلة القواسم: ويتواجد هؤلاء القواسم في جلفار (رأس الخيمة) والشارقة وبندر لنجه و بندر كنج.

٢. المرازيق: يتواجدون بصورة رئيسية في بندر مغوه.

٣. آل علي: يتواجدون بصورة رئيسية في أم القيوين والشارقة وبندر جارك وجزيرة قيس.

٤. بني بشر: قبيلة صغيرة تسكن جارك وجزيرة قيس.

٥. بني حماد: تتواجد هذه القبيلة بصورة رئيسية في بندر نخيلوه ومرباخ ومقام وجزيرة هندرابي وبندر شيروه.

٦. بني عبيدل: ويتواجدون بصورة رئيسية في جزيرة هندرابي وبندر شيروه وجزيرة الشيخ شعيب و إمارة الشارقة.

٧. آل حرم: ويتواجد أفراد هذه القبيلة بصورة رئيسية في بندر نابند وبندر عسيلوه وجزيرة البحرين وعينت في سلطنة عمان.

٨. بني مالك: يتواجد أفراد هذه القبيلة في بندر نابند وبندرعسيلوه وبلدة الخرة وشبه الجزيرة القطرية.

٩. بني تميم: يتواجدون بشكل رئيسي في بلدة جاه مبارك وجزيرة هندرابي وجزيرة طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى وجزيرة القشم.

١٠. آل نصوري او المنصوري: يتواجدون بصورة رئيسية في بندر طاهري وبلدة ملوه و بندر عينات وبندر كنكون و قراى وادي قابندي. هذه تحديداً القبائل العربية التي تسكن منطقة (شيبكوه) والذين اطلق عليهم المؤرخون لفظ هوله، ويمكن اعتبار بعض هذه القبائل كالحرمي والنصوري قبائل تكونت نتيجة اتحاد مجموعة عشائر متباينة النسب أطلق عليها لاحقاً اسم جماعي يرمز للحلف لا القبيلة، ونحن تعمدنا هنا إلى أن نشير إلى أن مساكن بعض هذه القبائل خارج منطقة الساحل الفارسي كالبحرين وعمان وساحل عمان، نظراً إلى كون بعض فروع هذه القبائل لم تسكن الساحل الفارسي أصلاً.

اقتصادياً:

تجمع المصادر التاريخية العربية والأوروبية المعاصرة لفترة ظهور مصطلح هوله بأن هؤلاء العرب يعتمدون اقتصادياً وبشكل رئيسي في أمور المعيشية على الاعمال البحرية من صيد للأسماك و الغوص على اللؤلؤ والنقل البحري، وأما اعتمادهم على الزراعة و الرعي وتربية الماشية فهو على أضيق نطاق.

ويستفاد من العرض السابق بأن لفظ هوله هو لفظ خاص يطلق على مجموعة مخصوصة من القبائل العربية التي تنحدر من قبائل محددة و هذه القبائل تسكن منطقة واحدة محددة ايضاً معرفة بشكل واضح المعالم، و هذه القبائل لها نمطها الخاص في المعيشة بحيث تعتمد على البحر كأساس اقتصادي لتسيير أمور الحياة، وهذا الوصف يبين لنا أن ادخال سكان منطقة

كبستك أو فلامرز أو بوشهر أوعبادان (الأحواز) ضمن هؤلاء العرب (الهوله) هو تصنيف غير دقيق ... وقع به جملة من المؤرخين الخليجين منهم الاستاذ الفاضل حاتم غريب مؤلف كتابه (تاريخ عرب الهوله)، وذلك كونه ادخل الفوادرة والكنادره والبستكية والعوضيه ضمن عرب الهوله في حين أن المؤلف لو أعاد النظر في كل تلك النصوص والمراجع التي استقى منها مصادر كتابه لتبين له بانه اخطأ في اجتهاده.

قبائل لا تنسب الى الهوله:

يجب استيعاب ان هناك العديد من الأسر والعشائر العربية الخليجية التي استوطنت الساحل و الجزر الفارسية ردحاً من الزمن و لم ينسبهم الناسبون إلى الهوله، وذلك بالرغم من وضوح وتنوع المصادر التاريخية المختلفة، إلا أننا لا نزال نجد عدد من المؤرخون لا يتحرجون في الارتجال واطلاق لفظ (هوله) على كل من هاجر أو يهاجر من وإلى بر فارس، لا بل قد تجد من يتجاوز هذا الحد ويدعي العلم والمعرفة بأن أصول هؤلاء (الهوله) تعود الى فترة العصر الجليدي الأول أو الهجرات العربية الاسلامية القديمة...!!!، وسؤالنا لهؤلاء المؤرخون إذا كان لفظ هوله فعلاً يمتد بجذوره إلى فترات موغله في القدم قد تمتد الى فترة ما قبل الميلاد أو الاسلام، فلماذا لا نجد هذا المسمى في جل المراجع القديمة التاريخية المعتبرة؟ ولماذا نخص بعض القبائل بأنها تنحدر من جذور عربية هاجرت زمن الفتوحات الإسلامية الأولى.!!! و ننفي هذه الصفة عن قبائل أخرى خصوصاً مع العلم بافتقار "الطرفين" للمصادر التاريخية التي تغني عن الاسناد والرجوع إلى الروايات والحزاوي والاساطير؟.

من الثابت تاريخياً بان جل القبائل الخليجية استوطنت بر فارس في مرحلة ما من مراحل التاريخها الطويل، **ومن جملة هذه القبائل التي سكنت بر فارس القبائل التالية:**

١. العتوب: يتواجد العتوب في بندر الديلم وفي بندر بو شهر وفي المناطق القريبة من شط العرب.

٢. الخليفات: يتواجد الخليفات في بندر بوشهر وشيخهم فيها حجي بن سبت الخليفي الذي كان شيخ للخليفات في بندر بو شهرفي العام ١٢١٨هـ، كما ويتواجد الخليفات في بندر الديلم ويحكمهم شيخان طعان الخليفي وماجد الخليفي و كان هؤلاء شيوخاً لعرب الخليفات في بندر الديلم خلال العام ١١٦٦هـ.

٣. البوسميط: يتواجد البوسميط بأعداد كبيرة في بندر لجنه والمناطق القريبة من هذا البندر وكبيرهم اليوحه شيخ البوسميط في لنجه.

٤. الدواسر: يتواجد أعداد كبيرة من عرب الدواسر (فرع الدموخ) وهم أحلاف دواسر البحرين، ويتمركز هؤلاء الدواسر في المناطق القريبة من ابو شهر وخصوصاً في بلدة جاه كوتاه وهم لا يزالون يسكنون تلك المناطق و باعداد كبيرة.

ولمزيد من المعلومات بخصوص سكن العتوب و الخليفات بندر بوشهر وبندر ديلم، يمكن الرجوع الى وثيقة أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في مدينة اسطنبول دفتر المهمة رقم ١١١ صفحة ٧١٣ و المؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣هجرية - ٢٣ ديسمبر ١٧٠١ ميلادية، و كذلك الرجوع الى مخطوطة (عقد جيد الدرر في معرفة حساب نوروز أهل البحر) تأليف جابر بن عبد الخضر بن هلال بن يحي بن محمد بن بدر العباسي، والمخطوطة عبارة عن مذكرات يومية لملاح تاجر من سكان بندر أبو شهر، كتبها في الفترة من العام (١٢١٧هـ - ١٢٦٠هـ)، نشرت في مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، في عددها الثاني، السنة الأولى ربيع الأول ١٤٠٣هـ.

كما ويمكن الرجوع إلى ما اورده ج. ج. لوريمر في كتابه دليل الخليج القسم الجغرافي الجزء الأول - الصفحات (٤٤٤ و ٤٨٤)، والذي يذكر بأن ١٥٠ أسره من عشيرة (الدموخ) فرع من الدواسر والمتحالفين مع دواسر البحرين، يسكنون في قرية (جاه كوتاه) الواقعه في منطقة داشتستان في الساحل الايراني و التي تبعد ٢٨ ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة بوشهر، وتبلغ المسافة التي تفصل بين بلدة (جاه كوتاه) وبلدة (ديلم) حيث يقيم عدد من عرب الخليفات والعتوب و(قبائل الكور) وعرب السادة، حوالي ٦٠ ميلا فقط.

كما ويتحدث عرب الدموخ الدواسر هؤلاء اللغه العربية والفارسية ويسكن بجوارهم عدد من عرب بني هاجر المهاجرين من منطقة هنديان القريبة من بندر المحمره (عبادان)، **ويتواجد هؤلاء الدموخ الدواسر وبني هاجر في كل من القرى التالية:**

١. قرية أحمدي، وبها ١٢٠ منزل للدموخ الدواسر العرب.
٢. قرية تول اشتكي، وبها ٢٠ منزل للدموخ الدواسر العرب.
٣. قرية دويره، وبها ٢٠ منزل للدموخ الدواسر العرب.
٤. قرية حسين آكي وبها ٢٠ منزل لبني هاجر و الدموخ الدواسر.
٥. قرية كنار اباد، وبها ٢٥ منزل للدموخ الدواسر العرب.
٦. قرية محمد احمدي، وبها ٢٥ منزل للدموخ الدواسر العرب.
٧. قرية أبو طويل، وبها ٣٠ منزل للدموخ الدواسر العرب.

الخلاصة:

من كل ما سبق نستنتج بأن التعريف الصحيح لمصطلح هوله هو كما يلي:

"الهوله هي تسمية مشتقة من الفعل الحركي (تحول) أي انتقل،أطلقها الاغراب في الفترة بين (٩٠٠هـ ١١٠٠هـ)، بعد تحريفها إلى (هوله) للإشارة إلى مجموعة من القبائل العربية صريحة النسب، كانت تسكن الشريط الساحلي المحصور بين بندر كنج جنوباً وكنكون (كنعان) شمالاً و الجزر التابعة لهذه المنطقة".

وعليه يجب مراعات أن سكان منطقة (بستك و فلامرز وعوض و كوهج وجناح وسكان بندر بوشهر وبندر جنابة وبندر الديلم وشط بني تميم و عبادان) والقرى التابعة لهذه المناطق، لا يمكن ادخالهم بأي حال من الأحوال ضمن تصنيف عرب الهوله، وإنما تم ادخالهم ضمن عرب الهوله نتيجة جهل المؤرخين المعاصرين بتاريخ المنطقة، و من ادخلهم ضمن عرب الهوله فهو جاهل جهلاً مركباً بتاريخ المنطقة وسكانها.

في حين لا نرى – نحن - أي مسوغ ما ....!!! يبرر استمرار عدد من المؤرخيين في استخدام التعاريف الحالية بشكلها العام الذي يفتقر إلى القيود والضوابط التاريخة، التي من شأنها ادخال عرب وعجم و بلوش لا ينتمون إلى مجموعة قبائل عرب الهوله الأصليين بصلة كأهل بستك وبو شهر وعبادان...، خصوصاً مع وجود حرص مفرط في الوقت نفسه على أخراج قبائل أخرى سكنت برفارس أيضاً كالبوسميط والعتوب وبني كعب .... وغيرهم.

الفصل الثامن
تطور المنهج العلمي في الكتابات التاريخيةعند العرب

تمهيد:

قبل أن يصبح التاريخ "علماً" له نظرياته وأسسه الفلسفية وقوانينه وتحقيقاته وتعليلاته، لدى ابن خلدون ومن جاء بعده، كانت الكتابات التاريخية عند العرب تسير وفق أنماط متصاعدة تتفاوت في عمقها وسرعتها وتأثرها بالاقليم والعصر.

ولا بد لنا من إلمامة بتطور تلك الكتابات التاريخية ورصد اتجاهاتها، وتمحيص ما يتصل بها من سرد حوادث، وتيارات سياسية واجتماعية وشعوبية.

ويمكن أن نتوقف عند القرن الثاني للهجرة، ولدى بعض رواة التاريخ والمغازي والسيرة، من أمثال "وهب بن منبه" المتوفى ١١٤هـ -٧٣٢م. وعروة بن الزبير (ت ٩٤هـ - ٧١٢م(٢) . وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ - ٧٤٠م) وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ - ٧٣٧م).

وقد كانت كتابات هؤلاء في المغازي تمهيداً هيأ الأرضية اللازمة لمن جاء بعدهم كالزهري والواقدي وابن اسحق.

فالزهري (ت ١٢٤هـ - ٧٤١م) هو الذي توسع في جمع الروايات وتمحيصها واستخدام عبارة "السيرة" بدلاً من المغازي. حتى إذا وصلنا إلى ابن اسحق (ت ١٥١هـ - ٧٦١م) نجده يمضي شوطاً في الجمع بين الروايات التاريخية والأحاديث الشريفة والشعر والقصص الشعبي. وقد وصلتنا السيرة التي كتبها ابن اسحق منقحة على يد ابن هشام (ت ٢١٨هـ - ٨١٣م) ومن أعلام تلك المرحلة "الواقدي" (ت ٢٠٧هـ) في كتابه المغازي وكتبه الأخرى.

وتبرز لدينا أسماء مثل أبي مخنف وعوانة بن الحكم ونصر بن مزاحم، وذلك في سياق رواية الأخبار، ولعل أبرز هؤلاء الإخباريين (المدائني ٢٢٥هـ)، (وابن الكلبي ٢٠٤هـ) (٧)، والهيثم بن عدي (٢٠٦هـ)(٨) وأبو عبيدة(٩) (٢١١ هـ).

وقبل أن نغادر القرن الثالث للهجرة يقف أمامنا "البلاذري ت ٢٧٩هـ" صاحب /فتوح البلدان/ و/أنساب الأشراف/. وهو وإن كان يعتمد على أخبار من سلفه، إلا أنه ينتقد تلك الأخبار ويفحصها وينتقي منها. وكذلك يفعل معاصره اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في كتاب "البلدان" الذي يعتبر أول كتاب في الجغرافية التاريخية. ثم ابن قتيبة (ت ٢٧٠هـ) في كتاب "المعارف" والدينوري (ت ٢٨٨هـ) في كتاب "الأخبار الطوال".

حتى إذا دلفنا إلى بداية القرن الرابع الهجري نجد (الطبري ت ٣١٠هـ) الذي تكتمل لديه مرحلة نضوج البدايات والتكوين للكتابة التاريخية. وقد اعتمد الطبري على ثقافته الواسعة ومنهجه كمحدث وفقيه يدقق في السند ويمحص الروايات.

وهكذا نجد تفاوت مدارس الكتابة التاريخية في مراحلها عبر القرون الثلاثة، وعبر الأماكن المختلفة في المدينة والكوفة والبصرة وبقية الأمصار وصولاً إلى القرن الرابع الهجري الذي نتوقف معه عند مسكويه وتطويره للمنهج التاريخي ثم عند ابن الخطيب وابن خلدون والمقريزي كأمثلة لأبرز المؤرخين أصحاب المنهج الواضح في الكتابات التاريخية.

ترك أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بمسكويه أكثر من أربعين كتاباً. أبرزها كتابه الهام "تجارب الأمم" المطبوع في طهران بتحقيق وتقديم أبي القاسم إمامي. وقد عاش مسكويه قرناً كاملاً (٣٢٠-٤٢١هـ) واعتمد على الطبري بصورة واسعة، كما اعتمد على مشاهداته وتجاربه في حياته الطويلة، واطلاعه على علوم العصر من فلسفة وأديان وحديث ورواية.

ويمثل مسكويه خطوة متقدمة في الكتابة التاريخية الموضوعية، فإنه على الرغم من معاصرة السلاطين والوزراء البويهيين لا نجده يمدحهم أو يتملقهم في كتاباته. ولم يظهر ميلاً إلى تيار أو ملك أو اتجاه، بل حاول أن يرصد عصره ويحلل أحداثه بعقلانية، إلى درجة أنه لقّب بالمعلم الثالث نظراً لتمكنه من الفكر الفلسفي والإفادة منه في الكتابة التاريخية.

ويمكن تلخيص ملامح المنهج التاريخي لدى مسكويه على النحو التالي:

- التاريخ أحداث يمكن أن يستفيد منها الإنسان في أمور تتكرر، أو يمكن أن تحدث مستقبلاً.
- أمور الدنيا متشابهة في الإطار العام وعلى الإنسان تجربتها.
- مقارنة الماضي بالحاضر للإفادة من خبرات الماضي.
- ضرورة غربلة الأخبار من الأساطير والأسمار والمعجزات.
- محاولة تفسير أحداث التاريخ وفق منهج علمي تجريبي قائم على الحذر في تلقي الروايات، والدقة في تحليلها.
- استفاد مسكويه من فكره الفلسفي في تفسير التاريخ. فهو بذلك أول من بدأ فلسفة التاريخ.
- مسكويه موضوعي لا ينطلق من تصور مسبق . وحيادي في قراءة مصادره والإفادة منها .
- يعتبر كتابه : " **تجارب الأمم** " من أهم المراجع التاريخية لأنه سجل حي لأحداث القرن الرابع الهجري. وقد سجل مسكويه تلك الأحداث من أصحابها وقام بتفسيرها على أساس الاستدلال الفلسفي الواعي، والنظرة العملية، والذهن البنّاء المنظم، والنظرة المحايدة.

ونلمح أثر هذا المنهج بصور مختلفة لدى المؤرخين المسلمين الذين أتوا في العصور اللاحقة مثل رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ) وهو صاحب كتاب "جامع التواريخ" وابن خلدون والسخاوي والمقريزي وبعض مؤرخي الأندلس ممن سوف نتوقف عندهم.

وقد اعتمدت نشأة علم التاريخ في الأندلس على تأثيرات مشرقية، وتبرز لدينا في الأندلس أسماء هامة تراكمت لديها خبرات أخذت تتبلور مع الزمن. ومن هذه الأسماء عبد الملك بن حبيب وأبناء الرازي، وابن القوطية وعريب بن سعد. ثم تغدو الكتابة التاريخية أكثر نضوجاً وأرسخ قدماً لدى أبي مروان بن حيان صاحب المقتبس. وابن حزم العلامة الموسوعي صاحب الجمهرة والفصل، ثم ابن صاحب الصلاة، وبني سعيد في كتابيهم الموسوعيين "المُغرب" و"المُشرق"، وسواهم.

وحينما نصل إلى القرن الثامن الهجري" الرابع عشر الميلادي"تكون الكتابة في علم التاريخ قد بلغت أوجها لدى ابن الخطيب العلامة الموسوعي، وابن خلدون صاحب فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

ونتوقف قليلاً عند المنهج التاريخي لدى لسان ابن الخطيب في كتبه التاريخية المختلفة، وبخاصة الإحاطة في أخبار غرناطة واللمحة البدرية ونفاضة الجراب.

وتبدو أبرز عناصر منهجه التاريخي في الملاحظات التالية:

١. التاريخ فنٌ غايته نقل الأخبار.

٢. الفن التاريخي مأرب البشر ووسيلة النشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرفيه، ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره ويشفيه.." وهكذا فالتاريخ معرفة الماضي للإفادة منها في رؤية الحاضر.

٣. التاريخ لدى ابن الخطيب ليس مجرد نقل للأحداث السياسية وسيَر الملوك والسلاطين، بل هو تصوير للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية بما تشمله هذه الحياة من رقي وازدهار، أو تخلف وتدهور. وهو في ذلك يتابع التفاصيل الدقيقة للموضوع الذي يتحدث عنه.

يتحدث في الرحلة الأندلسية" **خطرة الطيف**" عن مشهد استقبال السلطان من قبل سكان إحدى المناطق في وادي فرذش، **فيقول:** "واستقبلتنا البلدة حرسها الله- نادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها والقلوب بحباتها، والمقاصر بحورها والمنازل بدورها، فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب، وتدافع البدور بالصدور، بيضاً كأسراب الحمام،...." **ثم يقول:"** واختلط النساء بالرجال، والتقى أرباب الحجا بربات الجمال..ز فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين البنود حمر الخدود.... ويلاحظ هنا دقة ابن الخطيب، كما يلاحظ وصفه للحياة الاجتماعية التي يظهر فيها النساء والرجال. كما يشير في مكان آخر إلى وجود رعايا مسيحيين في مملكة غرناطة خرجوا لاستقبال السلطان وهم يتمتعون بكامل حقوقهم.

٤. يركز ابن الخطيب على الوصف الجغرافي للأماكن التي يتحدث عنها ويجعل هذا الوصف مدخلاً لبحثه التاريخي. وهذا ما فعله في حديثه عن غرناطة في مقدمة كتابه"**الإحاطة**" وكذلك في كتابه "**نفاضة الجراب**" حينما يصف الأماكن التي زارها. ومن ذلك حديثه عن مدينة أغمات في كتاب "**نفاضة الجراب**" حيث يقول: "ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل موطأ لا نشز فيه، ينال جميعه السقي الرغد، وسورها محمر الترب، مندمل الخندق، يخترقها

واديان اثنان من ذوب الثلج، منيعة البناء، مسجدها عتيق عادي، كبير الساحة، ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض...".

٥. يحترم ابن الخطيب التسلسل الزمني بدقة وموضوعية، شان المؤرخين المحترمين، فهو يستعرض الدول ونشوءها وسقوطها استعراضاً تاريخياً دقيقاً، ولا يقرب دولة لشرفها أو مكانتها كالأدارسة مثلاً. وقد فعل سواه ذلك تقرباً لسلاطين عصرهم.

٦. يدأب ابن الخطيب على ذكر مصادر معلوماته، ويحرص على ذكر المؤرخين السابقين باحترام. وقد أورد من الأسماء ما يشير إلى سعة إطلاع وعمق معرفته. فهو يذكر في مقدمة الإحاطة الكتب التي اطلع عليها كتواريخ للمدن أراد أن ينافسها في كتابه **"الإحاطة"** ومن ذلك على سبيل المثال: تاريخ بخارى لأبي عبد الله الفخار، وتاريخ أصبهان لصاحب الحلية، وتاريخ همذان لغنا خسرو الديلمي،.... وتاريخ الرقّة للقشيري، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين الشافعي، وتاريخ مكة للأزرقي... الخ. إن ذكر هذه الأسماء دليل على سعة المعرفة، وأمانة النقل، واحترام الرأي الآخر.

٧. حرص على الاستعانة بالمعلومات من مصادرها القريبة. ومن ذلك طلبه من صديقه سفير قشتالة يوسف بن وقارق معلومات عن تاريخ الممالك النصرانية: قشتالة وأراغون والبرتغال وذلك لتكون معلوماته موثقة ومستندة إلى مراجعها.

٨. اعتماده على مشاهداته من النقوش والكتابات على العمائر والأضرحة والمنشآت المختلفة، وتوثيق تلك النقوش والكتابات والإفادة منها في مادته التاريخية.

٩. أخلاقيته العالية في منهجه التاريخي، وصدقه وموضوعيته ومثال ذلك رسالته التي نصح فيها الملك القشتالي بدرو القاسي، وقد أوردها المستشرقون الأسبان كشاهد على أخلاقية ابن الخطيب. وقد أورد الحادثة المؤرخ الأسباني المعاصر دي إيالا. ووصفها المؤرخ "جاريباي" بأنها قيم أخلاقية جاءت من هذا المسلم ابن الخطيب، وهي تفوق في قيمها ما كتبه سينكا وغيره من فلاسفة الرواقيين الأقدمين.

١٠. مزج ابن الخطيب بين التاريخ والجغرافية والرحلات في إطار من النثر الفني الرشيق والبليغ. بحيث جاءت كتاباته التاريخية يغلب عليها الطابع الأدبي والسجع اللطيف.

هذه الملاحظات العشر هي التي تميز المنهج التاريخي لابن الخطيب ويمكن مقارنتها مع مؤرخين آخرين أحدهما من القرن الرابع الهجري هو مسكويه. والآخر معاصر لابن الخطيب وهو شيخ المؤرخين العرب ابن خلدون.

وتقوم عناصر المنهج التاريخي عند ابن خلدون على الملاحظات الموجزة التالية:

١. التاريخ علم
٢. محتويات التاريخ والفكرة عنها
٣. العناصر التي تجتمع لصنع التاريخ البشري
٤. قوانين التاريخ
٥. التاريخ علم فلسفي عند ابن خلدون(والفلسفة كل ما ليس له صفة دينية)
٦. التاريخ عند ابن خلدون أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وهو نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها ..

٧. ابن خلدون يدحض الأساطير

٨. ابن خلدون يضع القواعد اللازمة لمقارنة الحقيقة

٩. النقد التاريخي عند ابن خلدون يبدو في:

- ✓ تبدل الأحوال بتبدل الأيام.
- ✓ وحدة النفسية الاجتماعية
- ✓ ظروف الأقاليم الجغرافية
- ✓ التاريخ الحضاري البشري

أما منهج البحث التاريخي عند ابن خلدون فيعتمد على:

- ✓ ملاحظة ظواهر الاجتماع لدى الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.
- ✓ تعقب هذه الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره.
- ✓ تعقب أشباهها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.
- ✓ الموازنة بين هذه الظواهر جميعاً.
- ✓ التأمل في مختلف الظواهر للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية واستخلاص قانون تخضع له هذه الظواهر في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

ويرى ابن خلدون في مقدمته:

١. أن دراسة التاريخ ضرورية لمعرفة أحوال الأمم وتطور هذه الأحوال بفعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢. يركز ابن خلدون على موضوع الاستبداد والبطش الذي يقوم به السلطان ضد شعبه وأثر ذلك في الشعب.

٣. يشرح ابن خلدون كيف أن بعض السلاطين ينافسون رعيتهم في الكسب والتجارة. ويسخرون القوانين لخدمة مصالحهم الخاصة وتسلطهم على أموال الناس، وإطلاق يد الجند في الأموال العامة مما يرسخ الشعور بالظلم والإحساس بالحقد لدى الشعب .

٤. يوضح ابن خلدون أن هذه العوامل الداخلية هي التي تؤدي إلى الخلل في أحوال الدولة أكثر من العوامل الخارجية .لأن المجتمع الذي يعاني من خلل داخلي لا يستطيع مجابهة عدو خارجي.

٥. تمكن ابن خلدون من الربط الدقيق بين العوامل الاقتصادية سابقاً بذلك مفكرين أوروبيين بعدة قرون.

٦. استوعب ابن خلدون الإرهاصات السابقة في الفكر السياسي لدى الفارابي والماوردي والغزالي وإخوان الصفا والطرطوشي ومسكويه وسواهم. وصاغ من كل ذلك نظريته الناضجة في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

٧. يتضح من قراءة مقدمة ابن خلدون فهمه لفلسفة التاريخ من خلال ثلاث نقاط أساسية:

- ✓ الأولى: أن التاريخ علم، وليس مجرد سرد أخبار بلا تدقيق ولا تمحيص.
- ✓ الثانية: أن هذا العلم ليس منفصلاً عن العلوم الأخرى كالسياسة والاقتصاد والعمران وعلوم الدين والأدب والفن.
- ✓ الثالثة: أن هذا العلم يخضع لقوانين تنتظم بموجبها أحوال الدول من قوة وضعف، ورفعة وانحلال. وقد طبق ابن خلدون هذه النظرية على كتابه "**العبر**" في سرده للأحداث والتعليق عليها وتحليل نتائجها.

٨. يرى ابن خلدون أن الظلم مؤذن بخراب العمران، ويعدد أشكال هذا الظلم من اعتداء على الناس، وتضييق على حرياتهم، وسلب أموالهم، وإضعاف فرص معاشهم وتحصيل رزقهم. والعمران يفسد بفساد العوامل التي تصنعه، والفساد يؤدي إلى الخراب.

٩. إن الفساد يؤدي إلى هرم الدولة وشيخوختها. والهرم من الأمراض المزمنة التي قد تكون طبيعية مع عمر الدول والأفراد. وقد تكون طارئة بفعل تفاقم الظلم والفساد والعدوان.

١٠. كان ابن خلدون على قدر كبير من الموضوعية والحياد العلمي في قراءته لأحداث التاريخ وتفسيرها رغم صعوبة الحياد في عصره.

واستمراراً لمنهج ابن خلدون وتطويراً له، ودخولاً في التفاصيل الدقيقة يأتي المقريزي في وقت غدت فيه القاهرة مركز العالم الإسلامي ثقافياً واقتصادياً وسياسياً أيام حكم المماليك . وفي القاهرة ولد المقريزي لأسرة أصلها من بعلبك. ويذكر أنه كان سعيداً بولادته وعيشه في القاهرة وقد ترك عدداً من الكتابات التاريخية الفائقة الأهمية **مثل:**

- ✓ السلوك لمعرفة دول الملوك.
- ✓ اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء.
- ✓ عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط.
- ✓ المواعظ والاعتبار (المعروف باسم خطط المقريزي).
- ✓ إغاثة الأمة بكشف الغمة.

وقد أفاد المقريزي من تجارب حياته العملية كاتباً في ديوان الانشاء وقاضياً وخطيباً. كما أفاد من اطلاعه الواسع على الكتابات التاريخية السابقة وبخاصة ابن خلدون. **ولعل أهم ما يميزه:**

١. الموضوعية والأمانة التاريخية في السرد والعرض.

٢. وتنبثق عن الموضوعية صفة العفة والأخلاق الرفيعة والترفع عن الإساءة إلى الآخرين.

٣. التدقيق والتقصي والتحقيق والتعليل.
٤. الدخول في التفاصيل الدقيقة : أحوال النيل – الحياة اليومية – الفساد – الرشوة – الغلاء – إغراق الأسواق بالنقود.
٥. التركيز على الموضوع وعدم الاستطراد، وعدم الخروج على الموضوع .
٦. الحيادية تجاه الحكام وعدم مداهنتهم والتقرب إليهم.
٧. التنبه إلى ربط حركة التاريخ بالعوامل الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة وانتقال أموال وتوزيع ثروات واقطاعات
٨. رصد كثير من الظواهر الاجتماعية بدقة: شهادة الزور، الزنا، اللواط، الفسوق، الخمر.

والآن نخلص إلى بعض الملاحظات العامة والاستنتاجات التي تشمل مراحل تطور الكتابات التاريخية عند العرب:

- ✓ أن الفكر العربي التاريخي اتجه أساساً إلى سرد الوقائع والأحداث من خلال الرصد أو الرواية المسندة، مستفيداً من علم الحديث.
- ✓ إن كلمة "التاريخ" تعني في المعجم الغاية والوقت الذي ينتهي إليه كل شيء. وبذلك يتصل المعنى بحركة الزمن المرصودة وليس بالحكاية الاسطورية التي تشير إليها كلمة *History* باللغات الأوروبية.
- ✓ الغاية النبيلة من كتابة التاريخ كعلم، ويندرج ذلك في إطار العلوم جميعاً كعمل يتقرب به صاحبه إلى الله وكأنه شكل من أشكال العبادة، وليس عملاً نفعياً يتوخى مصلحة آنية.
- ✓ سرد الروايات القديمة بصورة حيادية وترك التعليق عليها وإلقاء مسؤولية روايتها على من أسندت إليه.
- ✓ الاعتراف بالآخر وعرضه بموضوعية إلى حد بعيد وعدم إلغاء من يخالف الرأي أو الدين أو المذهب أو العرق.

- ✓ يلاحظ في الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة تأثر المؤرخين العرب بالمدارس القومية أو الماركسية أو العلمانية أو الليبرالية أو البراغماتية . وهم في أغلب الأحيان متأثرون بالعوامل السياسية الضاغطة بصورة أو بأخرى.
- ✓ بروز التخصصات الدقيقة في الدراسات التاريخية:
  - قديمة – حديثة
  - مشرقية – أندلسية
  - حضارات: مصر القديمة، بابل، بلاد الشام، المغرب
  - الحركات الإسلامية – الشعوبية
  - تاريخ الأدب
  - التاريخ الاجتماعي
  - علم الآثار
  - التراث غير المادي
- ✓ محاولة إظهار جانب العبقرية لدى المؤرخين العرب، وبيان مدى تأثر المؤرخين الغربيين بهم.
- ✓ اللجوء إلى صفحات التاريخ المشرقة هرباً من الإحباط المتلاحق الذي يعيشه العرب اليوم.

الفصل التاسع
المؤرخون العرب القدماء

إن التاريخ هو ذاكرة الشعوب، وتاريخنا القديم مفخرة لنا، فقد كانت أرض العرب في فلسطين وبلاد الشام والعراق ومصر أرض الحضارة، وما قدمته للبشرية يبقى إلى الأبد في ذاكرة العالم!

وقد غيّب المؤرخون العرب القدماء التاريخ والحضارات في العصور القديمة قبل الميلاد، لصالح التوراة وأسفار العهد القديم. فانسياقهم خلف الرواية التوراتية أبعدهم عن معرفة الحقيقة وعن التمييز بين التاريخ العلمي والتاريخ الديني. فهم ليسوا مؤرخين حقيقيين لذاك الماضي، وإنما هم مدونو معلومات وقصاصون. ولم يبالوا إذا تعارضت وتناقضت، أو لم يتقبلها عاقل!

لكن ما يجب تسجيله هنا كنقطة مضيئة هي أن المؤرخين العرب القدماء تناولوا فلسطين وبلاد الشام بعد التحرير العربي الإسلامي من الروم في عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب، كأرض عربية إسلامية طوت صفحة الماضي السحيق وأنهت المشروع التوراتي.

إن القرآن الكريم يروي تاريخاً دينياً، فقصص الأنبياء تركز على الأحداث والأفكار ولكنها لا تهتم بالبيئة الزمانية والمكانية، لذلك نجدهما بالصيغة العامة دونما تحديد كما تحدثنا سابقاً. والمؤرخون هم الذين أقحموا الزمان والمكان المحددين في الحكايات القرآنية بالاستناد إلى أسفار العهد القديم والتلمود والأناجيل والقصص الشعبية عند اليهود والمسيحيين، وغطت المخيلة ما تبقى من ثغرات لاستكمال بناء الحبكة المشوقة!

وقد بدأت حكاية التاريخ عند مؤرخينا بداية دينية، هدفها توضيح التكوين وبدء الخليقة وقصص الأنبياء.. ولم يكن هدفهم كتابة تاريخ فلسطين ولا تاريخ العرب وبلاد الشام، فهذه القضية لم تكن تعنيهم إنما كان الهدف تاريخ حياة الأنبياء. وكانت تلك الموضوعات متداخلة في القرآن، فلجؤوا إلى فصلها وتجميعها مقلدين التسلسل الزمني في التوراة وبقية الأسفار.

ولعل العقلية في تلك الأزمان لم يكن يرضيها إلا ما هو غير مألوف في الحكاية أو في بطلها فهي تريده خارقاً للمألوف، لتشبع أحلام اللاشعور تجاه حياة فيها شيء ما لا يرضيهم ويريدون اختراقه. فيلبي القاص للمعلومة ذاك التوجه وذاك الفضول فيزيد من التشويق بما يسمح له خياله الخصب، ويستفيض في بحر من الأكاذيب كلما وجد جمهوره مأخوذاً أكثر بما يقول!

لن نتناول التاريخ القديم كله، وإنما ما يتعلق بفلسطين وشعبها وهذا يرتبط مباشرة بقضية الأنبياء.. والحديث عن شعب كنعان لا بد أن يجرنا إلى قضية السلالات الخرافية والتي أفرزت كنعان كمجرم في عرف عزرا مؤلف التوراة.

ولن نتطرق إلى القضايا كلها عند كل واحد من المؤرخين، فهناك تنوع بين التكرار والتفرد.. ونحن لو اكتفينا بالطبري لكفى أو لو أضفنا ابن الأثير وابن خلدون لبلغنا الهدف من البحث، لكن تعميم النتيجة يحتاج إلى استقراء نماذج متعددة.

✍ **وسنتناول القضايا الرئيسية التالية:**

١. خرافة السلالات البشرية.
٢. هجرة إبراهيم ومن معه إلى فلسطين، وعصر الآباء...
٣. خروج موسى من مصر والمجيء إلى أرض كنعان. ودخول يوشع عبر البوابة أريحا.
٤. مملكة داود وسليمان المزعومة.
٥. بعض أخبار السبي وإفرازاته.

محمد بن جرير الطبري أبو جعفر "توفي ٣١٠ هـ"

"تاريخ الأمم والملوك"

أبو المؤرخين وعميدهم، كما هو هيرودوت أبو التاريخ عند اليونان. وهو النبع لمن بعده من المؤرخين وإن سبقه اليعقوبي، **وقد قال عنه المسعودي:**

(وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات، والزائد على الكتب المصنفات، فقد جمع أنواع الأخبار، وحَوَى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم، وهو كتاب تكثر فائدته، وتنفع عائدته، وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره، وناسِكُ دهره، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار، وحَمَلَة السنن والآثار).

يعتمد منهج الطبري على النقل، وقام بسرد أخبار الماضين والقصص والحكايات دونما تمحيص، **كما يعترف هو بذلك:**

(وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه. إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا) [ج ١ - ص ١٣].

ومن هنا لا يمكن عدّه مؤرخاً للماضي بقدر ما هو جامع للأخبار والحكايات. وقد خلط الحقائق بالخيال والخرافات والأساطير، وكان للإسرائيليات حظ وافر في كتابه. وهو قد يذكر عدداً من الروايات للخبر الواحد والتي قد تتقاطع أو تتعارض فيما بينها، وربما يتدخل في النهاية لترجيح رواية على أخرى.

والشخصيات عنده هي الأساس في تاريخه، وكتابه إنما كان من أجل ذلك، وهو وإن حدد زمان ومكان شخصياته وأحداثه بالاستناد إلى الإسرائيليات، فإنما هو فضاء حركة الشخصية، وفي ذلك يقول إن كتابه هو:

(تاريخ الملوك الماضين وجمل من أخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم) [ج ١ - ص ١٣].

خرافة السلالات البشرية:

أول ذكر لفلسطين عند الطبري عندما يتحدث عن وفاة آدم حيث يذكر في إحدى الروايتين اللتين يذكرهما بأن نوحاً حمله معه في السفينة، **ولما انتهى الطوفان دفنه في بيت المقدس:**

(عن ابن عباس قال لما خرج نوح من السفينة دفن آدم عليه السلام ببيت المقدس) [ج ١ - ص ١٠١].

ويذكر أن أولاد آدم كلهم انقرضوا إلا من كان من نسل شيث:

(وذرية آدم كلهم جهلت أنسابهم وانقطع نسلهم إلا ما كان من شيث بن آدم فمنه كان النسل، وأنساب الناس اليوم كلهم إليه دون أبيه آدم فهو أبو البشر إلا ما كان من أبيه وإخوته ممن لم يترك عقباً) [ج ١ - ص ١٠٤].

ومع ذكر الطوفان يتحدث عن كنعان في إحدى رواياته على أنه الغريق الذي رفض أن يركب في السفينة: (وقيل إنه كان لنوح قبل الطوفان ابنان هلكا جميعاً كان أحدهما يقال له كنعان. قالوا وهو الذي غرق في الطوفان، والآخر منهما يقال له عابر مات قبل الطوفان) [ج ١ - ص ١١٩].

ويؤكد برواية أخرى عن ابن عباس بأن الغريق كنعان. إلا أنه يعود فيستنسخ كنعان آخر يجعله ابناً لحام ويزوجه ليكوّن نسله، **وهو المطابق للتوراة:** (ونكح كنعان بن حام بن نوح أرتيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث بن نوح فولدت له الأساود نوبة وفزان والزنج والزغاوة وأجناس السودان كلها) [ج١ - ص ١٢٥].

وبعد انتهاء الطوفان يقسم نوح الأرض بين أبنائه الثلاثة: (فلما هبط نوح وذريته وكل من كان في السفينة إلى الأرض قسم الأرض بين ولده أثلاثاً: فجعل لسام وسطاً من الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحان وجيحان وفيشون وذلك ما بين فيشون إلى شرقي النيل وما بين منخر ريح الجنوب إلى منخر الشمال، وجعل لحام قسمه غربي النيل فما وراءه إلى منخر ريح الدبور، وجعل قسم يافث في فيشون فما وراءه إلى منخر ريح الصبا) [ج ١ - ص ١٢٠].

ويذكر رواية وهب بن المنبه عن آباء البشرية الأوائل، والتي تداولها المؤرخون جميعاً: (إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وإن يافث أبو الترك وأبو يأجوج ومأجوج وهو بنو عم الترك) [ج ١ - ص ١٢٤].

ويبدأ مسخ كنعان على خلفية توراتية، فيروي عن ابن إسحق عن التوراة قضية رؤية حام لعورة أبيه نوح، **فيغضب نوح ويلعن كنعان بن حام:** (ويزعم أهل التوراة أن ذلك لم يكن إلا دعوة دعاها نوح على ابنه

حام؛ وذلك أن نوحاً نام فانكشف عن عورته فرآها حام فلم يغطها، ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوباً فواريا عورته. فلما هب من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث فقال: ملعون كنعان بن حام عبيداً يكونون إخوته. وقال يبارك الله ربي في سام ويكون حام عبد أخويه، ويقرض الله يافث ويحل في مساكن حام ويكون كنعان عبداً لهم) [ج ١ - ص ١٢٥].

لِمَ لمْ يفكر الطبري بتلك اللعنة التي أحلها نوح على كنعان، مع أن حاماً هو الذي رأى العورة وكنعان بريء من فعلة أبيه، ألا يتعارض ذلك مع القيم الإسلامية!؟

وهو يعرض روايتين عن أصل كنعان: الأولى كنعان ابن لحام بحسب المصدر التوراتي، والرواية الثانية يجعل فيها كنعان من سلالة سام، **وهذه الرواية لابن إسحق:**

(فنكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح، فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق، ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا، فعمليق أبو العماليق كلهم؛ أمم تفرقت في البلاد وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة بمصر وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم...) [ج ١ - ص ١٢٥].

فالكنعانيون هم الجبابرة وهم من نسل العمالقة، وهم وكل شعوب المنطقة عرب. وعمليق جد العرب جميعاً شرقاً وغرباً!

ويذكر أن طسم والعمليق وجاسم... عرب ولكنهم من العرب العاربة: (فكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوماً عرباً، لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي) [ج ١ - ص ١٢٦].

وهذا الكلام "عرب.. لسانهم عربي"، رماه المؤرخون العرب المعاصرون وراء ظهورهم ليلهثوا وراء نظرية السامية التوراتية الاستعمارية!

إذاً يطرح الطبري سلالتين متناقضتين لكنعان: واحدة تصل إلى سام والأخرى تصل إلى حام، ولكنه يؤكد أن كنعان من نسل أولاد حام: (وأما حام بن نوح فولد له كوش ومصرايم وقوط وكنعان. فمن ولد كوش نمرود المتجبر الذي كان ببابل وهو نمرود بن كوش بن حام، وصارت بقية ولد حام بالسواحل من المشرق والمغرب والنوبة والحبشة وفزان. قال ويقال إن مصرايم ولد القبط والبربر وإن قوطاً صار إلى أرض السند والهند فنزلهما وإن أهلها من ولده) [ج ١ - ص ١٢٦].

فسلالة حام نتيجة اللعنة عبيد وسود "زنوج": (ودعا على حام بأن يتغير لونه ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث) (ومن ولد حام بن نوح النوبة والحبشة وفزان والهند والسند وأهل السواحل في المشرق والمغرب. قال ومنهم نمرود وهو نمرود بن كوش بن حام)!

والأمر نفسه يكرره مع نمرود فهناك روايتان: الأولى ينسب فيها نمرود صاحب النبي إبراهيم إلى كنعان بن حام! (ونمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح وهو صاحب بابل وهو صاحب إبراهيم) [ج ١ - ص ١٢٨].

والثانية ينسبه وكنعان إلى سام، ويعده أول كافر يملك الأرض: (إن أول ملك، ملك في الأرض شرقها وغربها، نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح) [ج ١ - ص ١٤٢].

ونلاحظ الإهانة التي ألحقها الطبري، والمؤرخون القدماء، بكنعان مزايدين في ذلك على التوراة نفسها. **فكنعان هو:**

١. الابن الكافر لنوح والذي رفض أن يصعد إلى السفينة!

٢. الملعون الأبدي لأن أباه رأى عورة جده "نوح"!

٣. أبو نمرود الذي كفر بإبراهيم، وبربه!

فكنعان المستنسخ ثلاث مرات، ما هو إلا إبليس البشري المتجسد في الكفرة والأشرار!

لقد تم تقسيم الأرض بين أبناء نوح كما ذُكر في عهد نوح، ولكن يضعنا الطبري أمام رواية أخرى لمن قام بتقسيم الأرض بين السلالات: (فالغ بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح هو الذي قسم الأرض بين بني نوح).

ويتبنى رأي التوراة بأن كنعان كانت له بلاد الشام، وطبعاً فلسطين من ضمنها، ثم آلت بلاد الشام كلها للإسرائيليين، **فهم ورثة الكنعانيين:**

(ولحق قوم من بني كنعان بالشأم، فسميت الشأم حيث تشاءموا إليها. وكانت الشأم يقال لها أرض بني كنعان، ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها فكانت الشأم لبني إسرائيل، وثم وثبت الروم على بني إسرائيل فقتلوهم وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم، ثم جاءت العرب فغلبوا على الشأم) [ج ١ - ص ١٢٨].

ذاك أمر تلك السلالات الخرافية واقتسام العالم بحسب الرؤية التوراتية. وما عرضه الطبري تجميع من التوراة والرواة. وقد تحدثنا عن أمر السلالات المتأثرة باليهود وانتشارها في الإسلام.. وهي سلالات خرافية لا تمت للعلم بصلة، ولم ينتبه المؤرخون والنسّابون إلى أن هدف اليهودي عزرا كان جعل بني إسرائيل محور الوجود وجعل كنعان - شعب فلسطين - الملعون والمنبوذ لأنه قاوم مشروع عزرا الاستعماري. كما لم ينتبهوا إلى كراهيته للعرب حيث جعل سلالة العرب من أَمة إبراهيم وهي هاجر وكانت جارية عند فرعون، بينما سلالة بني إسرائيل من السيدة الحرة سارة والتي جعلها الطبري في إحدى رواياته بنت ملك حران (عن السدي قال انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها) [ج ١ - ص ١٤٨]!

لقد كان هدف عزرا الحط من شأن العرب وتحطيم كنعان، لكن النسابين وجدوا شرفاً في الانتماء إلى إبراهيم رأس سلالتهم - كما أخبرهم اليهود - ولو عن طريق جارية!

هجرة إبراهيم وعصر الآباء:

يورد الطبري رواية تقول إن إبراهيم ومن معه هاجروا من العراق إلى حران في بلاد الشام، ومن ثم إلى مصر. ولا تذكر دخولهم إلى فلسطين إلا في العودة. **والرواية تلك تختلف عن رواية التوراة:**

(ثم خرج إبراهيم مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط مهاجراً، وتزوج سارة ابنة عمه فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر) [ج ١ - ص ١٤٨].

ولما خرج من مصر جاء إلى فلسطين: (وقد كان إبراهيم خرج من مصر إلى الشام، وهاب ذلك الملك الذي كان بها وأشفق من شره حتى قدمها، فنزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام. ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك) [ج ١ - ص ١٥٠].

ثم انتقل إلى منطقة أخرى (فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا).

ويروي خبراً آخر يحدد فيه مسار إبراهيم من حران إلى مصر عبر الأردن: (... قال: فهاجر إبراهيم من بابل إلى الشأم فجاءته سارة فوهبت له نفسها فتزوجها، وخرجت معه وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فأتى حران فأقام بها زماناً، ثم أتى الأردن فأقام بها زماناً، ثم خرج إلى مصر فأقام بها زماناً، ثم رجع إلى الشأم فنزل السبع أرض بين إيليا وفلسطين. واحتفر بئراً وبنى مسجداً ثم إن بعض أهل البلد آذاه، فتحول من عندهم فنزل منزلاً بين الرملة وإيليا) [ج ١ - ص ١٨٥].

كما يروي معنعناً عن ابن عباس، أصل العبري والعبرية: (عن ابن عباس قال: لما هرب إبراهيم من كوثى وخرج من النار ولسانه يومئذ سرياني، فلما عبر الفرات من حران غير الله لسانه فقيل عبراني أي حيث عبر الفرات. وبعث نمرود في أثره وقال لا تدعوا أحداً يتكلم بالسريانية إلا جئتموني به، فلقوا إبراهيم عليه السلام فتكلم بالعبرانية فتركوه ولم يعرفوا لغته)!

وتأتي قصة إبعاده لهاجر وابنها إسماعيل، لنتساءل لم هذه المسافة البعيدة جداً وهي مسيرة شهر تقريباً، إذا نظرنا بالمقاييس الجغرافية للواقع الحقيقي، في الوقت الذي أبعد فيه لوطاً إلى مسافة ليست بالبعيدة!

لعل في نظرية جغرافية التوراة الجزيرية، الجواب؛ وهو أن إبراهيم لم يكن في فلسطين وإنما في غرب الجزيرة نفسها، وهذا يحل إشكالية المسافات البعيدة والمساحات!

ويتحدث الطبري عن خبر إبعاد لوط إلى الأردن على نهج التوراة دونما انتباه، وكأنما فلسطين كلها حقل صغير لا يكفي لممتلكات ومواشي اثنين، علماً بأن عزرا كان هدفه إخراج لوط من الدائرة المقدسة للسلالة الوارثة، التي أرادها لبني إسرائيل عبر إسحق فيعقوب!

(فلما كثر مال إبراهيم ومواشيه احتاج إلى السعة في المسكن والمرعى، وكان مسكنه ما بين قرية مدين فيما قيل والحجاز إلى أرض الشأم، وكان ابن أخيه لوط نازلاً معه فقاسم ماله لوطاً فأعطى لوطاً شطره فيما قيل، وخيره مسكناً يسكنه ومنزلاً ينزله غير المنزل الذي هو به نازل، فاختار لوط ناحية الأردن فصار إليها، وأقام إبراهيم عليه السلام بمكانه) [ج ١ ـ ص ١٨٤].

ويرد ضمن تسلسل الأحداث أن إبراهيم أرسل ابنه إسحق ليتزوج من بنات خاله في حران حتى لا يتزوج من كنعانية وثنية، ثم نفاجأ بأن إبراهيم يتزوج كنعانية وثنية بعد وفاة زوجته سارة، **كما يذكر الطبري في روايته عن ابن إسحق:**

(تزوج إبراهيم بعدها قطورا بنت يقطن امرأة من الكنعانيين) [ج ١ - ص ١٨٥]. وقد ولدت له ستة أنفار منهم يقسان أبو البربر، ومديان أبو مدين! كما أن إسحق أمر ابنه ألا يتزوج من كنعانية! (وإن إسحاق أمر ابنه يعقوب ألا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله لبان بن ناهر) [ج ١ - ص ١٩١]. وانتهت حياة إبراهيم ومات فدفن (عند قبر سارة في مزرعة حبرون) [ج ١ - ص ١٨٧].

المفترض أن إبراهيم - بعد استقراره في فلسطين - سيقوم بدعوة كنعان للرسالة التي يحملها، ولكن ذلك لم يحدث، حيث لم يرد أي خبر عن دعوة كنعان إلى الإيمان لا في عهد إبراهيم ولا في عهد سلالته: (وكانت النبوة والملك متصلين بالشأم ونواحيها لولد إسرائيل بن إسحاق إلى أن زال ذلك عنهم بالفرس والروم بعد يحيى بن زكرياء وبعد عيسى بن مريم عليهما السلام) [ج ١ - ص ١٩٠].

فالنبوة تعني حمل رسالة على رأسها الدعوة للإيمان، وليس الأمر متعلقاً بالتمييز بين النبي والرسول وبأن كل رسول نبي وهو مكلف بالدعوة، بينما ليس كل نبي رسولاً وهو غير مكلف بالدعوة. فقد عدوا إبراهيم رسولاً وحاول أن يهدي نمرود وناقشه!

والذي يبدو في التوراة أن التوحيد كان منتشراً في فلسطين، لذلك لم يحتج إبراهيم لدعوة أحد، وهذا ما يفسر اختياره فلسطين للاستقرار فيها.

وعلى كل تدارك مؤرخون آخرون هذه النقطة كابن الجوزي، حيث لم يرق لهم ألا يدعو الآباء إلى رسالة، فجعلوا الأنبياء الآباء رسلاً يدعون للإيمان، **وقد تداولوا رواية الضحاك بن مزاحم:**

(أن إسحاق أول مرسل بعد إبراهيم، قال ولم يمت إبراهيم حتى بعث إلى أرض الشام، وبعث يعقوب بن إسحاق إلى كنعان، وبعث إسماعيل إلى جرهم وبعث إلى سدوم)!

ويتابع الطبري خطى تسلسل التوراة، فيعقوب يجيء من ديار خاله مع أسباطه الاثني عشر: (فانصرف يعقوب بولده هؤلاء وامرأتيه المذكورتين إلى منزل أبيه من فلسطين، على خوف شديد من أخيه العيص فلم ير منه إلا خيراً) [ج ١ - ص ١٩١].

وأخوه العيص "عيسو" يكثر نسله ويغلب الكنعانيين ويمتد ملكه: (وكان العيص فيما ذكر لحق بعمه إسماعيل فتزوج إليه ابنته بسمة وحملها إلى الشام، فولدت له عدة أولاد فكثروا حتى غلبوا الكنعانيين بالشام وصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية ثم إلى الروم)!!

ويرحل يعقوب إلى مصر بعد استدعاء يوسف له ثم يموت هناك، فيأتي يوسف به إلى فلسطين ويدفنه ومن ثم يرجع إلى مصر: (وأن يعقوب لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف، وكان دخول يعقوب مصر في سبعين إنساناً من أهله. وتقدم إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك به ومضى به حتى دفنه بالشأم ثم انصرف إلى مصر. وأوصى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفن إلى جنب آبائه، فحمل موسى تابوت جسده عند خروجه من مصر معه) [ج ١ - ص ٢١٩].

ويـروي عـن ابـن إسـحق خبـراً معنعنـاً: (أن الله حـين أمـر موسـى بالمسير ببنـي إسـرائيل، أمـره أن يحتمـل يوسـف معـه حتـى يضـعه بـالأرض المقدسة) [ج ١ - ص ٢٤٨].

زمن موسى ويوشع:

وتنتهي حلقة الآباء لتبدأ بعد أربعمئة سنة حلقة جديدة مع النبي موسـى بحسب التوراة. **فموسى يخرج من مصر ببنـي إسـرائيل:** (وخـرج موسـى في ستمائة ألف وعشرين ألـف مقاتل، لا يعـدون ابـن العشـرين لصـغره ولا ابن الستين لكبره، وإنما عدوا ما بين ذلك سوى الذرية) [ج ١ - ص ٢٤٦].

ويورد الطبري روايـة توضـح هـدف الخـروج وهـو الأرض المقدسـة/ فلسطين، فقد وصـل موسـى مـع بنـي إسـرائيل إلـى حـدود فلسـطين مـن جهـة أريحا لغزوها، **ويروي حكاية عاج بن عنق/ عوج:**

(ثم أمرهم بالسير إلـى أريحـا وهـي أرض بيـت المقـدس فسـاروا حتـى إذا كـانوا قريبـاً منـه، بعـث موسـى اثنـي عشـر نقيبـاً مـن جميـع أسـباط بنـي إسرائيل فساروا يريدون أن يأتوه بخبر الجبارين. فلقيهم رجل مـن الجبـارين يقال له عاج فأخذ الاثني عشر فجعلهم في حجزته وعلى رأسـه حملـة حطـب فانطلق بهم إلى امرأته، فقال انظـري إلـى هـؤلاء القـوم الـذين يزعمـون أنهـم يريـدون أن يقاتلونـا فطـرحهم بـين يـديها فقـال ألا أطحـنهم برجلـي، فقالـت امرأته لا بل خل عنهم حتـى يخبـروا قـومهم بمـا رأوا ففعـل ذلـك. فلمـا خـرج القوم قـال بعضـهم لـبعض يـا قـوم إنكـم إن أخبـرتم بنـي إسـرائيل بخبـر القـوم ارتـدوا عـن نبـي الله ولكـن اكتمـوهم وأخبـروا نبـي الله فيكونـان همـا يريـان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ليكتموه) [ج ١ - ص ٢٥٣].

ونلاحـظ هنـا عنصـر الخرافـة حيـث صـور الجبـابرة وهـم أنفسـهم العماليق "سلالة عمليق" بأنهم عمالقة (كان طول عوج ثمانمائة ذراع)، مما أدى إلى خوف بني إسرائيل من محاربة الجبارين!

وقد مر معنا انتقادات بعضهم للخرافات، وللشوكاني نقد جيد في تفسيره؛ يتعلق بخرافة العمالقة وعوج بن عنق ضمن شرحه للآية ٢١ من سورة المائدة، **حيث قال:**

(قلت لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضى تطويل الكلام في شأنه. وما هذا بأول كذبة اشتهرت في الناس. ولسنا بملزومين بدفع الأكاذيب التي وضعها القصاص ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم. فكم في بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب وبلايا وأقاصيص كلها حديث خرافة، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها من كتب القصاص).

ولكن ذاك النقد الجيد لا يعني أن الشوكاني يرفض الخرافات، فقد غاص فيها كالآخرين.

ومات موسى قبل أن يدخل أريحا. ويذكر الطبري عدة روايات تتعارض فيما بينها حول دخول موسى أو يوشع بن نون. **ومن تلك الروايات الرواية المتوافقة مع التوراة:**

(فقال بعضهم لم يسر يوشع إلى أريحا، ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى وبعد هلاك جميع من كان أبى المسير إليها مع موسى بن عمران حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين، وقالوا مات موسى وهارون جميعاً في التيه قبل خروجهما منه) [ج ١ - ص ٢٥٧].

ويحدثنا عن حكاية بلعام: (فلما انتهوا إلى أرض كنعان وبها بلعم بن باعور المعروف، وكان رجلاً قد آتاه الله علماً وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى).

لم يفكر الطبري ولا المؤرخون في قضية بلعام وقد كان موحداً! فعزرا شوه صورة الموحدين ليبرر سلب الأرض والاعتداء على الآخرين، وسار في فلكه المؤرخون المسلمون، والقارئ لحكايته في التوراة يكتشف بيسر الهدف منها!!

ويروي عدة روايات عن دخول يوشع إلى أريحا، وانتصاره على الجبارين ومن جملة رواياته رواية التوراة الهزلية عن إسقاط أسوار المدينة بالصيحة.

ويتابع مقتفياً آثار التوراة فهو يدور في فلكها حيث اقتحم يوشع المدينة وغيرها وانتصروا على الجبارين. وكعادته لم يحقق بما ينقله فهذا منهجه كما يقول، وكأنما اعترافه يعفيه من المسؤولية!

إن علم الآثار الحديث ينفي دخول بني إسرائيل إلى فلسطين، وقضية يوشع بكاملها كاذبة، ومشكلة الطبري هي نفسها مشكلة المؤرخين القدماء كلهم والكثير من المؤرخين العرب المعاصرين الذين خلطوا بين التاريخ الديني والتاريخ الحقيقي على أرض فلسطين والشام والعراق ومصر!

وبعد مجازر القتل والاستباحة تصير أرض كنعان للإسرائيليين، لأن أهل كنعان بمفهوم المؤرخين وثنيون كفرة، بينما الأسباط الإسرائيلية موحدون. وبالتالي الحرب هي حرب مؤمنين ضد الكفار!! (وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيين واستولوا على أرضهم) [ج ١ - ص ٢٦١].

ومن تبقى من الكنعانيين ذهبوا إلى إفريقية، فالطبري يذكر رواية لابن الكلبي: (وزعم هشام بن محمد الكلبي أن بقية بقيت من الكنعانيين بعد ما قتل يوشع من قتل منهم، وأن إفريقيس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، مر بهم متوجهاً إلى إفريقية فاحتملهم من سواحل الشام حتى أتى بهم إفريقية فافتتحها، وقتل ملكها جراجيرا وأسكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين كان احتملهم معه من سواحل الشام. قال فهم البرابرة قال وإنما سموا بربراً لأن إفريقيس قال لهم ما أكثر بربرتكم) [ج ١ - ص ٢٦١].

وطبعاً ذاك رأي من الآراء حيث نكتشف فيما بعد صراع أسباط بني إسرائيل مع الفلسطينيين كما ورد في عهد القضاة، **والفلسطينيون هم كنعانيون كما مر معنا:**

(ثم ملكهم بنو عمون وهم قوم من أهل فلسطين ثماني عشرة سنة، ثم قام بأمرهم رجل منهم يقال له يفتح ست سنين، ثم دبرهم من بعده يجشون وهو رجل من بني إسرائيل سبع سنين، ثم دبرهم بعده ألون عشر سنين، ثم من بعده كيرون ويسميه بعضهم عكرون ثماني سنين. ثم قهرهم أهل فلسطين وملوكهم أربعين سنة) [ج ١ - ص ٢٧٥].

وهكذا ساهم الطبري والمؤرخون القدماء بحذف شعب فلسطين من الوجود لصالح الإسرائيليين، نتيجة الرؤية الدينية الضيقة التي حصرتهم فيها التوراة!

فلم يكن بنو كنعان أو الفلسطينيون سوى محاربين كفار ومعادين لبني إسرائيل الأسباط البررة، وهم أداة لمعاقبة بني إسرائيل عندما يرمون الدين خلف ظهورهم، وبمعنى أدق كانوا أداة التخويف والترعيب والترهيب!!

هكذا اختزل تاريخ شعب بكامله وحضارته وعبر قرون، لتلك المهمة!

من المملكة إلى السبي:

ويستمر الطبري بسرد التاريخ الديني فيتحدث عن مملكة داود المزيفة، ومن ثم سليمان، ومن بعده انشقاق المملكة والصراعات والغزو الخارجي، ويصل إلى الحديث عن تهديم بختنصر لبيت المقدس "هيكل سليمان" والسبي، **فيقول:**

(ثم ملك أمرهم من بعده يوياحين بن يوياقيم فغزاه بختنصر فأسره وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه، وملك مكانه متنيا عمه وسماه صديقيا، فخالفه فغزاه فظفر به فأوثقه وحمله إلى بابل بعد أن ذبح ولده بين يديه وسمل عينيه وخرب المدينة والهيكل، وسبى بني إسرائيل وحملهم إلى

بابل. فمكثوا بها إلى أن ردهم إلى بيت المقدس كيرش بن جاماسب بن أسب من أجل القرابة التي كان بينه وبينهم وذلك أن أمه أشتر ابنة جاويل وقيل حاويل الإسرائيلي) [ج ١ - ص ٣١٥].

ويذكر في إحدى رواياته عن السبي، عدة شعوب سبيت: (وسبى – بختنصر - أهل مصر ثم سار في أرض المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية ثم انطلق بسبي كثير من أهل فلسطين والأردن فيهم دانيال وغيره من الأنبياء) [ج ١ - ص ٣١٦].

ويتابع: (قال - هشام بن محمد - وفي ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل ونزل بعضهم أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها) [ج ١ - ص ٣١٧].

ثم يتحدث عن مجيء الإسرائيليين من السبي البابلي إلى فلسطين: (وأقام بنو إسرائيل ببيت المقدس ورد إليهم أمرهم، وكثروا بها حتى غلبت عليهم الروم في زمان ملوك الطوائف فلم يكن لهم بعد ذلك جماعة).

ويورد خبراً خلال حديثه عن سبي بختنصر للعرب، وعودتهم من السبي بأنهم وأنبياء بني إسرائيل عادوا إلى مكة، ولا يذكر الراوي سوى أنه رأي لأهل العلم بأخبار الماضين. والخبر المروي عن هشام بن محمد عن عودة قسم من السبي الإسرائيلي إلى الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها يتقاطع مع هذا الرأي:

(فرجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا عربة فألقاهم بالأنبار فقيل أنبار العرب وبذلك سميت الأنبار، وخالطهم بعد ذلك النبط. فلما رجع بختنصر مات عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً حياة بختنصر. فلما مات بختنصر خرج معد بن عدنان معه الأنبياء أنبياء بني إسرائيل صلوات الله

عليهم حتى أتى مكة فأقام أعلامها فحج وحج الأنبياء معه) [ج ١ - ص ٣٢٧].

وهذه الرواية غريبة بين الروايات التي تعتمد على العهد القديم في أخبارها، ولكنها تدعم رأي من يرى أن أحداث التوراة كانت في جزيرة العرب بما في ذلك السبي والرجوع منه.

وهناك خبر آخر يرى أن السبي نتيجة قتل اليهود للأنبياء وآخرهم يحيى، مما يعني أن السبي زمن المسيح. ومع أن الطبري يرفضه **ولكنه يورده:**

(قال أبو جعفر وهذا القول الذي روي عمن ذكرت في هذه الأخبار التي رويت وعمن لم يذكر في هذا الكتاب من أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكرياء عند أهل السير والأخبار والعلم بأمور الماضين في الجاهلية، وعند غيرهم من أهل الملل غلط. وذلك أنهم بأجمعهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم أشعيا في عهد إرميا بن حلقياً، وبين عهد إرميا وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكرياء أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة في قول اليهود والنصارى. ويذكرون أن ذلك عندهم في كتبهم وأسفارهم مبين، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين عمرانها في عهد كيرش بن أخشويرش أصبهبذ بابل من قبل أردشير بهمن بن إسفنديار بن بشتاسب، ثم من قبل ابنته خماني سبعين سنة، ثم من بعد عمرانها إلى ظهور الإسكندر عليها وحيازة مملكتها إلى مملكته ثمانياً وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر لها إلى مولد يحيى بن زكرياء ثلاثمائة سنة وثلاث سنين، فذلك على قولهم أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة. وأما المجوس فإنها توافق النصارى واليهود في مدة خراب بيت المقدس وأمر بختنصر وما كان من أمره وأمر بني إسرائيل إلى غلبة

الإسكندر على بيت المقدس والشام وهلاك دارا، وتخالفهم في مدة ما بين ملك الإسكندر ومولد يحيى؛ فتزعم أن مدة ذلك إحدى وخمسون سنة فبين المجوس والنصارى من الاختلاف في مدة ما بين ملك الإسكندر ومولد يحيى وعيسى ما ذكرت) [ج ١ - ص ٣٤٧].

ورأي المجوس يجعل المسيح في عهد الإسكندر المقدوني. وهنا لا بد من الإشارة إلى الرأي القائل بأن المسيح عاش في القرن الثالث قبل الميلاد المتعارف عليه كما تذكر رواية المجوس، وكما يمكن أن يفهم من لفائف البحر الميت (مغاور قمران).

لم نتعرض لكل القضايا عند الطبري التي تمس فلسطين وشعبها، تاركين لغيره من المؤرخين ذكرها، **ولكن نسأل:** أين الشعب الفلسطيني وتاريخه وحضارته، وأين بلاد الشام والعراق ومصر وحضارتهم؟!

إن اختزال تاريخ فلسطين وشعبها وحضارتها وبلاد الشام، وتقزيمه إلى تاريخ كاذب عن أسباط بني إسرائيل من خلال إيمانهم وكفرهم وصراعاتهم السخيفة، هو أمر يدعو للألم!

وما أسسه الطبري كان القاعدة التي دار المؤرخون من بعده في فلكها، وكيف لا وهو شيخ المؤرخين!

ابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين أبو الحسن علي بن محمد

"الكامل في التاريخ"

يتحدث ابن الأثير في مقدمة كتابه عن منهجه، فيقول: (جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ومن تأمله علم صحة ذلك، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة...). (على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه...) [ج ١ – ص ٦ ، ٧].

إذاً هو على درب الطبري على أنه ينتقي ما يراه الأكمل، كما أنه ينقل عن التوراة وغيرها، ولا يبالي بما ينقل من تناقضات وتعارضات أو خرافات، لأنه وضع نفسه موضع الجامع للأخبار وليس موضع المؤرخ!

فهو مثلاً عندما يتحدث عن دفن آدم يورد رأيين، **ومنهما الرأي المنسوب إلى ابن عباس:** (قال ابن عباس لما خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس) [ج ١ - ص ٤٥].

ولو تساءلنا عن صحة الخبر ودقته جاءنا جوابه: (والعهدة عليهم وإنما نحن نقلنا ما قالوه)، وهذا اعتراف صريح بأنه وغيره ليسوا بمؤرخين، إنما جامعو أخبار!!

خرافة السلالات البشرية:

يذكر كنعان على أنه غرق وقت الطوفان: (وقيل إن اسم ولده الذي أغرق كان كنعان وهو يام) [ج ١ - ص ٥٨].

ويربط السلالات بخرافة أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث، بالاعتماد على التوراة ورواية وهب بن منبه الشهيرة، **كما يذكر قضية حام ورؤيته لعورة أبيه:**

(وقال وهب بن منبه: إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وإن يافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج. وقيل إن القبط من ولد قوط بن حام. وإنما كان السودان في نسل حام لأن نوحاً نام فانكشفت سوءته فرآها حام فلم يغطها ورآها سام ويافث فألقيا عليه ثوباً، فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليه) [ج ١ - ص ٦١].

ويذكر أصل كنعان المزدوج وهو ما وقع فيه الطبري والآخرون؛ فقد عدّ الكنعانيين من نسل الملعونين أي ذرية حام، لكنه يسرد رواية أخرى بأنهم من نسل سام:

(فمن ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق وهو أبو العماليق؛ ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، والفراعنة بمصر وكان أهل البحرين وعمان منهم ويسمون جاشم...).

وعدّ أولئك عرباً كما قال الطبري: (فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم قوماً عرباً لسانهم عربي) [ج ١ - ص ٦١].

وهذا ما يؤكد عروبة سكان المنطقة، وهي نقطة مهمة كان يجب أن ينميها المؤرخون المعاصرون! كما يذكر ثلاث روايات لنسبة نمرود؛ واحدة لسام والثانية لحام والثالثة لكنعان: (وولد لأرفخشذ بن سام..).. (ولد لأرفخشذ أيضاً نمروذ بن كوش بن حام بن نوح) [ج ١ - ص ٦٢].

(وأما حام فولد له كوش ومصرايم وفوط وكنعان، فمن ولد كوش نمروذ بن كوش، وقيل هو من ولد سام) [ج ١ - ص ٦٣]. ونمرود ابن كنعان: (نمروذ بن كنعان) [ج ١ - ص ٨٩].

كما يذكر فيما بعد عندما يتحدث عن ملك مصر في زمن يوسف، أن مصرايم والعمالقة هم من سلالة سام: (ثم إن الملك وهو الريان بن الوليد بن الهروان بن إراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح) [ج ١ - ص ١١٠].

وهذا التخبط يعني أن السلالات كلها مجرد خرافات، أصلها السلالات التوراتية التي تم تعديلها، وتبناها المؤرخون عن القصاصين والنسابين على أنها حقائق!

ثم يتحدث ابن الأثير عن توزع بقية أولاد حام، وتهمنا هنا سلالة كنعان، فهو يكرر أن الشام كانت لكنعان ثم انتقلت إلى بني إسرائيل - استناداً للتوراة - **ومن ثم إلى الروم فالعرب:**

(وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبشة والزنج، ويقال إن مصرايم ولد القبط والبربر. وأما فوط فقيل إنه سار إلى الهند والسند

فنزلها وأهلها من ولده. وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها وصار الشام لبني إسرائيل، ثم وثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام إلى العراق إلا قليلاً منهم، ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام) [ج ١ - ص ٦٣].

وهكذا يختزل تاريخ البشرية الوجودي والحضاري إلى مجرد أسماء تحت عباءة التوراة الخرافية التي ثبتها أولئك في كتبهم، فصارت تراثاً عربياً إسلامياً!!

هجرة إبراهيم:

يتحدث ابن الأثير عن هجرة إبراهيم من العراق إلى مصر مباشرة: (ثم إن إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجراً حتى قدم مصر) [ج ١ - ص ٧٧].

ثم يتابع عن مجيئه إلى فلسطين مع زوجته معللاً: (فكان إبراهيم قد خرج بها إلى الشام من مصر خوفاً من فرعون، فنزل السبع من أرض فلسطين. ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع مسيرة يوم وليلة) [ج ١ - ص ٧٩].

ولا ينسى الحديث عن تعرب إسماعيل: (حتى شب إسماعيل وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فتعلم العربية منهم هو وأولاده، فهم العرب المتعربة) [ج ١ - ص ٨٠].

ويذكر وفاة سارة ودفنها في فلسطين (بقرية الجبابرة من أرض كنعان)، وتزوج إبراهيم من الكنعانيين: (فلما ماتت سارة تزوج بعدها قطورا ابنة يقطن امرأة من الكنعانيين) [ج ١ - ص ٩٤].

من زمن موسى وحتى السبي:

وإذا ما انتقلنا إلى زمن موسى، نجد أنه سار إلى فلسطين كما تقول التوراة: (أوحى الله إليه يأمره بالمسير ببني إسرائيل وأن يحمل معه تابوت يوسف بن يعقوب ويدفنه بالأرض المقدسة) [ج ١ - ص ١٤٣].

ويجعل مجيء موسى إلى فلسطين أمراً إلهياً: (ثم إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل إلى أريحاء بلد الجبارين وهي أرض ببيت المقدس) [ج ١ - ص ١٤٩].

ويكرر حكاية الجبارين وعلى رأسهم العملاق عوج بن عناق الخرافية!

ويروي عدة روايات عمن دخل أريحا، من بينها خبر دخول يوشع أريحا بعد حصارها وسقوط السور بالصيحة، ثم سيطرته على الشام وهو مختصر للرواية التوراتية، **ونقلاً عما أورده الطبري:**

(وقيل بل حصرها ستة أشهر فلما كان السابع تقدموا إلى المدينة وصاحوا صيحة واحدة فسقط السور، فدخلوها وهزموا الجبارين وقتلوا فيهم فأكثروا. ثم اجتمع جماعة من ملوك الشام وقصدوا يوشع فقاتلهم وهزمهم وهرب الملوك إلى غار فأمر بهم يوشع بن نون فقتلوا وصلبوا، ثم ملك الشام جميعه فصار لبني إسرائيل).

ومن تبقى من الجبارين ساروا إلى شمال إفريقية ليكونوا هم البربر: (وأما من بقي من الجبارين فإن إفريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان مر بهم متوجهاً إلى إفريقية، فاحتملهم من سواحل الشام فقدم بهم إفريقية فافتتحها وقتل ملكها جرجير وأسكنهم إياها فهم البرابرة) [ج ١ - ص ١٥٥].

فالجبابرة مات معظمهم على يد الإسرائيليين، ومن تبقى منهم انتهى به المطاف ليصير شعباً آخر اسمه البربر! كما أن بلاد الشام صارت كلها

للإسرائيليين! ورغم إفناء الكنعانيين وتهجير من بقي حياًّ، يعود ابن الأثير ليذكر فيما بعد الكنعانيين والفلسطينيين وقتالهم ضد الإسرائيليين، ولا سيما زمن جالوت الذي قتله داود بالحجارة كما في أسطورة الملوك التوراتية [ج ١ – ص ١٦٦ ، ١٦٧]!

وينتقد خرافات نسبت إلى بلقيس فيستنكرها ويقول بعد ذكرها معلقاً: (وقد تواطؤا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال واستهانوا بما يلحقهم من استجهال العقلاء لهم) [ج ١ - ص ١٧٨].

لماذا نقرأ أحياناً عند مؤرخينا ما يشعرنا بوجود عقل ناقد، ولكنه يضيع فيما بعد في بحر من الأكاذيب والخرافات. فابن الأثير على الرغم من استنكاره ذاك، يتقبل خرافات لا حصر لها!

هذه مشكلة التراث التاريخي والمؤرخين: تناقض، ازدواجية، انفصال، انفصام.. فهم لا ينتبهون إلى قضية تغييب شعب كامل وحضارات العرب في بلاد الشام كلها ومصر والعراق لصالح توراة سقيمة مليئة بالخرافات ألفها عزرا لغاية استعمارية في نفسه. بل يقومون بسرد خرافات لا حصر لها، وفجأة يقفون عند خبر فيه شيء ما ولكنه لا يصل إلى مستوى خرافات قبلوا بها، فيسقطون غضبهم عليه وكأنهم علماء موضوعيون وعقلانيون!

ولنتابع مع مؤرخنا الذي ينقل عن غيره خبر بختنصر والسبي، فهو لا يأتي على ذكر كنعان مطلقاً، وكأنه لا وجود له ولا لسكان الشام من العرب وهو ما صنعه معظم المؤرخين القدماء!

(ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس فوطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس، وأمر جنوده فحملوا التراب وألقوه فيه حتى ملأوه، ثم انصرف راجعاً إلى بابل، وأخذ معه سبايا بني إسرائيل، وأمرهم فجمعوا من كان في بيت المقدس كلهم فاجتمعوا واختار منهم مائة ألف صبي فقسمهم على الملوك والقواد الذين كانوا معه. وكان من أولئك

الغلمان دانيال النبي وحنانيا وعزاريا وميشائيل. وقسم بني إسرائيل ثلاث فرق فقتل ثلثاً وأقر بالشام ثلثاً وسبى ثلثاً) [ج ١ - ص ٢٠٢].

ثم يتحدث فيما بعد عن مجيء الإسرائيليين من بابل إلى بيت المقدس، وحكاية عزير - عزرا - وكتابته للتوراة المفقودة، ثم بقائهم حتى انتهائهم على يد الرومان:

(ولم يزل بنو إسرائيل ببيت المقدس وعادوا وكثروا، حتى غلبت عليهم الروم زمن ملوك الطوائف فلم يكن لهم بعد ذلك جماعة) [ج ١ - ص ٢٠٦].

وعندما ينتقل إلى زمن المسيحية يتحدث عن قسطنطين بأنه هو من طرد بقايا بني إسرائيل من فلسطين: (وكان الذي أنشأها قسطنطين الملك وهو أول من تنصر من ملوك الروم وأجلى من بقي من بني إسرائيل عن فلسطين والشام، لقتلهم عيسى بزعمهم) [ج ١ - ص ٢٢٦].

وهو يورد أيضاً رواية السدي التي تذكر سبي بختنصر لبني إسرائيل عقب قتل يحيى بن زكريا [ج ١ - ص ٢٣١]، **إلا أنه يرفض هذه الرواية:** (وهذا القول وما لم نذكره من الروايات من أن بختنصر هو الذي خرب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا باطل عند أهل السير والتاريخ وأهل العلم بأمور الماضين، وذلك أنهم أجمعون مجمعون على أن بختنصر غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم أشعيا في عهد أرميا بن حلقيا، وبين عهد أرميا وقتل يحيى أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة عند اليهود والنصارى، ويذكرون أن ذلك في كتبهم وأسفارهم مبين. وتوافقهم المجوس في مدة غزو بختنصر بني إسرائيل إلى موت الإسكندر وتخالفهم في مدة ما بين موت الإسكندر ومولد يحيى فيزعمون أن مدة ذلك كانت إحدى وخمسين سنة) [ج ١ - ص ٢٣٢].

وهذه المدة الإحدى والخمسون سنة بين موت الإسكندر ومولد يحيى بحسب رأي المجوس الذين ذكرهم، تنسحب على ولادة المسيح، فابن الأثير يذكر رواية المجوس – كما يسميها – عن مولد المسيح **فيقول:** (قالت المجوس: كان ذلك بعد خمس وستين من سنة غَلَبَةِ الإِسكندر على أرض بابل) [ج ١ - ص ٢٣٦].

وابن الأثير الذي رفض تلك الرواية من الناحية الزمنية، يعود ليقبل رواية ابن إسحق الذي يجعل نبوزاذان (نبوزرادان) في زمن المسيح!

(وأما ابن إسحاق فإنه قال الحق أن بني إسرائيل عمروا بيت المقدس بعد مرجعهم من بابل وكثروا ثم عادوا يحدثون الأحداث ويعود الله سبحانه وتعالى عليهم ويبعث فيهم الرسل؛ ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث الله فيهم زكريا وابنه يحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام، فقتلوا يحيى وزكريا فابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له جودرس فسار إليهم حتى دخل عليهم الشام فلما دخل بيت المقدس قال لقائد عظيم من عسكره اسمه نبوزاذان وهو صاحب الفيل: إني كنت قد حلفت لئن أنا ظفرت ببني إسرائيل لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلا أن لا أجد من أقتله وأمره أن يدخل المدينة ويقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم. فدخل نبوزاذان المدينة فأقام في المدينة التي يقربون فيها قربانهم..)..

ويتابع سرد الحكاية إلى أن يقول معلقاً: (وكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده ثم رد الله سبحانه لهم الكرة، ثم كانت الوقعة الأخيرة جودرس وجنوده وكانت أعظم الوقعتين فيها كان خراب بلادهم وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم) [ج ١ - ص ٢٣٣ ، ٢٣٤].

ونبوزاذان هو في أسفار العهد القديم نبوزرادان، وهذا يعني رفض الرواية زمنياً، وقبول رواية أخرى في الزمن نفسه تجعل السبي عقب مقتل يحيى بن زكريا وهو يعود إلى أكثر من خمسة قرون، وهذا يختلف عما يتحدث عنه المؤرخون المؤمنون بصحة الأسفار!

وقد جاء في سفر إرميا [٥٢/ ١٢ ـ ١٦]: (قدم نبوزراداان رئيس الشرط الواقف أمام ملك بابل إلى أورشليم. وأحرق بيت الرب وبيت الملك وجميع بيوت أورشليم وكل بيت للعظماء أحرقه بالنار. وهدم جميع جيش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط، كل أسوار أورشليم مما حولها. وبعضاً من مساكين الأرض وسائر الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربين الذين هربوا إلى ملك بابل وسائر الجماعة أجلاهم نبوزراداان رئيس الشرط. وترك رئيس الشرط من مساكين الأرض كرامين وفلاحين)... ومن ثم: (جلي يهوذا من أرضهم). [ملوك ٢ ـ ٢٥/ ٢١]. ومن بقي منهم هرب إلى مصر.

إننا نؤمن يقيناً لا شك فيه أن الروايات كلها كاذبة ومختلقة، فالزمن ضائع في ميوعة تناوله، والمكان الذي جعلوه في فلسطين لا أساس له من الصحة. ومشكلتنا مع المؤرخ العربي المسلم المدون للمعلومات من الرواة والقصاصين الكذبة، أنه ثبت تلك المعلومات في التراث الإسلامي، دون بحث ودراسة وتقص للحقائق!!

ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء

"البداية والنهاية"

ابن كثير في تأريخه القديم، يدعي بأنه لن يأخذ من الإسرائيليات إلا بالحدود التي سمح بها الشرع: (ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه)... (وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات وذكر الأمم الماضين وكيف فعل بأوليائه وماذا

أحل بأعدائه وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه صلوات الله وسلامه عليه من ذلك تلو الآيات الواردات في ذلك، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه. وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا وما خالفه فوقع فيه الإنكار) [ج١ – ص٦].

ضمن ذاك المنهج، كتب ابن كثير تاريخ الكون والبشرية منذ التكوين والخليقة وحتى عصره.. وهذا يعني السرد الروائي المستند إلى الدين، وبمعنى آخر هو تاريخ ديني. وقضية انتقائيته لا معنى لها لأنها مزاجية ولا تخضع لمنهج، فقد أورد خرافات كثيرة تناقض منهجه، في الوقت الذي يقف فيه بصلابة تجاه أمور عادية لا قيمة لها؛ **كنقده لما قيل عن الحياة في سفينة نوح خلال فترة الطوفان:**

(وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها، واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة، فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها والله أعلم) [ج١ – ص ١١٧].

لقد سمح لنفسه بالأخذ عن أهل الكتاب مما "لا يصدق ولا يكذب" مع ادعاء التحفظ، وكذلك "مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه"، بل قال إنه لن يحذو حذو المؤرخين في الأخذ إلا باختصار ومع التعليق عليه سلباً أو إيجاباً!

ذاك الكلام الفضفاض مفتوح على كل الاحتمالات حيث يمكن أخذ كل شيء دون أي تحفظ، وبالتالي تبرر الذريعة المناسبة!

وقد اعترف في أكثر من موقع بالانفتاح التام؛ نذكر من ذلك ما ذكره في قصة موسى: (وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم) [ج١ – ص ٢٣٧]!

ذاك الانفتاح ينسف بكل يسر ما ادعاه في منهجه؛ وكأمثلة نذكر نقله لإحدى روايات الطبري عن دفن آدم في بيت المقدس: (واختلفوا في موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة، ويقال إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جرير وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس) [ج١ – ص ٩٨].

كما ذكر خرافة الحمار وإبليس في السفينة: (وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار).. [ج١ – ص ١١١].

وخرافة خلق الخنزير والسنور: (فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله Y إلى نوح ÷ أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة. فأقبلا على الروث. ولما وقع الفار بخرز السفينة بقرضه، أوحى الله Y إلى نوح ÷ أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفار) [ج١ – ص ١١٦]!

(ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها) [ج١ – ص ١١١].

هل يصدق أحد تلك الروايات المضحكة؟ فلماذا رواها، وما الفائدة المتوخاة من ذكرها؟!

لقد ربط بين المفسرين وعلماء التاريخ، بمعنى أنه وحد بين الدين والتاريخ، فما ذكره في تاريخه نجده في قصص الأنبياء بل ونجده في تفسيره للقرآن.

وهذا التوحد وإن أبعده عن التاريخ الحقيقي، لكنه لا يعني السماح له بالدخول إلى عالم الأساطير والخرافات من الأبواب الواسعة!

ويبقى نقده جزئياً وهامشياً ولكنه يحمل طابعاً متشنجاً لا مبرر له. فهو مثلاً يصر بصلابة على عمومية الطوفان وهو ما يوافق الرواية التوراتية، ويرفض بعنف أن يكون الطوفان في بابل فقط، **بل ويكفر القائلين به:**

(وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجعل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات، وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم) [ج١ – ص ١١٨]!!

خرافة السلالات البشرية:

روى ابن كثير أن كنعان ابن رابع لنوح، وأغرقه في الطوفان:

(وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم: حام وسام ويافث ويام، وتسميه أهل الكتاب كعنان، وهو الذي قد غرق وعابر) [ج١ – ص ١١٢].

فيام هو كنعان وكما ذكر ابن الأثير، وهو الولد الرابع لنوح!

وكنعان ذاك الذي غرق في الطوفان كان كافراً وغير صالح:

(وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث، وقيل اسمه كنعان، وكان كافراً عمل عملاً غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك) [ج١ – ص ١١٣].

وروى أيضاً أن نوحاً ولد ساماً وحاماً ويافث بعد الطوفان، بينما كنعان غرق، أما عابر فقد مات قبل الطوفان: (وقد قيل إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق، وعابر مات قبل الطوفان) [ج١ – ص ١١٥]. ولكنه يرجح ولادة الثلاثة قبل الطوفان..

وكغيره يستنسخ كنعان آخر، ليكون محط اللعنة التوراتية التي صنعها عزرا: (وقد ذكر أن حاماً واقع امرأته في السفينة، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان. وقيل بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته) [ج١ – ص ١١٦].

لقد جعل كنعان كافراً وأغرقه في الطوفان، ثم استنسخه أسود اللون عبداً وابناً لحام؛ حيث أخذت اللعنة مفعولها الفوري!

ألا تستحق هذه القضية أن يقف عندها ابن كثير المتشدد، ويسأل نفسه عن حقيقة تلك اللعنة، والعقاب العنصري اللاحق بالسلالة لوناً وعبودية أبديين؟!

هجرة إبراهيم وعصر الآباء:

يتحدث عن مجيء إبراهيم من حران إلى أرض كنعان بلاد بيت المقدس: (قالوا وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس) [ج١ – ص ١٤٠].

وتنقلُ إبراهيمَ انتهى إلى استقراره في فلسطين: (.. إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية، واستقراره في الأرض المقدسة) [ج١ – ص ١٤٩].

وينقل عن اليهود متبنياً رأيهم في منح إبراهيم وسلالته فلسطينَ: (وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس) [ج١ – ص ١٥٠]!!

وهو يؤكد منح إبراهيم ونسله الأرض المقدسة إلى يوم القيامة، عندما قدم من مصر إلى فلسطين، **مستنداً إلى النص التوراتي:** (وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض..) [ج١ – ص ١٥٢].

ويربط بين خبر مقام إبراهيم في بلدة برزة القريبة من دمشق بسورية، وبين انتصاره على تلك الجيوش التي اعتدت على لوط، وتغلب إبراهيم عليهم وملاحقتهم حتى دمشق. **فلما عاد استقبله ملوك بلاد بيت المقدس مرحبين به:** (ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده) [ج١ – ص ١٥٣]!

إن استخدام تعبير (ببلاده) عند ابن كثير وغيره من المؤرخين، خاطئ، فتلك بلاد الكنعانيين الفلسطينيين كما تقول التوراة، ولم يكن إبراهيم سوى ضيف. هذا إن تجاوزنا أن القضية كلها غير صحيحة!

وتلك الفقرة التي قرأها ابن كثير في التوراة عن استقبال ملوك كنعان لإبراهيم، ألم يقرأ معها عن موقف ملكي صادق الموحد وهو الذي رحب بإبراهيم وشكره كما تقول التوراة؟

نعم قرأها، ولكنه لم يلتفت إليها، بل أصر على أن البشرية كلها كانت كافرة، إلا إبراهيم ومن معه: (وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام) [ج ١ - ص ١٤٠]!

فالتوراة تقول عن ملكي صادق إنه مؤمن، بينما يصر ابن كثير على أنه كافر!!

ويتابع حديثه عن إبعاد إسماعيل إلى مكة، ونلاحظ عنده وعند غيره تفسير جبال فاران بجبال مكة أو أرضها كما ورد في عنوانه: (ذكر مهاجرة إبراهيم بابنة إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة) [ج١ - ص ١٥٤].

وكذلك زواج إسماعيل من قبيلة جرهم ونسله من العرب المستعربة، وهو أبو العرب الحجازيين!

كما يتحدث عن إسحق وأنه خلف ولدين توءمين وأن بني إسرائيل ينتسبون إلى يعقوب: (أولهما سموه عيصو وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم، والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب؛ وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل) [ج١ – ص ١٩٤].

ويتابع ابن كثير سرده على درب الطبري وابن عساكر في تاريخه الكبير، ومقتفياً التوراة خطوة إثر خطوة، ولم يخرج عن دائرة الإسرائيليات، بخرافاتها وأخبارها التي لا قيمة لها!

زمن موسى ويوشع:

لا يأتي بجديد، إلا أنه يكرر قضية الأرض الممنوحة للإسرائيليين: (والمقصود أن موسى ÷ لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى ÷بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم

إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل أو موسى الكليم الجليل. فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون) [ج١ – ص ٢٧٧].

وهو يرفض ما تداوله غيره حول خرافة العمالقة وضخامتهم، فهو بعد أن يذكر عوج: (عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع. هكذا ذكره البغوي وغيره..).

يعلق عليها: (وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها) [ج١ – ص ٢٧٨].

ويذكر أن واضعها: (يروى هذا عن عوف البكالي ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل. فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها) [ج١ – ص ٢٧٨].

وليت ابن كثير التزم بما قاله، فترك ما يشك بأمره، وما لا يستطيع أن يميز صحته من باطله! ونتابع معه وهو يروي أن الله غفر لبني إسرائيل عبادة العجل بشرط الدخول إلى الأرض المقدسة! (فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة) [ج١ – ص ٢٨٨].

ولا تفوته خرافة إسقاط أسوار أريحا بالأبواق كما وردت في التوراة: (فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام. فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ

سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء. وحاربوا ملوكاً كثيرة ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد) [ج١ – ص ٣٢٣].

ويتابع انتصارات يوشع وإفناء شعب كنعان، مغيباً أن الغزاة لم يتمكنوا من فرض سيادتهم على فلسطين، فهو نفسه يذكر فيما بعد تغلب العمالقة على بني إسرائيل، في زمن القضاة وقبيل مجيء صموئيل (والذي يسميه ابن كثير "أشمويل" ويفسر معناه: "بالعبرانية إسماعيل أي سمع الله دعائي"):

(حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً..) [ج ٢ – ص ٥].

فكيف يقوم العمالقة بالقتل والسبي إن كانوا قد انقرضوا؟! أليس العمالقة نسل عمليق وهم الكنعانيون الجبابرة كما ذكروا تارة، والفلسطينيون كما ذكروا تارة أخرى، ألا يعني أنهما تسميتان لمسمى واحد!؟

مقلاع داود:

إن مقلاع داود الخرافي استهوى جميع المؤرخين وابن كثير يروي عنه كغيره، وهنا الحجر نادى داود ليأخذه معه، لأن مقتل عدوه جالوت به: (وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهو المقلاع رمياً عظيماً، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذني فإن بي تقتل جالوت. فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة في مخلاته. فلما تواجه الصفان

برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود، فقال له ارجع فإني أكره قتلك فقال لكني أحب قتلك، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً) [ج ٢ – ص ٨ ، ٩].

إن ما ترويه الأسفار من خرافات سواء طريقة سقوط جدار أريحا أو قتل جالوت بالمقلاع يصير عند المؤرخين القدماء حقيقة تاريخية. ويستفرد بعضهم بالمزايدات على الأسفار كما عند ابن كثير وحجارته الثلاثة وغيرها!!

ويعدّ ابن كثير داود خليفة الله على بيت المقدس: (عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس) [ج ٢ – ص ٩]!

السبي:

ونطوي صفحة داود وسليمان والمملكة المزعومة وانشقاقها، لأنه لن نجد جديداً عنده عما ذكره غيره، إلى أن نصل إلى مجيء نبوخذ نصر (بختنصر)، **فهو يتحدث عما فعله ببني إسرائيل:**

(فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمني والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس، وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات. وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة).. (ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم. فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها وساق السبايا، فبلغ معه عدد صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام. وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير..) [ج ٢ – ص ٣٨].

وهو هنا كغيره يصور فلسطين وكأن بني إسرائيل مالكوها مسقطاً شعب فلسطين من الوجود، بل وشعب بلاد الشام كلها. والصراعات على أرض فلسطين وبلاد الشام كلها تصير صراعات بني إسرائيل ضد الغزاة من آشورين وبابليين وفرس ويونانيين ورومان.. كنسخة متطابقة تماماً عن أسفار العهد القديم!

ويتابع ابن كثير عن امتداد غزو بختنصر: (قال ابن الكلبي ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد؛ فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادي القرى، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر. فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم. ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية. قال ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن) [ج ٢ – ص ٣٩ ، ٤٠].

وهو يرفض رواية العطاء وحسن البصري التي تذكر أن بختنصر في عهد يحيى بن زكريا، لكنه يرويها بسند آخر عن ابن عساكر، وقد جرت أحداثها في دمشق وليس ببيت المقدس. والطابع الخرافي واضح فيها، **وهي تختلف عما روته الأدبيات المسيحية:**

(وقد روى الحافظ ابن عساكر في المستقصي في فضائل الأقصى من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال: كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هداد، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه.. تحت أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة. قال وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً ثم أنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك. فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم

يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها. وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك. ووقعوا في الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً. قال سعيد بن عبد العزيز وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبى منهم ثم رجع عنهم) [ج ٢ – ص ٥٥].

ولن نتابع أكثر مع ابن كثير، فما ذكر يعطي صورة واضحة؛ فهو والآخرون بكتاباتهم عن التاريخ القديم لم يكونوا مؤرخين!

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي "توفي ٢٨٤ هـ"

"تاريخ اليعقوبي"

اليعقوبي أول من ألف كتاباً في التاريخ العام. وقد سار بتأريخه للقديم في ركاب التوراة. وهو يروي الأحداث التي يختارها دون الاهتمام بالسند. وقد يذكر أكثر من خبر إن لم يستطع أن يحسم اختياره، كما في خبر دفن آدم أهو في الحجاز أم ببيت المقدس حيث أورد الخبرين. وقد يورد أخباراً غريبة دون إشارة إلى مصدرها.

خرافة السلالات البشرية:

لعل اليعقوبي أكثر المؤرخين حماسة للتوراة، فهو عندما يذكر حكاية عورة نوح، يذكر أن نوحاً دعا على كنعان مباشرة وهو مطابق لما ورد في

سفر التكوين (الإصحاح ٩ ـ الآية ٢٥): [مَلْعُونٌ كَنْعَانُ. عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ].

(وإن نوحاً يوماً لنائم إذ انكشف ثوبه فرأى حام ابنه سوءته فضحك وخبر أخويه ساماً ويافثاً، فأخذا ثوباً حتى أتياه به ووجوههما مصروفة عنه فألقيا الثوب عليه. فلما انتبه نوح من نومه وعلم الخبر دعا على كنعان بن حام، ولم يدع على حام، فمن ولده القبط والحبشة والهند) [ج ١ – ص ١٥].

التقط اليعقوبي أن الدعاء على كنعان وليس على حام، ولكنه لم يتساءل: لماذا لم يدع نوح على حام نفسه؟! وعلى أية حال لم يقف الأمر عند هذه القضية؛ فما جاء بعدها أقسى!

يدخل اليعقوبي خرافة السلالات التوراتية كغيره: (وجعل لحام أرض المغرب والسواحل فولد كوش بن حام وكنعان بن حام النوبة والزنج والحبشة)!

وقد تبنى وجهة نظر عزرا الحاقدة على كنعان، فزايد على عزرا وحمّل كنعان المزيد من الجرائم، فهو امتداد لشر سلالة قابيل، يقول:

(وكان كنعان أول من رجع من ولد نوح إلى عمل بني قابيل، فعمل الملاهي والغناء والمزامير والطبول والبرابط والصنوج، وأطاع الشيطان في اللعب والباطل)!! (وكثرت الجبابرة والعتاة منهم وأفسد ولد كنعان بن حام وأظهروا المعاصي) [ج ١ – ص ١٨].

(ثم قام عابر بن شالح ـ بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ يدعو قومه إلى طاعة الله تعالى ويحذر بني سام بن نوح أن يختلطوا بولد كنعان بن حام المغير دين آبائه والمرتكب للمعاصي) [ج ١ – ص ١٩].

فكنعان مجرم ربيب الكفر والفسوق والشر والباطل وهو تلميذ مطيع للشيطان. وعابر يطلب من سلالته السامية الابتعاد عن سلالة كنعان حتى لا تفسدهم وتلوثهم!!

❀ هجرة إبراهيم ودفن يعقوب:

يذكر اليعقوبي أن إبراهيم خرج من العراق إلى فلسطين مباشرة: (وأمر الله عز وجل إبراهيم أن يخرج من بلاد نمرود إلى الشأم الأرض المقدسة، فخرج إبراهيم وامرأته سارة بنت خاران بن ناحور عمه ولوط ابن خاران مهاجرين، حيث أمرهم الله فنزلوا أرض فلسطين) [ج ١ – ص ٢٤].

ولا ندري عن الخبر هنا؛ أهو اختصار ترك فيه تفاصيل رحلة إبراهيم، أم هو معلومة كاملة لا زيادة عليها!

وقضية الاختصار عنده فيها إشكالية؛ فهو يتحدث أحياناً عن نقاط هامشية لا قيمة لها ولكنه يغوص في تفصيلاتها المملة مثل حديثه عن سلالة يعقوب، أو إحصاء موسى لجماعته [ج ١ – ص ٣٨]، كما نجده يسترسل عند الحديث عن عبادة بني إسرائيل أو الحديث عن الأقاليم أو كليلة ودمنة أو أبقراط وعلماء اليونان وفلاسفتها... فهل ما ورد اختصاراً هو في الحقيقة اختصار، أو هو ما يريد تثبيته كمعلومات تامة لا زيادة عليها!

ونطوي المحطات لنصل إلى دفن يعقوب في فلسطين: (ولما توفي يعقوب قاموا يبكون عليه سبعين يوماً، ثم حمله يوسف وأخرج معه غلماناً من أهل مصر وسار به إلى أرض فلسطين، فدفنه إلى جنب قبر إبراهيم وإسحاق) [ج ١ – ص ٣٢].

❀ زمن موسى ويوشع:

يذكر أن موسى انطلق من مدين قاصداً الأرض المقدسة مباشرة: (فلما قضى موسى الأجل سار بامرأته يريد بيت المقدس) [ج ١ – ص ٣٤].

ولكن تأتي قصة الطور والطلب منه أن يتوجه إلى مصر لهداية فرعون. ثم يتابع الحديث عن خروج موسى مع بني إسرائيل من مصر،

ويورد خبراً غريباً بأن جماعة موسى كانوا يستعجلونه الدخول إلى الأرض المقدسة، فعاقبهم الله بالتيه!

(وجعل بنو إسرائيل يستعجلونه ليدخل إلى الأرض المقدسة، فأوحى الله إلى موسى أنها محرمة عليهم أربعين سنة، فأقاموا في التيه) [ج ١ – ص ٣٦].

والخبر ذاك يقلب الحكاية رأساً على عقب، فالتيه عقوبة نتيجة رفض الإسرائيليين قتال الجبابرة كما يذكر القرآن نفسه. كما أن ابن الجوزي في إحدى رواياته جعل التيه نتيجة لعنة بلعام!

وقبيل وفاة موسى يوصي يوشع بالدخول إلى فلسطين التي ورثهم إياها الله: (ودعا موسى يوشع بن نون وقال له بين يدي بني إسرائيل سر، وشد قلبك فإنك تدخل ببني إسرائيل إلى أرض بني كنعان التي ورثهم الله) [ج ١ – ص ٤١].

ومن جملة وصايا موسى لجماعته، وهو من وحي التوراة: (فأنا ميت بهذه الأرض ولست أعبر الأردن ولكنكم ستعبرون وتصيرون إلى الأرض الصالحة التي جعلها الله لكم ميراثاً).. (وإن الله سيدخلكم الأرض الصالحة ويجعلها ميراثاً لكم).. (إن الله سيعطيكم قرى عظاماً لم تبنوها وبيوتاً مملوءة من الخير لم تملأوها وآباراً مطوية لم تحفروها وكروماً وزيتوناً لم تغرسوها) [ج ١ – ص ٤٢].

(إن الله يقول لكم سأعطيكم البلاد الصالحة وأقدركم على الأمم التي بين أيديكم وأظفركم بالجبارين والجرشيين والأموريين والكنعانيين والفرازيين والحوبيين والنابلسيين هؤلاء السبع الأمم الذين هم أكثر منكم وأشد، فإذا ظفركم الله بهم فاضربوهم وارجموهم ولا ترحموهم ولا تعطوهم ميثاقاً ولا تنكحوهم بناتكم لكيلا يكونوا لكم عثرة فيزيغون أولادكم عني فيعبدون إلهاً غيري فيشتد عليكم غضبي فأبيدكم عاجلاً) [ج ١ – ص ٤٣].

وتلك المقاطع التي يستشهد بها تدل على حماسته وتضامنه مع بني إسرائيل الغزاة المعتدين، ضارباً عرض الحائط بالشعب الكنعاني!

واليعقوبي يجعل موسى قبيل وفاته ينظر إلى الشام كلها وليس فقط باتجاه فلسطين كما تقول التوراة: (ثم صعد موسى إلى جبل نابون فنظر إلى الشام، وقال الله له: هذه الأرض التي ضمنت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن أعطيها خلفهم وقد أريتكها بعينك ولكنك لن تدخلها) [ج ١ – ص ٤٥ ، ٤٦].

فاليعقوبي يؤكد الهبة الممتدة عبر الشام كلها لبني إسرائيل! ويذكرأن السميدع وهو من سلالة عمليق يغزو الشام **فيتصدى له يوشع:**

(وسار إلى الشأم، وفيها الجبابرة، ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح. وكان أول من ملك منهم السميدع بن هوبر، فسار من أرض تهامة إلى الشام يريد غزو بني إسرائيل، فوجه إليه يوشع بن نون من قتله، ثم قام بعده من بني أبيه جماعة فقتلهم يوشع) [ج ١ – ص ٤٦].

ثم يورد خرافة العرافة في البلقاء التي تكشف عن المستقبل والغيب! فتعرف من سيموت من جماعتها في القتال فتحذرهم، فلا يخرج للقتال الذي تراه سيموت في المعركة! فجاء تأخير غروب الشمس ليوشع، لتضليل حساباتها الفلكية وكشف الغيب. وتم ذلك وفقدت القدرة على قراءة الغيب مما أدى إلى انتصار يوشع في النهاية!

(وسار يوشع حتى انتهى إلى البلقاء، فلقي رجلاً يقال له بالق وبه سميت البلقاء. فجعلوا يخرجون يقاتلونه، فلا يقتل منهم رجلاً واحداً. فسأل عن ذلك فقيل له إن في مدينته امرأة منجمة تستقبل الشمس بفرجها، ثم تحسب فإذا فرغت عرضت عليها الحيل فلا يخرج يومئذ من حضر أجله. فصلى يوشع ركعتين ثم دعا أن يؤخر الله الشمس ساعة فأخرت له ساعة. فاختلط عليها حسابها فقالت لبالق انظر ما كانوا يسألونك فأعطهم، فإن حسابي قد اختلط علي. قال تصفحي آلتك وأخرجي منها فإنه لا يكون صلح

إلا بقتال. فتصفحت الحيل على غير علم منها لاختلاط الأمر عليها، فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم، فسألوا يوشع الصلح فأبى عليهم حتى يدفعوا إليه المرأة. فقال بالق لا أدفعها، فقالت ادفعني إليه فدفعها إليه وصالح، فقالت له هل تجد فيما انزل على صاحبك قتل النساء، قال لا، قالت فإني قد دخلت في دينك، قال فاسكني في مدينة أخرى فأنزلها مدينة أخرى) [ج ١ – ص ٤٦، ٤٧].

المملكة المزعومة وحتى السبي:

يذكر وصية صموئيل لشاول وهي مقتبسة من التوراة: (فدعا شمويل شاول وهو طالوت فقال له إن الرب أمرني أن أبعثك ملكاً على بني إسرائيل والله يأمرك أن تنتقم من عمليق؛ فأهلك عمليق وكل ما له ولا تبق له شيئاً من رجل ولا امرأة ولا صبي رضيع ولا عجل ولا شاة ولا بعير ولا حمار) [ج ١ – ص ٤٩].

لا يحاول اليعقوبي أن يناقش - على الأقل - قضية قتل المرأة والرضيع والعجل والشاة والبعير والحمار، مع أن ذلك يتعارض مع مبادئ القتال الإسلامية!

ولكن على ما يبدو من الصورة العامة بأنه أقرب إلى فكر عزرا التوراتي من مفاهيمه الإسلامية!

ويصف الفلسطينيين بالحنفاء وبأنهم عبدة النجوم، ولا ندري من أين استمد تلك المعلومة: (ثم اجتمع الحنفاء الذين كانوا في وقت شاول فقاتلهم وهم عبدة النجوم، وخرج إليهم شاول في جموعه فخرج منهم رجل طوله خمس أذرع يقال له غلياث وهو جالوت..) [ج ١ – ص ٤٩].

ونشير هنا إلى أنه عندما يتحدث فيما بعد عن أديان اليونان الروم يذكر أن منهم الصابئة ويشرح ذلك بأنهم يسمون الحنفاء وهم يؤمنون بالخالق، فلم لم يسقط تعريفه ذاك على الفلسطينيين؟ أم هم وثنيون، وللحنفية معنيان متناقضان: عبدة النجوم والموحدون!؟

إنـه مطلـع علـى ثقافـة اليونـان والـروم، ويعـرف تمامـاً بـأن معظمهـم وثنيـون إلا طائفـة مـنهم عـدهم حنفـاء، ونتقبـل ذلـك منـه فهنـاك أرسـطو وأفلاطون وغيرهمـا.. وهو قرأ التـوراة ولكن؛ ألـم يقـرأ حكايـة إبـراهيم مـع ملكـي صـادق، فلِمَ لـم يعـد فريقـاً مـن كنعـان موحـداً مثـل فريـق الموحـدين اليونان؟!

ويتابع حكاية داود مع جالوت ثم صراعه مع شاول.. واستلامه الملك بعد موت شاول.

ويتـابع داود مقاتلـة الفلسـطينيين والانتصـار علـيهم.. ثـم يُـدخل تـابوت العهد على مدينة بيت المقدس والتي عدها اليعقوبي "مدينة صـهيون" نفسـها: (وسمع الحنفـاء أن داود قد ملك علـى بنـي إسرائيل واجتمعوا لقتالـه فقـاتلهم داود فقتـل فـيهم قـتلاً كثيـراً حتـى أبـادهم. فلمـا فـرغ مـن قتـالهم حمـل تـابوت السكينة على عجل حتى أدخله مدينة بيت المقدس) [ج ١ – ص ٥١].

ويتابع السرد فيصل إلى سليمان، ومن بعده ابنه يربعام الذي ملك على الأسباط العشرة من جبل فاران. وقد ذكر القدماء أن جبل فـاران مطل علـى مكة، فالإسرائيليون كانوا في نظره ممتدين حتى مكة!

(وملكت الأسباط العشرة عليهم يوربعم - يربعام - بـن نابـاط وكـان قد هرب من سليمان إلى مصر...).. (.. وملـك يـوربعم بـن نابـاط علـى العشـرة الأسباط من جبل فاران...) [ج ١ – ص ٦١].

ثم يذكر بأنه أقام مذبحاً، فهل أقامه في مكـة، كلامـه فيـه غمـوض لكنـه يتضـح مـن السياق أنـه لـم يخـرج مـن دائـرة فلسطين. ومـا ذكـره عـن وجـود يربعام في جبال فاران يعني أنه وصل مكة برأيه!

ويتابع فيذكر خبراً عن أشعيا بأنه قتل في زمن منسّى، فسلط الله عليه قسطنطين الرومي فغزا منسا وأسره!!

(ثم ملك بعد حزقي منشا بن حزقيل فكفرت بنو إسرائيل في أيامه وكفر وعبد الأصنام وكان شر ملك في بني إسرائيل، وبنى للأصنام مسجداً واتخذ صنماً له أربعة أوجه، فنهاه أشعيا فأمر به فنشر بالمنشار من رأسه إلى رجليه، فسلط الله على منشا قسطنطين ملك الروم فحاربه وأسره فأقام في الأسر زماناً، ثم تاب إلى ربه فرده الله إلى ملكه فكسر الصنم وهدم بيوت الأصنام) [ج ١ – ص ٦٤ ، ٦٥].

ولا ندري عن مصدره الذي يستند إليه في معلوماته تلك، فالأسفار تذكر بأنه بعد موت حزقيا استلم ابنه منسَّى وعمره اثنتا عشرة سنة، ثم استلم ابنه آمون ومن بعده ابنه يوشيا الذي في عهده جاء ملك مصر نخو/ نكو لمحاربة ملك أشور عند الفرات، وفي طريقه قتل يوشيا، ومن ثم خضعت مملكة يهوذا للنفوذ المصري وصارت تدفع الجزية لملكها.

يتداخل الزمن عند اليعقوبي بشكل يطوي القرون الطويلة، ومع أنه يعتمد على الأسفار إلا أنه يخلط بين الأسماء والأزمان!

ويتحدث عن بني إسرائيل وهم في الأسر البابلي وعن مجيئهم إلى فلسطين، ولكنه يغيب فلسطين ويصرح بأنها بلد الإسرائيليين!

(ولم يزل بنو إسرائيل في الأسر تحت يد بخت نصر حتى تزوج امرأة منهم يقال لها ملحات زربابل بنت سلتائيل، فسألته أن يرد قومها إلى بلدهم، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بلدهم، ملكوا عليهم زربالبل بن سلتائيل فبنى مدينة بيت المقدس وبنى الهيكل) [ج ١ – ص ٦٥ ، ٦٦]!

إذا كنا نهاجم ديورانت ويلز وغيرهما لأنهم في حديثهم عن تاريخ فلسطين القديم، يستخدمون تعبير "بلاد اليهود" ويغيبون شعب فلسطين، فماذا نقول عن مؤرخينا كاليعقوبي وغيره وقد استخدموا التعبير نفسه "بلاد اليهود"، وغيبوا شعب فلسطين وغيره!

إن اليعقوبي بالنسبة للتاريخ القديم حكواتي وليس مؤرخاً! ولكن تبقى لكتابه قيمة إذ أنه أول مؤلَف عربي مسلم يكتب عن التاريخ العام والحضارة؛ وقد عرض في كتابه بشكل لائق كتباً في الأدب والفلسفة والطب والعلوم.

الفصل العاشر

مطهر بن طاهر المقدسي "توفي ٥٠٧ هـ" أو (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي)

"البدء والتاريخ"

يتحدث المقدسي عن منهجه: (وتتبعت صحاح الأسانيد ومتضمنات التصانيف وجمعت ما وجدت في ذكر مبتدأ الخلق ومنتهاه، ثم ما يتبعه من قصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم والأجيال، وتواريخ الملوك ذوي الأخطار من العرب والعجم، وما روي من أمر الخلفاء من لدن قيام الساعة إلى زماننا هذا، وهو سنة ثلثمائة وخمس وخمسين من هجرة نبينا محمدق) [ج ١ - ص ٦].

وبعد أن يعدد الذين يروي عنهم وهم ابن عباس ومجاهد وابن إسحق والضحاك وكعب ووهب وابن سلام والسدي والكلبي ومقاتل وغيرهم.. **يقول إنه سيأخذ عمن:** (يتحرى هذا العلم وينحو نحوه فلنذكر الأصح من رواياتهم والأقسط للحق) [ج ٢ - ص ٧٧].

✍ **فهل أولئك الذين أعلمنا بأنه سيأخذ عنهم ذكروا الأصح والأقسط!؟**

خرافة السلالات البشرية:

وقع المقدسي كما وقع غيره في فخ السلالات التوراتية، فهو يروي عن ابن إسحق موت كنعان في الطوفان [ج ٣ - ص ١٧]. ولكنه يعود ليستنسخه مع نسل حام كما فعل غيره!

(كوش وفوط وكنعان).. (ولد كنعان السودان ونوبة وفزان والزنج وذغل وزغاوة وبربر).

ويذكر أن الكنعانيين من سلالة حام، ثم يذكر أنهم ساميون ومنهم الكنعانيون: (فمن ولد لاوذ أجناس الفرس كلها وجرجان وطبرستان وطسم وجديس وعملاق وأميم. وأما عملاق فأبو العمالقة تفرقت منهم الجبابرة والعتاة الذين كانوا بأرض الشام يقال لهم الكنعانيون ومنهم فراعنة مصر) [ج ٣ - ص ٢٧]!

ولاوذ وهو ابن سام بن نوح، ولد عملاق، الذي نزل منطقة الحرم ومصر والشام: (نزل عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح أكناف الحرم ومصر والشام) [ج ٣ - ص ٢٨]!

هجرة إبراهيم:

عندما يورد حكاية نمرود مع إبراهيم يروي سلالتين، الأولى يجعل فيها نمرود ابن كنعان مباشرة، **والأخرى من سلالته:** (نمروذ بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح، ويقال نمروذ بن كوش بن سيحاريب بن كنعان بن سام بن نوح والله أعلم) [ج ٣ - ص ٤٦]!

ويهاجر إبراهيم من بابل إلى حران فالشام طبقاً لرواية التوراة: (وأمره – الله - بالهجرة من أرض بابل إلى الشام فراراً بدينه).. (ثم خرجوا من حران إلى أرض فلسطين) [ج ٣ - ص ٥١ ، ٥٢].

ويذهب إلى مصر ثم يأتي إلى فلسطين ويشتري حقل حبرون ويُدفن فيه عندما يموت، ومن ثم يُدفن فيه فيما بعد إسحق فيعقوب.

ويتحدث عن زواج إبراهيم من امرأتين كنعانيتين (ولما ماتت سارة تزوج إبراهيم امرأة من الكنعانيين يقال لها قطورا فولدت به أربعة نفر، وتزوج امرأة أخرى فولدت له سبعة نفر) [ج ٣ - ص ٥٣].

ويجعل قرى لوط قرى فلسطينية: (أرض سدوم وكاروما وعمورا وصبوآيم، أربع قرى من فلسطين) [ج ٣ - ص ٥٧].

ويتابع الحكايات مدعياً حدوثها على أرض فلسطين إلى أن نصل إلى موسى.

موسى ويوشع:

(ولما أهلك الله قوم فرعون أمر موسى بالمسير إلى الشأم، وأن يقاتل الجبارين ويجليهم عنها، فإن تلك الأرض المقدسة ميراث أبيكما إبراهيم) [ج ٣ - ص ٨٧].

ويتابع حديثه عن فتح فلسطين على يد يوشع، فيروي خبراً أنه: (افتتح بلقآء مدينة الجبارين بعد موسى وقتل الجبابرة).. وأنه: (قتل بالق ملك بلقآء والسميدع بن هوبر ملك الكنعانيين) [ج ٣ - ص ٩٦].

مملكة داود المزيفة وحتى السبي:

يتحدث عن داود وجالوت ناسباً جالوت إلى العمالقة: (فقتل داود جالوت رأس العمالقة وهزموهم) [ج ٣ - ص ٩٨].

ويستغرق في الحديث عن مُلك داود.. ويتابع على نمط التوراة والآخرين إلى أن يصل إلى زمن يحيى بن زكريا، فيذكر إحدى الروايات التي تعلل تخريب نبوخذ نصر لبيت المقدس وقتله وسبيه بني إسرائيل، انتقاماً لمقتل يحيى، فقد سلط عليهم: (بخت نصر فقتل على دم يحيى سبعين ألفاً وخرب بيت المقدس) [ج ٣ - ص ١١٨].

لن نسترسل مع المقدسي أكثر، فما ذكر يعطي فكرة عنه وعن تصوره لتاريخ العرب قديماً ولا سيما فلسطين. وهو لم يلتزم بمنهجه الذي ذكره في مقدمته وادعى فيه بأنه سيجعل تاريخه:

(مهذباً من شوائب التزيد، مصفى عن سقاط الغسالات، وخرافات العجائز وتزاوير القصاص، وموضوعات المتهمين من المحدثين) [ج١ - ص ٥، ٦].

عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج

"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"

يوحي اسم الكتاب بأنه مؤلفه سيتكلم عن تاريخ الأمم، ولكن حظ الأمم عنده لا يختلف عن سواه ممن لم يذكر الأمم. وعلى الرغم من ذكره لفلسطين وعده لشعب كنعان من العرب العاربة، إلا أنه بقي أسير التوراة بأنهم كفار وثنيون، وبأن أرض كنعان لبني إسرائيل!

يشرح دوافعه لتأليف الكتاب: (فإني رأيت النفوس تشرئب إلى معرفة بدايات الأشياء وتحب سماع أخبار الأنبياء، وتحن إلى مطالعة سير الملوك والحكماء وترتاح إلى ذكر ما جرى للقدماء. ورأيت المؤرخين يختلف مقادهم في هذه الأنباء؛ فمنهم من يقتصر على ذكر الأنبياء، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء. وأهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء يحبون أحاديث الصلحاء، وأرباب الأرب يميلون إلى أهل الأدب والشعراء، ومعلوم الكل مطلوب والمحذوف من ذلك مرغوب، فآتيتك بهذا الكتاب الجامع لغرض كل سامع يحوي المراد من جميع ذلك) [ج ١ – ص ١١٥].

وهو سيرفض الخرافات والأخبار السخيفة: (فإن خلفاً من المؤرخين ملأوا كتبهم بما يرغب عن ذكره تارة من المبتدآت البعيدة المستهجن ذكرها عند ذوي العقول، كما قد ذكر في مبتدأ وهب بن منبه وغيره من التي تجري مجرى الخرافات، وتارة يذكر حوادث لا معنى لها ولا فائدة..) [ج ١ – ص ١١٦].

وبالتالي يعد كتابه: (مرآة يرى فيها العالم كله، والحوادث بأسرها، إلا أن يكون من وقع له فليس لذلك ذكر أو حادثة لا يغنى تحتها ولا وجه لذكرها. وقد انتقى كتابنا التواريخ كلها، وأغنى من يعنى بالمهم منها عنها وجمع محاسن الأحاديث والأخبار بالتواريخ، وانتخب أحسن الأشعار عند ذكر قائلها وسلم من فضول الحشو ومرذوله ومن لم يدخل فيه ما يصلح حذفه..) [ج ١ – ص ١١٨].

✍ **ما هو مفهوم الخرافة ومفهوم الأحاديث التي لا معنى لها ولا فائدة، وإلى أي مدى سيبحث عن الحقيقة والتدقيق في المعلومة، وهل حقاً كتابه مرآة؟**

تصدمنا أخباره الأولى عن التكوين؛ فهو مثلاً عندما يتحدث عما تحت الأرض يدخل عالم الخرافة من أوسع أبوابها بما يذكره عن كعب وابن عباس ووهب: (قال كعب هذه الأرض على صخرة خضراء في كف ملك، وذلك الملك قائم على ظهر الحوت وذلك منطو بالسموات السبع من تحت الأرض. وقال ابن عباس الصخرة على منكبي ملك والملك على الثور والثور على الماء والماء الريح. وقال وهب اسم الحوت بهموت) [ج ١ – ص ١٧٢]!!

وعندما يتحدث عن السفينة لم يفته ذكر نشأة الخنزير والسنور الخرافية المضحكة!!

(قال قتادة .. وكانت – السفينة - ثلاث طبقات: فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث. فلما وقع الفأر بخرز السفينة أوحى الله إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر..) [ج ١ – ص ٢٤٠].

✍ **فهل بعد ذاك ستكون لفلسطين صورة مغايرة لما قدمه المؤرخون قبله؟!**

إنه لن يخرج من ثوب المؤرخين قبله!

خرافة السلالات البشرية:

ففي حديثه عن دفن آدم يروي ما قيل في ذلك ومن جملته: (ولما ركب نوح حمل معه – آدم - فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس) [ج ١ – ص ٢٢٨]!

كما يروي عن ابن جرير حكاية حام في السفينة: (قال ابن جريج حدثت أن حاماً أصاب امرأته في السفينة فدعا عليه نوح فتغير نطفته بالسودان) [ج ١ – ص ٢٤١]، ويذكر أيضاً رواية التوراة حول رؤية حام لعورة أبيه [ج ١ – ص ٢٤٧].

وفي بابل يكرر خبر سلالة نمرود بن كنعان بن حام! ويكرر ما ذكره السابقون عن أولاد نوح: سام وحام ويافث من خلال سعيد بن المسيب ووهب بن منبه وقتادة.

ويتحدث عن توزع نسل أولاد نوح، وما يهمنا هنا كنعان: (ولحق قوم من بني كنعان بالشام فسميت الشام حيث تشاموا، الشام يقال لها أرض كنعان. وكانت العماليق في بلدان شتى).

وهو يذكر بأنهم وجدوا في مناطق متعددة: عمان والبحرين ومصر ومكة والمدينة والحجاز، إلى أن يقول: (والطائفة التي كانت منهم يقال لها الكنعانيون وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها وهم الجبابرة المعروفون) [ج ١ – ص ٢٥١]. فالكنعانيون الجبابرة وثنيون

هجرة إبراهيم وعصر الآباء:

يذكر أن إبراهيم خرج مع زوجته من حران إلى مصر وعندما خرج من مصر جاء إلى فلسطين: (وخرج بها من حران حتى قدم مصر) [ج ١ – ص ٢٦٣].. (ثم إن إبراهيم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة من السبع) [ج ١ – ص ٢٦٤].

ويذكر زواج إبراهيم بعد وفاة زوجته سارة من كنعانية كما هو وارد عند الآخرين وبأنها من العرب العاربة: (قال ابن إسحاق لما ماتت سارة تزوج بعدها من الكنعانيين من العرب العاربة واسمها بنت يقطان ويقال بنت مقطور) [ج ١ – ص ٢٨٥].

وذكر رواية الضحاك التي تزعم أن إبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل دعوا إلى رسالة التوحيد: (زعم الضحاك بن مزاحم أن إسحاق أول مرسل بعد إبراهيم، قال ولم يمت إبراهيم حتى بعث إلى أرض الشام، وبعث يعقوب بن إسحاق إلى كنعان، وبعث إسماعيل إلى جرهم وبعث إلى سدوم) [ج ١ – ص ٣٠٧].

لكن مزعم الضحاك مختلق، حيث لم يرد في التوراة أي ذكر لأية محاولة من إبراهيم أو أولاده أو نسله عبر يعقوب، لهداية أي شعب للإيمان، كما أن الكثيرين لم يأخذوا بها. وعلى كل هو زعم وقد قالوا قديماً: زعم مطية الكذب!!

موسى وحتى السبي:

يكرر ابن الجوزي ما ذكرته التوراة عن وصول موسى إلى حدود فلسطين (أريحا وهي أرض بيت المقدس) [ج ١ – ص ٣٥١]. ويروي خرافة العماليق وعوج بن عناق كما وردت عند الآخرين..

وخلال حديثه عن بلعام يورد الحكاية التقليدية، ولكنه يورد خبراً غريباً عن سبب التيه يختلف عن الرواية التقليدية؛ فهو يذكر أن التيه نتيجة دعوة بلعام! وهذا يعني اضطرار الله لاستجابة دعوته له رغم تبنيه لموسى وبني إسرائيل، فدعوة بلعام لا ترد، وقد قال مؤرخونا القدماء إن لديه الاسم الأعظم!

(وقد قيل إن بلعام لما دعا على قوم موسى تاهوا) [ج ١ – ص ٣٥٦]!

كما يذكر خبراً عن مقاتلة موسى لليونانيين ولكنه لا يذكر مصدره: (وحارب الكنعانيين وقتل عوج وحارب موسى اليونانيين والأمم الكافرة) [ج ١ – ص ٣٥٦]!

ويتحدث عن يوشع بأنه: (هو الذي قسم الشام بين بني إسرائيل) [ج ١ – ص ٣٧٧].

ويكرر حكايته الخرافية في أريحا ومقاتلة العماليق. ثم يتحدث عن مصير من بقي من الكنعانيين والذي انتهى إلى شمال إفريقية: (وزعم هشام بن محمد الكلبي أن بقية بقيت من الكنعانيين بعد قتل يوشع من قتل منهم وأن إفريقيش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب مر بهم متوجهاً إلى أفريقية فاحتلها ملوكها وأسكنها البقية التي بقيت من الكنعانيين. فهم البرابرة وإنما سموا لأن أفريقيش قال لهم ما أكثر بربرتكم فسموا لذلك بربراً) [ج ١ – ص ٣٧٨].

ورغم إنهائه الوجود الكنعاني إلا أنه يعود كغيره لذكر الفلسطينيين فيما بعد وكأنهم شعب آخر، وتسلطهم على بني إسرائيل في عصر القضاة وداود كما في التوراة، علماً بأن المؤرخين يذكرون أن العماليق في عهد موسى ثم في عهد داود، والذين في عهد موسى سموهم الكنعانيين بينما الذين في عهد داود سموهم الفلسطينيين، ناسين أنهم جعلوا العماليق كلهم من نسل واحد!

وهذا يعني أنه وغيره ينقلون ما تقوله التوراة والرواة، والعهدة على الراوي! ويذكر رواية بختنصر في زمن يحيى ومقتله ولكن يطعن بصحتها.

ونكتفي عند هذا الحد مع ابن الجوزي فكتابه ليس إلا نسخة كربونية عما سبقه خاصة تاريخ الطبري، سوى بعض الأخبار التي لا يذكر ابن الجوزي مصادرها ولعل بعضها من تأليفه. والغريب أن ولعه بمناقشة القضايا وتجزئتها وتفريعها كتلميذ لابن تيمية، لم ينعكس على تأريخه القديم!

الفصل الحادي عشر
ابن عساكر: علي بن الحسن "توفي ٥٧١ هـ"
"تاريخ دمشق"

ابن عساكر يعتمد على من سبقه من الرواة والقصاصين قراءة أو سماعاً، إضافة إلى الموروثات الشعبية. كما يعتمد على النصوص الدينية القرآنية والأحاديث النبوية. وهو أقرب إلى منهج الطبري التجميعي والاهتمام بالسند وتعدد الروايات للخبر الواحد لكن دونما تمحيص. **وقد عد عدم الاهتمام بالسند سمة طبيعية في الشام:** (لأن الغالب على أحاديث أهل الشام أحاديث الفتن والملاحم، أو لأنهم لا يسألون عن الإسناد ويأخذون الأحاديث كما تيسر) [ج ١ - ص ٣٦٣].

وكتابه الموسوعة في الأعلام بلغ ثمانين مجلداً، وقد رتبه بحسب حروف المعجم. مع تخصيص الجزء الأول ومعظم الجزء الثاني حول الشام تاريخاً وفضلاً وأهمية ولا سيما بيت المقدس ودمشق. ولن نجد في عمله الموسوعي ما نصبو إليه من رؤية مختلفة للتاريخ القديم، فهو نسخة إضافية كما سنتبين.

خرافة السلالات البشرية:

قبل الدخول في السلالات، سنذكر ما رواه ابن عساكر عن أصل تسمية كلمة الشام. **فهو بعد أن يشرح معنى الشام لغوياً:** (والشام فيه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشؤمى وهي اليسرى..).. (ويجوز أن يكون فعلى من الشؤم. قال ويقال أنجد أتى نجداً وأعرق دخل العراق وأعمن أتى عمان، وقد أشأم أتى إلى الشام وبصر وكوف وأمن ويامن إذا أتى اليمن).

ينقل عن ابن المقفع تكهنات أخرى: (قال ابن المقفع سميت الشام بسام بن نوح، وسام اسمه بالسريانية شام وبالعبرانية شيم، وقال الكلبي سميت بشامات لها حمر وسود وبيض ولم ينزلها سام قط. وقال غيره سميت

الشام لأنها عن شمال الأرض كما أن اليمن أيمن الأرض فقالوا تشام الذين نزلوا الشام وتيمن الذين نزلوا اليمن، كما تقول أخذت يمنة أي ذات اليمين وشآمة أي ذات الشمال. وقال بعض الرواة إن اسم الشام الأول سورية وكانت أرض بني إسرائيل قسمت على اثني عشر سهماً فصار لكل قسم تسعة أسباط ونصف في مدينة يقال له سامر وهي من أرض فلسطين، فسار إليها متجر العرب في ذلك الدهر ومنها كانت ميرتهم فسموا الشام بسام بن نمر حذفوا فقالوا الشام) [ج ١ - ص ١٠].

✍ **فكيف تكون التسمية نسبة لسام والذي سكنها كنعان وهو من نسل حام؟**

ولنترك بقية الاحتمالات سواء الجهة الجغرافية أو الشؤم فهي أوهام لا أكثر. والماضي السحيق محسوم عند مؤرخينا فالشام كانت للكنعانيين، ثم آلت إلى بني إسرائيل كما يرون بناء على الإسرائيليات: (ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشام فسميت بالشام حيث تشآموا إليها، وكانت الشام يقال لها أرض بني كنعان، ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها فكانت الشام لبني إسرائيل، ووثبت الروم على بني إسرائيل فقتلوهم وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم، وجاءت العرب فغلبوا على الشام) [ج ١ - ص ٨].

ويذكر ابن عساكر أن فالغ هو الذي قسم الأرض بين السلالات: (وكان فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح هو الذي قسم الأرض بين بني نوح) [ج ١ - ص ٨].

ويعنعن خبراً.. قال: (ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فولد سام كل حسن الصورة حسن الشعر، وولد حام كل أسود جعد قطط، وولد يافث كل عظيم الوجه صغير العينين. قال ودعا نوح على حام أن يسود الله زرعه ولا يعدو شعر بنيه آذانهم وحيث ما لقي ولده ولد سام استعبدوهم) [ج ٦٢ – ص ٢٧٨ ، ٢٧٩].

وهو يذكر أيضاً الرواية التي تذكر أن ابن نوح العاصي كنعان رفض أن يركب السفينة مع أبيه وقد غرق في الطوفان: (وغرق كنعان ابنه حين قال "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء"، يقول الله عز وجل "وحال بينهما الموج فكان من المغرقين") [ج ٦٢ ص ٢٥٨]!

ويروي حكاية جديدة لنوح مع حام وهي تختلف عن النص التوراتي وما ورد، لكنه يرفضها، **وهي:** (أن نوحاً اغتسل قال فرأى ابنه ينظر إليه فقال تنظر إلي وأنا أغتسل، حام الله لونك. قال فاسواد. قال فهو أبو السودان) [ج ٦٢ – ص ٢٧٨].

وبالتالي يروي ما يراه صحيحاً وهو المتوافق مع النص التوراتي والموروث الإسرائيلي: (وذلك أن نوحاً لما هبط من السفينة وعمر الأرض، فنام ذات يوم فبدت عورته، فنظر إليه حام ابنه فضحك، فلم يغر عليه يافث، ورأى ذلك سام فزبره وغطى عورة أبيه، فلما استيقظ أخبره بذلك. فدعا نوح حاماً فقال: يا بني غير الله ماء صلبك فلا تلد إلا السودان، ودعا يافث فقال: يا بني جعل الله ذريتك عبيداً لولد سام، وقال لسام: يا بني جعل الله منك الأنبياء والمرسلين والصالحين والملوك. فولد لحام الهند والسند والحبش والزنج والزط والنوبة وفزان وجميع سواحل السودان، وولد ليافث الترك والصين والبربر وما وراءه والصقالبة ويأجوج ومأجوج ومنسك وثارس وفارس... وولد لسام العرب والروم. وإنما سمي الشام لأن ساماً نزلها وسمي بلقاء لأن بالق نزلها) [ج ٦٢ ص ٢٧٠]!

كما يذكر خبراً غريباً فيه كنعان المستنسخ دائماً للشر والظلم والطغيان، ملك جبار من العماليق أو من بني إسرائيل وفي عهد ذي الكفل: (وذلك أن ملكاً جباراً يقال له كنعان وكان من العماليق، ويقال بل كان من بني إسرائيل، وكان لا يطاق في زمانه لظلمه وطغيانه، وكان ذو الكفل يعبد الله عز وجل سراً منه ويكتم إيمانه وهو في مملكته، فقيل للملك إن في مملكتك رجلاً يفسد عليك أمرك ويدعو الناس إلى غير عبادتك فبعث إليه ليقتله فأتى به...) [ج ١٧ - ص ٣٧١].

هجرة إبراهيم:

يروي ما قيل عن موطن إبراهيم الأول، ومنه أنه ولد في برزة قرب دمشق: (سمعت شيوخنا الدمشقيين قديماً يذكرون أن الآثارات التي بدمشق في برزة، عند مسجد إبراهيم عليه السلام التي في الجبل عند الشق، أنه مكان إبراهيم. وأن الآثارات التي فوق في الجبل، هي موضع رأى إبراهيم الكوكب الذي ذكر الله تعالى في كتابه "فلما رأى كوكباً قال هذا ربي"، أنه كان في الجبل في ذلك الموضع وهو معروف) [ج ٢ - ص ٣٢٧].

وهو في الوقت الذي يكرر فيه الخبر بسند آخر (قيل إن أمه كانت تخبئه في كهف في جبل بقرية برزة في الموضع الذي يعرف بمقام إبراهيم اليوم)، يؤكد على أنه ولد في إقليم بابل بالعراق، **فهو يروي معنعناً:**

(عن مكحول عن ابن عباس أنه ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون. كذا في هذه الرواية، والصحيح أن إبراهيم ولد بكوثي من إقليم بابل أرض العراق وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط النبي) [ج ٦ - ص ١٦٤].

وقد وردت كوثى في بعض رواياته على أنها مكة: (وكوثى مكة بالعبرانية) [ج ٦١ - ص ١٠٠]، ومعنى ذلك أنه ولد في مكة!

ويتحدث عن خروج إبراهيم من العراق إلى حران ثم إلى فلسطين، شارحاً معنى العبور والعبرانية.. والملفت للنظر أنه جعل أبيمالك ملك كنعان في الشام معدلاً حكايته عما وردت في التوراة، **وقد عدّ الشام تابعة لفلسطين في تلك الأزمان:**

(وخرج إبراهيم من حران يؤم أرض بني كنعان حتى عبر الفرات إلى الشام فانحرف لسانه عن السريانية إلى العبرانية، وإنما سميت العبرانية لأنه تكلم بها حين عبر الفرات. ومضى حتى أتى أبتملك "أبيمالك" ملك بني كنعان بالشام وعظيمهم الذي يدين له عظماؤهم يومئذ، وكان ينزل عين الجر من أرض البقاع من حد دمشق، وكانت الشام يومئذ منسوبة إلى فلسطين. فقال له أبتملك إنه لا طاقة لي بمعاندة نمرود وقد جاورتنا مخالفاً له، فقال إبراهيم إن إلهي يمنعك منه، فأجار إبراهيم وسأله أن يزوجه سارة. فقال إنها زوجتي فلم يعرض لها، وقال انزل حيث شئت من أرضنا وبعث إلى عظماء النواحي يأمرهم بحفظه وحسن مجاورته. فنزل اللجون قرية من قرى الأردن ثم تحول منها إلى أرض فلسطين فنزل بناحية منها يقال لها السبع من أرض بيت جبرين، ثم تحول إلى قرية يقال لها حبرى فيما بين بيت جبرين وبيت المقدس فأقام بها [ج ٦٩ – ص ١٨٢].

زمن موسى:

يتحدث عن مسار موسى مع بني إسرائيل إلى بيت المقدس:

(وسار موسى بهم متوجهاً نحو الأرض المقدسة) [ج ٦١ – ص ٩١].

(إن موسى أقام بمصر حتى أوحى الله إليه أن يخرج إلى الأرض المقدسة) [ج ٦١ – ص ٩٩].

وأن الأرض المقدسة لبني إسرائيل: (عن وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى موسى أن سر ببني إسرائيل حتى يدخلوا الأرض المقدسة فقد كتبتها لكم) [ج ٦١ – ص ١٠٢].

ويذكر بأن موسى لم يدخل الأرض المقدسة إنما دخلها من بعده خليفته يوشع بن نون.

وعندما يتحدث عن موت موسى يورد إحدى الروايات عن عبد الله بن سلام والتي تقول إن قبر موسى في دمشق: (عن مكحول عن عبد الله بن سلام قال بالشام من قبور الأنبياء ألف قبر وسبعماية قبر، وقبر موسى بدمشق) [ج ٢ – ص ٤١١].

حجر داود - عذوبة صوت داود: وإذا ما انتقلنا إلى داود نجد خرافة الحجر تتطور على يدي ابن عساكر فيصير ثلاثة، فيقضي على جالوت وجناحي جيشه من الفلسطينيين: (وقذف داود الحجر في مقلاعه ثم أرسله فصار الحجر ثلاثة: فأصاب أحدهم جبهة جالوت فنفذها منه فألقاه قتيلاً، وذهب الحجر الآخر فأصاب ميمنة جند جالوت فهزمهم، والثالث أصاب الميسرة فهزمهم، وظنوا أن الجبال قد خرت عليهم فولوا مدبرين وقتل بعضهم بعضاً) [ج ١٧ – ص ٨٢]!

وهو لا يأتي بجديد عن داود وسليمان، ولكن هناك رواية طريفة عن وهب بن منبه تتحدث عن اختراع إبليس للآلات الموسيقية: (داود كان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله قط فتعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً. فخرج إبليس مذعوراً لما رأى من استئناس الناس والدواب بصوت داود بالزبور، فدعا عفاريته فقال ما هذا الذي دهاكم فيمن أنتم بين ظهريه؟ قالوا مرنا بما أحببت. قال فإنه لا يصرفهم عنه إلا ما يشبه ما يسمعون منه، فعند ذلك احتفروا المزامير والبرابط واتخذوا الصنوج على أصناف صوته، فلما سمع ذلك غواة الناس والجن انصرفوا إليهم وانصرفت الدواب والطير أيضاً) [ج ١٧ – ص ١٠٠].

إن هدف إبليس مبدع الآلات الموسيقية، إبعاد الناس عن العبادة كما يقول وهب، والمعروف في كتب تراثنا وكما روى الكثيرون أن كنعان الفاسد هو أول من اخترع تلك الآلات من بعد الطوفان، ليفسد البشر كما يذكر اليعقوبي (وكان كنعان أول من رجع من ولد نوح إلى عمل بني قابيل، فعمل الملاهي والغناء والمزامير والطبول والبرابط والصنوج، وأطاع الشيطان في اللعب والباطل)، فلا فرق إذاً عند مؤرخينا بين كنعان الذي ألبسوه الكفر واللعنة وسوء الأخلاق والفساد – نتيجة التأثر بالإسرائيليات – وبين إبليس!!

ولنتابع مع ابن عساكر باختيار بعض الروايات التي ذكرت المرويات الإسرائيلية أن أحداثها في فلسطين، فنقلها ابن عساكر إلى دمشق، ومنها قضية السبي فهو يذكر أن بختنصر كان في عهد يحيى بن زكريا، وأن الحكاية جرت في دمشق:

(حتى بعث الله بخت ناصر عقوبة لقتل يحيى بن زكريا، قال: فدخل دمشق من باب توما وباب الشرقي ومضى حتى أتى الدرج فصعد فجلس على الكنيسة، فوجد دم يحيى بن زكريا يغلي ويفور ويسيل، قال: فعجب لذلك، ثم قال: ما بعثت إلا لأنتصر لهذا الدم فما أزال أقتل عليه أبداً حتى يسكن ويغيب)..

وبقي يقتل ودم يحيى يفور حتى جاء إرميا فخاطب الدم حتى هدأ وسكن، ومن ثم أخذ الإسرائيليون بالهرب إلى بيت المقدس. فلحق بهم بختنصر وهدم البيت:

(وهرب من هرب منهم إلى بيت المقدس. قال فتبعهم إلى بيت المقدس حتى دخلها وخربها وسبى وقتل فيها ثم رجع) [ج ٦٤ – ص ٢١٠].

ولكنه يذكر الخبر المناقض: (قال قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعين نبياً منهم يحيى بن زكريا) [ج ٦٤ – ص ٢١٧].

ويورد خبراً عن ابن عباس حول دمشق وقاسيون، يجمع فيه مكان قتل هابيل وحياة يحيى وعيسى وقبر مريم بنة عمران وابنها: (عن مكحول عن ابن عباس قال: موضع الدم في جبل قاسيون موضع شريف؛ كان يحيى بن زكريا وأمه فيه أربعين عاماً، وصلى فيه عيسى بن مريم والحواريون. فلو كنت سألت الله أن يغفر الله تعالى لعبده ابن عباس يوم يحشر البشر. فمن أتى ذلك الموضع فلا يقصر عن الصلاة والدعاء فيه فإنه موضع الحوائج، ومن أراد أن يرى "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين" فليأت النيرب الأعلى بين النهرين وليصعد إلى الغار في جبل قاسيون فيصلي فيه فإنه بيت

عيسى وأمه وهو كان معقلهم من اليهود. ومن أراد أن ينظر إلى إرم فليأت نهراً في حفر دمشق يقال له بردا، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنة عمران وابنها والحواريون فليأت مقبرة الفراديس) [ج ٢ – ص ٣٣٦ ، ٣٣٧].

وأورد الخبر بشيء من التعديل في مكان آخر وفيه حذف لموسى: (عن مكحول عن ابن عباس قال: من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين" فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين، وليصعد الغار في جبل قاسيون، فيصلي فيه فإنه بيت عيسى وأمه وهو كان معقلهم من اليهود، ومن أراد أن ينظر إلى إرم فليأت نهراً في حفر دمشق يقال له بردا، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس وهي مقبرة دمشق) [ج ٢ – ص ٤١١].

وأخيراً، لعل حب ابن عساكر للشام هو الذي دفع عواطفه الجياشة لجعل الشام مركز الكون ومحوره.. ولو تتبعنا ما قاله لقلنا كاد أن يقول الوجود كله هو الشام، لولا مكة والمدينة ومكانتهما الأعظم دينياً!

ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

"كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر،

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"

تحدثنا سابقاً عن حملة ابن خلدون على المؤرخين الذين يعتمدون على النقل دون تمحيص، ولكن ذاك الادّعاء لم يكن منهجاً مطبقاً في تاريخه، فهوفي مقدمته قدم لنا بحثاً تجاوز فيه عصره في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.. ولكنه أضاع ذاك المنهج الرائع عند التطبيق، نتيجة إيمانه بصحة التوراة، ونتيجة اعتماده على الطبري والمسعودي وابن إسحاق وابن الكلبي.. فماذا يتبقى من منهجه بعد الأخذ منهم؟

وهو بالطبع يحاول بين آونة وأخرى أن يحكم عقله بمنطق سليم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه يبقى الأضعف أمام التراث، فهو في النهاية ابن بيئته. ومن هنا تظهر تلك الومضات الثاقبة والتي لا تفتح آفاقه لمزيد من التأمل والمراجعة فتضيع ضمن المسار العام.

وكمثل يذكر في إحدى رواياته أن الطوفان لم يكن شاملاً المعمورة كلها: (واعلم أنّ الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، وبعضُ الفرس يقولون كان ببابلَ فقط) [المجلد ٢ ـ ص ٧].

وهنا لا ننسى ابن كثير المتشدد كشيخه ابن تيمية، وقد كفّر من يؤمن بمحدودية الطوفان!

ومثال آخر جيد ينتقد فيه عدد الإسرائيليين الهائل في التيه كما تذكر التوراة، وكما نقله عنها المؤرخون، فهو ينتقد المعلومة والمؤرخين قبله على عدم دقتهم واصفاً إياهم بأنهم: (تاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر، إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد. وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني

إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون، ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش)... (ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم) [المجلد ١ - ص ١٠].

وعلى الرغم مما قاله فهو نقد لأمور جزئية كما هو الحال عند غيره، ولن نفاجأ بقبوله للخرافات والأساطير والإسرائيليات بدءاً بالسلالات الخرافية والتي تتناقض مع ما يدعيه من تحفظ تجاهها أو رفض، وانتهاء بكل ما اعتمده على الرواة كالطبري وغيره.

خرافة السلالات البشرية:

يتحدث عن أولاد حام، ومنهم كنعان رأس الشعب الكنعاني:

(وأما حام فمن ولده: السودان والهند والسند والقبط وكنعان باتفاق. وفي آخرين خلاف نذكره، وكان له على ما وقع في التوراة أربعة من الولد وهم: مصر ويقول بعضهم مصرايم، وكنعان وكوش وقوط. فمن وُلد مصر عند الإسرائيليين فتروسيم وكسلوحيم. ووقع في التوراة فلشنين منهما معاً. ولم يتعيَّن من أحدهما، وبنو فلشنين الذين كان منهم جالوت. ومن ولد مصر عندهم كفتورع، ويقولون هم أهل دمياط. ووقع الأنقلوس ابن أخت قيطش الذي خرب القدس في الجلوة الكبرى على اليهود.

وأما كنعان بن حام فذكر من ولده في التوراة أحد عشر منهم صيدون، ولهم ناحية صيدا، وإيموري وكرساش، وكانوا بالشام، وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى أفريقية فأقاموا بها. ومن كنعان أيضاً يبوسا وكانوا ببيت المقدس وهربوا أمام داود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى أفريقية والمغرب، وأقاموا بها. والظاهر أنّ البربر من هؤلاء المنتقلين أوّلاً

وآخراً. إلا أنّ المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان، فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء. ومن كنعان أيضاً حيث الذين كان ملكهم عوج بن عناق. ومنهم عرفان وأروادي وخوي، ولهم نابلس وسبا، ولهم طرابلس وضمارى، ولهم حمص وحما، ولهم أنْطاكِية. وكانت تسمى حما باسمهم) [المجلد ٢ ـ ص ١٢].

إن ابن خلدون هنا يكرر الطبري وغيره، ولم يخرج من دائرة الخرافة. ثم يتحدث عن لاوذ ابن سام، ومن سلالته كنعان جاعلاً كغيره كنعان من سلالتين؛ الأولى تعود لتلتقي السلالة التوراتية المعتمدة وهي من حام، والثانية التي لم يعول عليها وهي من سلالة سام:

ولم يذكر في التوراة وُلد لاوذ. وقال ابن إسحق: (وكان للاوذ أربعة من الولد: وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس. قال: ومن العماليق أُمَّة جاسِم. فمنهم بنو لَفَّ، وبنو هَزَّان، وبنو مَطَر وبنو الأزْرَق. ومنهم بُدَيْل وراحِلِ وظَفَّار. ومنهم الكنعانُّيون وبرابَرةُ الشام، وفراعِنَة مِصْرَ) [المجلد ٢ ـ ص ٩].

وليست القضية أن يرفض رواية لصالح أخرى فكلتا الروايتين خرافيتان، والقضية هي قبوله بمبدأ الخرافات كغيره!

ومع أن له لفتة جيدة حين يرفض أن يكون اللون الأسود عقوبة نتيجة دعاء نوح على حام، إلا أنه قبل بما طرحته التوراة فقط كأنما هي الحكم في الأمر متجاهلاً عقوبة العبودية الأبدية:

(وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد، لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه؛ وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة

وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات) [المجلد ١ - ص ١٠٥].

والغريب ألا يسأل ابن خلدون نفسه: ما تلك الجريمة التي لا تغتفر والتي عقوبتها أبدية؟ وممن؟ من أب على ابن له! ولم يسأل نفسه ما ذنب كنعان إن ارتكب الأب تلك الجريمة التي لا تغتفر!؟ أهو المعادل الموضوعي لإبليس اللعين الذي تحدى الرب؟!

ولنتابع مع ابن خلدون فهو يتحدث عن العماليق ناقلاً عن الطبري: (عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرَّقت في البلاد، فكان أهل المشرق وأهل عمان والبحرين وأهل الحجاز منهم، وكانت الفراعنة بمصر منهم، وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم) **ثم يسرد عن ابن سعيد:**

(وقال ابن سعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب، بدار الخلافة من بغداد، قال: كانت مواطن العمالقة تهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام، ولم يزالوا كذلك إلى أنّ جاء إسماعيل صلوات الله عليه، وآمن به من آمن منهم. وتَطَرَّد لهم المُلك إلى أنّ كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرجت العمالقة من الحرم، أخرجتهم جرهم من قبائل قحطان، فتفرقوا ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق فعرفت به، ونزل أرض أيلة ابن هومر بن عمليق، واتصل ملكها في ولده. وكان السميد سمةً لمن ملك منهم إلى أنّ كان آخرهم السميدع بن هومر، الذي قتله يوشع لما زحف بنو إسرائيل إلى الشام بعد موسى صلوات الله عليه، فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالقة هنالك، فغلبه يوشع وأسره وملك أريحا قاعدة الشام، وهي قرب بيت المقدس، ومكانها معروف لهذا العهد. ثم بعث من بني إسرائيل بعثاً إلى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدي العمالقة ملوكه

ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر. ومن بقاياهم يهود قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وسائر يهود الحجاز على ما نذكره) [المجلد ٢ - ص ٢٠].

ويتابع غارقاً في الأساطير حول كنعان إذ جعله الملك الأول في تاريخ البشرية وباني بابل وناشر الوثنية: (وفي كتاب البدء ونقله ابن سعيد: أنّ أول من ملك الأرض من ولد نوح، كنعان بن كوش بن حام، فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل، فبنى مدينة بابل اثني عشر فرسخاً في مثلها، وورث ملكه ابنه النمرود بن كنعان، وعظم سلطانه في الأرض، وطال عمره وغلب على أكثر المعمور، وأخذ بدين الصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه، ومال معهم بنو سام. وكان سام قد نزل بشرقي الدجلة، وكان وصيٌّ أبيه في الدين والتوحيد، وورث ذلك ابنه أرفخشذ، ومعنى أرفخشذ مصباح مضيء، فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيون إلى القيام بالتوحيد) [المجلد ٢ - ص ٢٧].

وعلى الرغم من تعارض الأنساب ومن بينها نسب النمرود الذي في عهد إبراهيم واختلاف نسبته إلى حام أو سام، هناك خلاف حول اسم النمرود نفسه؛ أهو اسم علم أو صفة: (ويظهر من كلام هؤلاء أنّ اسم النمروذ سمة من ملك بابل، لوقوعه في أهل أنساب مختلفة، مرة إلى سام ومرة إلى حام) [المجلد ٢ - ص ٨١].

وبكلامه اللا علمي ذاك عن السلالات وأحداث الماضي السحيق يضع نفسه ضمن بوتقة المؤرخين التقليديين المتأثرين بالتوراة والإسرائيليات، ولا ميزة له عنهم فهو لم ينتبه إلى مغزاها عند عزرا؛ وهو إعادة صياغة الوجود البشري وفق الرؤية العنصرية اليهودية!

وما يدعيه ابن خلدون نظرياً كفيلسوف في أصول التأريخ من التدقيق والدراسة والتحقق والتفكير، ينساه كمؤرخ!

ولذلك سنتابع معه ونحن متيقنون بأن ما كتبه عن التاريخ القديم هو نسخة كربونية لا يغير من جوهرها شيء من الإضافات.

هجرة إبراهيم وعصر الآباء:

يتحدث ابن خلدون عن هجرة إبراهيم إلى فلسطين كما تتحدث التوراة: (ثم أمر بالخروج إلى أرض الكنعانيين ووعده الله بأن تكون أثراً لبنيه، وأنهم يكثرون مثل حصى الأرض. فنزل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة، ثم أصاب بلد الكنعانيين مجاعة، فخرج إبراهيم في أهل بيته وقدم مصر).

كما ينقل أفكار عزرا التي أسقطها على الله كوعد منه لإبراهيم، فبعد عودة إبراهيم من مقاتلة الملوك عقب اعتدائهم على لوط وسلبه ممتلكاته بحسب النص التوراتي: (أوحى الله إلى إبراهيم أنّ هذه الأرض: أرض الكنعانيين التي أنت بها، ملكتها لك ولذريتك وأكثرهم مثل حصى الأرض، وأن ذريتك يسكنون في أرض ليست لهم أربعمائة سنة، ويرجع الحقب الرابع إلى هنا) [المجلد ٢ - ص ٤٠]!

ويذكر طلب إبراهيم من ابنه إسحق ألا يتزوج من الكنعانيات: (وكان إبراهيم عليه السلام قد عهد لابنه إسحق أن لا يتزوّج في الكنعانيين، وأكد العهد والوصية بذلك لمولاه القائم على أموره، ثم بعثه إلى حران مهاجرهم الأول)، ولكنه في الصفحة نفسها يذكر أن إبراهيم تزوج من كنعانية وثنية ولم ينتبه إلى ذاك التناقض ولم يقف عنده: (وتزوج إبراهيم من بعدها قطورا بنت يقطان من الكنعانيين) [المجلد ٢ – ص ٤٣].

وعندما يتناول مجيء إسحق من مضارب خيام خاله في حران إلى فلسطين يؤكد قضية منح الأرض الفلسطينية لبني إسرائيل: (وقد كملت له بحرَّان عشرون سنة، ثم أمر بالرحيل إلى أرض كنعان التي وعدوا بملكها، فارتحل) [المجلد ٢ - ص ٤٤].

كما يذكر أنه لما مات يعقوب في مصر حمله ابنه يوسف، وذهب به إلى فلسطين ليدفنه هناك بناء على وصيته، فاعترضه كنعانيون فقضى

عليهم: (وحمله يوسف صلوات الله عليه إلى أرض فلسطين، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها بإذن من فرعون. واعترضهم بعض الكنعانّيين في طريقهم فأوقعوا بهم، وانتهوا إلى مدفن إبراهيم وإسحق عليهما السلام، فدفنوه في المغارة عندهما، وانتقلوا إلى مصر) [المجلد ٢ - ص ٤٦].

كما أن يوسف يوصي أهله بعد أن يموت: (أنّ يحملوا شِلْوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد وهي الأرض المقدّسة) [المجلد ٢ - ص ٩٢].

والملفت للنظر معزوفة أرض الميعاد المكررة بين آونة وأخرى، وهي المعزوفة الرئيسة في التوراة!

زمن موسى ويوشع:

عندما يتحدث عن موسى وهرون يربط بين الخروج من مصر والذهاب إلى الأرض المقدسة/ فلسطين: (فأوحى الله إليهما بأن يأتيا فرعون ليبعث معهما بني إسرائيل، فيستنقذانهم من مملكة القبط وجور الفراعنة. ويخرجون إلى الأرض المقدّسة التي وعدهم الله بملكها على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب) [المجلد ٢ - ص ٩٣].

ويؤكد منحهم أرض فلسطين، بعد الخروج: (ولما نجا بنو إسرائيل ودخلوا البرية عند سينا أول المصيف لثلاثة أشهر من خروجهم من مصر، وواجهوا جبال الشام وبلاد بيت المقدس التي وعدوا بها أنّ تكون مُلْكا لهم على لسان إبراهيم وإسحق ويعقوب صلوات الله عليهم بمسيرهم إليها) [المجلد ٢ - ص ٩٧].

ويتحدث عن التيه ومكانه فيجعله ممتداً من غرب الجزيرة "السراة" وفاران "مكة" إلى برية سيناء شمالاً وباتجاه الأردن: (فأقاموا كذلك أربعين سنة في برية سينا وفاران، يتردّدون حوالي جبال السراة، وأرض ساعير، وأرض بلاد الكرك والشوبك)!

فكيف يكون تيهاً وله ذاك الامتداد، والروايات حصرته في مساحة ضيقة يروحون فيها ويجيئون ضائعين!

وينتقل للحديث عن حروب موسى: (ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم، وبعثوا إلى سيحون ملك العموريين من كنعان في الجواز في أرضه إلى الأرض المقدسة، فمنعهم وجمع قومه وغزا بني إسرائيل في البرية، فحاربوه وهزموه وملكوا بلاده إلى حد بني عمّون، ونزلوا مدينته وكانت لبني مؤاب. وتغلب عليها سيحون. ثم قاتلوا عوجاً وقومه من كنعان، وهو المشهور بعوج بن عوق، وكان شديد البأس فهزموه وقاتلوه وبنيه وأثخنوا في أرضه. وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحا وخشي ملك بني مؤاب من بني إسرائيل، واستجاش بمن يجاوره من بني مدين، وجمعهم ثم أرسل إلى بلعام بن باعورا، وكان ينزل في التخم بين بلاد بني عمون وبني مؤاب. وكان مجاب الدعوة معبراً للأحلام. واستدعاه ليستعين بدعائه..) [المجلد ٢ - ص ٩٨].

ويذكر موضع استقرار بني إسرائيل حتى وفاة موسى: (ثم ارتحل بنو إسرائيل ونزلوا شاطئ الأردن. وقال الله قد ملكتكم ما بين الأردن والفرات كما وعدت آباءكم).

ومن بعد موسى يتابع يوشع: (ثم سار يوشع من بعد موسى إلى أريحا فهزم الجبارين ودخلها عليهم) [المجلد ٢ - ص ٩٩].

ولا ينسى بالطبع خرافة سقوط الأسوار بنفخ الأبواق: (ثم نازل أريحا ستة أشهر وفي السابع نفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها، وكمل الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيين كما أمرهم الله) [المجلد ٢ - ص ١٠٠].

وهو يعد سكان فلسطين عدة شعوب جذرها ينتمي إلى سلالة حام: (ثم بنو فلسطين من بني حام. ويسمى ملكهم جالوت وهو من الكنعانيين منهم، ثم بنو مدين، ثم العمالقة. ولم يؤذن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيين، فهي التي اقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثاً. وأما غيرهم فلم يكن لهم فيها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها) [المجلد ٢ - ص ١٠٠].

وهو يرى أن الشام تتألف من عدة أمم أكثرهم كنعان: (الأمم الذين كانوا بالشام لذلك العهد فأكثرهم لبني كنعان)، وبناء على رأيه تكون بلاد كنعان الممنوحة لبني إسرائيل تعني معظم بلاد الشام!

ويتحدث عن أمجاد يوشع الزائفة والمختلقة، فيذكر انتصاراته والاستيلاء على أورشليم: (وتتبع سائر الملوك بالشام، فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً، وملك قيسارية، وقسم الأرض التي ملكها بين بني إسرائيل. وأعطى جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم وأقام مع بني يهودا، ووضع القبة التي فيها تابوت العهد والمذبح والمائدة والمنارة على الصخرة التي في بيت المقدس) [المجلد ٢ - ص ١٠٢].

ولكنه ينسى ما قاله عن كالب بأنه سكن أورشليم بعد اقتسام الأرض التي ملكها الإسرائيليون عقب قهر الكنعانيين، فيذكر في الصفحة السابقة نفسها أن أتباع يوشع فتحوا أورشليم: (ثم بعد يوشع اجتمع بنو يهودا وبنو شمعون لحرب الكنعانيين فغلبوهم وقتلوهم، وفتحوا أورشليم وقتلوا ملكها، ثم فتحوا غزة وعسقلان، وملكوا الجبل كله)..

وكذلك يذكر الكنعانيين فيما بعد وتداولهم الغلبة مع الأسباط. وهو يستخدم كلمة بني فلسطين في قتالهم المتداول مع بني إسرائيل، ويقصد الفلسطينيين!!

مملكة داود المزعومة:

يـذكر ابـن خلـدون أمجـاد داود التوراتيـة وانتصـاره علـى جـالوت بالحجارة وانهزام الفلسطينيين، ثم امتداد ملكه.

ثم ينتقل للحديث عن قتال داود لكنعان والفلسطينيين.. وبنائه لمدينة صهيون: (واستبد داود بملك بنـي إسرائيل لثلاثين سنة من عمره، وقاتل بني كنعان فغلبهم ثم طالت حروبه مع بنـي فلسطين واستولى على كثير من بلادهم، ورتب عليهم الخراج. ثم حارب أهل مؤاب وعمون، وأهل أدوم وظفر بهم، وضرب عليهم الجزية. ثم خرب بلادهم بعد ذلك. وضرب الجزية على الأرمن بدمشق وحلب، وبعث العمال لقبضها. وصانعه ملك أنْطاكِية بالهدايا والتحف. واختط مدينة صهيون وسكنها..) [المجلد ٢ ـ ص ١١١].

ويحدثنا أن سليمان ورث أباه داود، وقد: (استفحل ملكه، وغالب الأمم وضرب الجزية على جميع ملوك الشام. مثل فلسطين وعمون وكنعان ومؤاب وأدوم والأرمن..) [المجلد ٢ ـ ص ١١٢].

ويتابع ابن خلدون مجريات الأحداث المستمدة من التوراة، فيتحدث عن مُلك الإسرائيليين المزعوم: (فأقام بنو داود في سلطانهم على بنـي يهوذا وبنيامين ببيت المقدس وعسقلان وغزة ودمشق وحلب وحمص وحماة وما إلى ذلك من أرض الحجاز. وملك الأسباط العشـرة بنواحي نابلس وفلسطين. ثم نزلوا مدينة شومرون وهي شمرة وسامرة في الناحية الشـرقية الشمالية من الشام مما يلي الفرات والجزيرة، واتخذوها كرسياً لملكهم ذلك. وأقاموا على هذا الافتراق إلى حين انقراض أمرهم، ووقعوا في الجلاء الذي كتب الله عليهم) [المجلد ٢ ـ ص ١١٦].

ويتابع ابن خلدون تاريخ فلسطين المغيب لصالح الرواية التوراتية فيتحدث بلسان الأسفار عن السبي ثم عن المجيء إلى فلسطين. وقد ذكر أن دانيال في عهد كيرش (كورش، قورش) وبأنه ولاه أحكام دولته، وسمح له بتعمير القدس:

(وولى دانيال أحكام دولته. وجعل إليه أمره، وأذن له أنّ يخرج ما في الخزائن من السبي والذخائر والآنية ويرده إلى مكانه، ويقوم في بناء القدس، فعمره) [المجلد ٢ – ص ١٢٦].

ويذكر بأنه اطلع على كتاب يوسف بن كريون في مصر وتابع منه تاريخ اليهود حتى زمن الرومان: (ووقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بني إسرائيل من أهل ذلك العصر، في أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب بختنصر الأول وخراب طيطس الثاني الذي كانت عنده الجلوة الكبرى، استوفى فيه أخبار تلك المدة بزعمه. ومؤلف الكتاب يسمى يوسف بن كريون...

وأما الكتاب فاستوعب فيه أخبار البيت واليهود بتلك المدة، وأخبار الدولتين اللتين كانتا بها لبني حشمناي وبني هيردوس من اليهود، وما حدث في ذلك من الأحداث، فلخصتها هنا كما وجدتها فيه لأني لم أقف على شيء فيها لسواه. والقوم أعلم بأخبارهم إذا لم يعارضها ما يقدم عليها) [المجلد ٢ - ص ١٢٤].

وهو يروي عنه تدمير معبد اليهود وخراب القدس وتشتت اليهود على يد طيطس/ تيتوس القائد الروماني، وينهي اختصاره لكلام يوسف، بانقراض دولة اليهود: (وانقرضت دولة اليهود أجمع) [المجلد ٢ - ص ١٦٤]!!

والملاحظ تحول ابن خلدون من ذكر بني إسرائيل إلى استخدام كلمة اليهود مانحاً بذلك أولئك صفة الوراثة الجنسية/ العرق. وبالتالي صار تاريخ فلسطين وبلاد الشام القديم عند ابن خلدون وغيره هو تاريخ اليهود بل تاريخ

دولة اليهود كما يذكر، وصراعات شعب فلسطين والشام ضد الغزاة اليونانيين والروم هو صراع اليهود ضد أولئك!!

إذاً لا فرق بين ابن خلدون وغيره عندما يتحدث عن تاريخ فلسطين القديم وشعبها، ففلسطين مكاناً وزماناً مصادرة لصالح بني إسرائيل في تلك العصور السحيقة؟!

الفصل الثانى عشر
النويري شهاب أحمد بن عبد الوهاب "توفي ٧٣٣ هـ"
"نهاية الأرب في فنون الأدب"

موسوعة النويري تشمل الأدب والعلوم والتاريخ، ولكن ما يميز تاريخه هو خياله الأدبي ولا سيما في القصص، حيث يعيد صياغة بعض الروايات وفق مزاجه الأدبي!

يعد النويري مؤرخاً وأديباً، فقسمه التاريخي في موسوعته هو القسم الأكبر. والمؤرخون جميعاً كانوا علماء دين وفقه وتفسير وأدب ونحو وبلاغة وعروض.. فعصورهم عصور الموسوعات!

يبدأ النويري تاريخه منذ التكوين وحتى عصره، معتمداً على كعب الأحبار ووهب بن منبه وأبو إسحق الثعلبي والكسائي.. وهو لا يتورع عن ذكر الخرافات والأساطير دون أي تحفظ!

خرافة السلالات البشرية:

النويري كأديب مرهف المشاعر، لم يعجبه أن تنجب امرأة نوح المؤمنة كنعانَ الكافر إلى جانب سام وحام ويافث المؤمنين، لذلك أقصى كنعان عن أمه المؤمنة، وجعله من امرأة أخرى آمنت بنوح وخلفت كنعان ثم ارتدت وعادت إلى الوثنية: (ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها: والعة فتزوجها فأولدها كنعان؛ ثم نافقت وعادت إلى دينها) [الصفحة ٧٠٥٨]!!

وكنعان الكافر ذاك غرق في الطوفان، حيث رفض أن يركب مع أبيه نوح في السفينة: (كان ابنه هذا كنعان) [الصفحة ٧٠٦٥].

ولا ينسى قضية حام والعورة واللعنة الأبدية، فيرويها بتكوين جديد: (ولما استقر الأمر قال نوح لبنيه: إني أحب أن أنام، فإنني لم أتهنأ بالنوم منذ ركبت الفلك. فوضع رأسه في حجر ابنه حام، فهبت الريح

فكشفت عن سوءته فضحك حام، وغطاه سام. فانتبه فقال: ما هذا الضحك؟ فأخبره سام، فغضب وقال لحام: أتضحك من سوءة أبيك؟ غير الله خلقتك، وسود وجهك. فاسود وجهه لوقته. وقال لسام: سترت عورة أبيك، ستر الله عليك في هذه الدنيا، وغفر لك في الآخرة. وجعل من نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد، وجعل من نسل يافث الجبابرة والأكاسرة والملوك العاتية) [الصفحة ٧٠٦٨ – ٧٠٦٩].

وهو يحط من مكانة نمرود بجعله ابن زنى؛ فأبوه كنعان بن كوش الملك، يقتل زوجَ امرأة جميلة أعجبته، **ثم يغتصبها فتحمل منه نمرود:** (ثم أقبل زوجها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها، فحملت بنمروذ، ونقلها كنعان إلى قصره، فكانت من أحظى نسائه، ثم قتل أخاه بعد ذلك، واستقل بالملك) [الصفحة ٧١٦٦].

فكنعان الأول ابن المرتدة مات غرقاً في الطوفان، وكنعان الثاني المستنسخ ملك مجرم وقاتل وزانٍ.. ولن نتابع معه أسطورة نشأة نمرود المخيفة والشنيعة ثم قتله لأبيه كنعان واستلام السلطة، فصاحبنا قد تجاوز فيها حدود الخرافات!

هجرة إبراهيم وعصر الآباء:

يتحدث النويري عن خروج إبراهيم من العراق وما جرى معه في فلسطين، محوراً الحكاية التقليدية التي جرت بين سارة وفرعون مصر كما تقول التوراة، **ليجعلها مع صادوق ملك الأردن بناء على إحدى الروايات:**

(وجمع إبراهيم أصحابه الذين آمنوا به، وسار يريد الشام، فجاء إلى حران فأقام بها مدة من عمره، وترك بها طائفة من المؤمنين، وسار حتى أتى الأردن وكان اسم ملكها صادوق، فمر به وهو في منظرة له. فنظر إلى سارة مع إبراهيم فأحضرهما، وقال لإبراهيم: من أنت؟ قال: أنا خليل الله

إبراهيم، وذكر له ما كان من أمر نمروذ. فقال له: من هذه؟ قال: هي أختي. فقال: زوجنيها. قال: هي أعلم بنفسها مني، وإنها لا تحل لك. فاغتصبها منه، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه. فدعا إبراهيم الله تعالى، فارتج المجلس بالملك، ويبست يده فقال لسارة: ألا ترين ما أنا فيه؟ قالت: لأنك أغضبت خليل الله. قال: فتضرع إلى إبراهيم؛ فسأل الله في رد يده عليه؛ فأوحى الله إليه: لا أطلقه دون أن أخرجه من ملكه ويسلم؛ فأسلم وخرج عن الملك، ووهب سارة هاجر، وهي أم إسماعيل. قال وارتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدسة فنزلها) [الصفحة ٧٢٠٣ – ٧٢٠٤].

إن التوراة تروي حكايتين جرت مع سارة إعجاباً بها؛ واحدة في مصر مع فرعونها، والأخرى مع أبيمالك ملك جرار في فلسطين. والنويري هنا في حكايته المغايرة يجعل نهايتها أكثر إرضاء لفضول المستمع أو القارئ؛ فالملك يسلم ويمنح سارة جارية هي هاجر!

ويتابع النويري يعقوبَ في حران، وبأنه قد استأذن خاله ليذهب إلى كنعان "فلسطين" لأن الله أوحى له ليهدي شعبها إلى الإيمان!

وجاء إلى فلسطين وكان هناك ملك كنعاني اسمه سحيم فدعاه للإيمان فأبى، وجرت معركة تمكن خلالها ابن يعقوب واسمه شمعون من تحطيم حصن سحيم وذلك عندما ضرب جدار الحصن بقدمه فانهار وسقط، ودخل الرعب قلوب كنعان فآمنوا كلهم:

(وأقبل يعقوب بأولاده والملك في حصنه، فقال: يا بني، جاهدوا في الله حق جهاده. فقال ابنه شمعون: أنا أكفيك هذا الحصن. وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه، وصاح صيحة عظيمة فمات الملك وأكثر من بالحصن، ودخل يعقوب الحصن، وغنم ما كان فيه؛ فكانت هذه معجزة ليعقوب، وبلغ ذلك أهل كنعان، فوقع الرعب في قلوبهم، فآمنوا بيعقوب) [الصفحة ٧٢٣٣ – ٧٢٣٤].

والحكاية هنا مقتبسة من حكاية شكيم بن حمور مع دينة ابنة يعقوب، ولكنها لا تمت للأصل بصلة.

ولنقف عند قوله إن أهل كنعان آمنوا بيعقوب، ولا قيمة للخوف إذا كان هو السبب، فالمهم أنهم آمنوا، ومن المفترض من الناحية النظرية أن يُسقط الإيمانُ الوعدَ، من منطلق أن الوعد كما يعلل بعضهم نتيجة وثنية كنعان!

ويتحدث عن جلب موسى لجثة يوسف كما رواها الآخرون: (ولم يزل في نهر النيل حتى بعث الله موسى عليه السلام، فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس، فدفنه هناك، وموضع قبره معروف) [الصفحة ٧٢٨٨].

زمن موسى:

يعلل عودة موسى إلى مصر من مدين لأنه اشتاق لأهله؛ أمه وأخيه وأخته.. ولكنه بعد مروره بوادي طوى حمل رسالة دعوة فرعون للإيمان وإخراج الإسرائيليين من مصر:

(.. وقد طالت غيبتي عن أمي وخالتي وهارون أخي وأختي. فقال شعيب: إني أكره أن أمنعك. وأوصاه بابنته وأوصاها ألا تخالفه؛ وسار موسى عليه السلام بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادي طوى..).

ثم يتحدث عن الذهاب إلى الأرض المقدسة: (ثم أوحى الله تعالى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ويجاهد الجبارين) [الصفحة ٧٤٩٠ - ٧٤٩١].

ويفهم من كلامه أن بني إسرائيل خرجوا من مصر، ولم يكونوا يعلمون أنهم ذاهبون إلى فلسطين: (قال الكسائي: فلما أخبرهم موسى بذلك قالوا: يا موسى إنك قلت لنا حين أخرجتنا من مصر: إن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون، والآن فإنك تحملنا على ما هو أشق منه،

وبيننا وبين الأرض المقدسة المفاوز والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء؟

فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، قل لهم: إني منزل عليهم المن والسلوى، وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب، وأمرت الغمام أن يظلهم ويسير معهم حيث ساروا، وألا تنقب خفافهم ونعالهم، وأمرت ثيابهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم.

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم، وساروا نحو الأرض المقدسة) [الصفحة ٧٤٩٢].

ويروي عن الثعلبي أن الله أورث بني إسرائيل أرضَ كنعان:

(قال الثعلبي: وذلك أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام، أن يورثه وقومه الأرض المقدسة، وهي الشام. وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون ووعدهم أن يهلكهم، ويجعل أرض الشام مسكن بني إسرائيل. فلما استقرت ببني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا. "هكذا قال الثعلبي: بمصر". واليهود تنكر ذلك، ويقولون: إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجى موسى وبني إسرائيل، تنقلوا من مكان إلى آخر. ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية - وليست تعرف الآن - وكان في خلال مسيرهم خبر التيه..) [الصفحة ٧٥٠٠ – ٧٥٠١].

ولا يفوته ذكر الأخبار المتضاربة والمتعلقة بدخول أريحا. كما يتحدث عن خرافة سقوط أسوار أريحا بالصيحة زمن يوشع [الصفحة ٧٥٣٦].

ويتابع النويري سرد التاريخ الديني راوياً ما هب ودب من الحكايات الشعبية والخرافات، ومن ضمنها انتصار داود بحجارة المقلاع [الصفحة ٧٦١٥]. وخبر بختنصر وقدومه بسبب قتل يحيى بن زكريا [الصفحة ٧٨١٩]...

تلك صورة عن النويري فهو وإن أقحم مخيلته في بعض ما يرويه، لكنه في النهاية كغيره من المؤرخين يدور في فلكهم ولم يخرج من دائرتهم.

ذاك التاريخ الذي قدمه لنا المؤرخون القدماء هو الذي ساد، وتعلمته الأجيال تلو الأجيال، وهذا القلقشندي يكتب موسوعته بهدف تثقيف من يريد أن يمتهن الكتابة في ديوان الإنشاء. والمقتطفان التاليان يعطيان فكرة عما يريد أن يعلمه لمن يريد أن يحظى بذاك المنصب الخطير!

الأول عن كنعان: (وكان كنعان قد نزل الشام بجهة فلسطين عند تبلبل الألسنة بعد الطوفان وتوراثها بنوه بعد ذلك. وكان كل من ملك منهم يلقب بجالوت إلى أن انتهى الملك إلى رجل منهم اسمه كلياذ وهو جالوت الذي قتله داود عليه السلام، وبقتله تفرق بنو كنعان وباد ملكهم وزال).

والثاني عن بني إسرائيل: (.. وملك بعده داود عليه السلام وكانت دار ملكه بالقدس، وفتح فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمان ومأرب وحلب ونصيبين وغير ذلك..).

لقد ضل مؤرخونا القدماء عن الحقيقة في تأريخهم القديم؛ حيث غيبوا تاريخ العرب القديم وحضارتهم التي أذهلت العالم بعد اكتشافها.

لقد كانوا مدفوعين بمشاعر دينية وبعشق للقصص المثيرة، وما كتبوه لا يمت للتاريخ العلمي بأية صلة؛ فالقصص شيء، والتاريخ العلمي شيء آخر!

والدارس المنصف عليه ألا يسقط العقلية المعاصرة على نص كتبه مؤرخ في عصر له مقوماته الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. فالنص يدرس ضمن مقوماته وبيئته التاريخية والجغرافية والظروف المحيطة بهما.

والنقد الموضوعي موجه إلى اعتمادهم على منهج الجمع دون دراسة أو تمحيص، ولنقلهم التراث اليهودي إلى التراث الإسلامي دون تحفظ، مع

أنهم انتقدوا الأسفار والرواة الكاذبين وطعنوا بالخرافات.. ولو كانوا جادين بنقدهم والتزموا به كمنهج، لما أساؤوا إلى تاريخنا القديم وحضارتنا.

والكم المتراكم الذي قدموه لنا سواء أكثرت مجلداته أم قلّت، إنما هو تكرار لما قاله فرسان الرواية والقصص والأخبار.. يتداولونها من واحد إلى آخر.. وذاك الكم ليس أكثر من نسخ كربونية، واحدة منها تغني عن البقية، ولا تغير الأمر زيادة عند أحدهم أو نقص عند آخر.

المؤرخون العرب القدماء:

١) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ص ٤.

٢) يذكر ابن خلدون كما سيأتي في الحديث عنه، رواية تقول إن كنعان أول من ملك في الأرض: (وفي كتاب البدء ونقله ابن سعيد: أنّ أول من ملك الأرض من ولد نوح، كنعان بن كوش بن حام...)[1] ولكن الجميع تداولوا قول السدي: إن الملوك الذين ملكوا الأرض كلها مؤمنان وكافران: (نمرود وسليمان بن داود وذو القرنين وبخت نصر).

٣) حكاية بلعم "بلعام" كما رواها الطبري:

(فلما انتهوا إلى أرض كنعان وبها بلعم بن باعور المعروف وكان رجلاً قد آتاه الله علماً وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى...

. عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى لما نزل أرض بني كنعان من أرض الشام وكان بلعم ببالعة قرية من قرى البلقاء، فلما نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل أتى قوم بلعم إلى بلعم فقالوا له يا بلعم هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ويسكنها، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة

١ - [تاريخ ابن خلدون: المجلد ٢ - ص ٢٧].

فاخرج فادع الله عليهم. فقال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم. قالوا ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن. فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان، فما سار عليها غير قليل حتى ربضت به فنزل عنها فضربها حتى أذلقها فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به ففعل مثل ذلك فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها فكلمته حجة عليه فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها يضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه أتدري يا بلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه. واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال؛ جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر...).[1]

كما أن الطبري يروي خبراً آخر عن السدي يجعله من بني إسرائيل: (وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم وكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر وأتى الجبارين، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم، أدعو عليهم دعوة فيهلكون. فكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء من عظمهن فكان ينكح أتاناً له. وهو الذي يقول الله عز وجل "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا" أي فبصر فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين...).

---

١ - [تاريخ الطبري: ج ١ - ص ٢٥٨].

ونلاحظ التخمينات دائماً وعدم اليقين فمنهم من جعله كنعانياً وآخرون من سلالة لوط وآخرون من جعله إسرائيلياً، ومنهم من جعله نبياً.. ومنهم من قال إنه المقصود في الآية القرآنية: **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)** [سورة الأعراف: الآية ١٧٥]، ومنهم من قال إن الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت، ومنهم من قال هو شخص من اليمن، ومنهم قال في غيره..

وندور في حلقة مفرغة أمام الظنون. والمقصود من هو - وكما ذكرنا عن الحكايات – أخذ العبرة من إنسان منحه الله النعم والقدرة فاستكبر واستعلى، فهوى إلى الدرك الأسفل، وهي تعني كل إنسان يتصف بذاك المسلك. لكن ذلك لم يقنع فضول الفضوليين فأخذوا يلهثون بحثاً عن تجسيدات لكل المعاني والمجردة!

٤) مغاور قمران:

وثائق مخطوطات البحر الميت يعود أقدمها إلى **منتصف** القرن الثالث قبل الميلاد، وآخرها منتصف القرن الأول الميلادي.

وهناك تشابه كبير بين المخطوطات وبعض نصوص العهد الجديد؛ الحياة الجماعية المشتركة، والطقوس كطقس التعميد، والمائدة..

جاء في دائرة المعارف الكتابية حول "البحر الميت – لفائف البحر الميت": (كانت الطائفة تتكون من جماعة من الكهنة والعلمانيين يحيون حياة مشتركة في تكريس متزمت لله. وقد كشفت أسرار النبوة لمؤسس الطائفة وهو كاهن يوصف بأنه "المعلم البار". وكان من أهم مظاهر حياة الجماعة تفسير الكتب المقدسة بما يتفق مع شهادة الطائفة ونهاية الدهر. وقد أرسل الله "المعلم البار" ليعلن الدينونة التي ستحل بإسرائيل..)..

(وقد رفض هذه الرسالة رفضاً باتاً، الكاهن الشرير وأتباعه الذين كانوا يهتمون بحرفية التوارة لا بروحانيتها وواضح أن الإشارة إلى الكاهن الشرير كانت تعني رئيس الكهنة في أورشليم حيث يقال عنه "الحاكم في إسرائيل" والذي يحمل "الاسم الحقيقي". وحيث توجد إشارة واضحة لرياسة الكهنوت، فلا بد أنه قد حدث صدام معين في بدء تاريخ الجماعة، بين "المعلم البار" ورئيس الكهنة الأورشليمي، لأن التفسير يتحدث عن اضطهاد الكاهن الشرير للمعلم البار والأضرار به جسدياً، وقد بلغ الصدام ذروته في يوم الكفارة حين قضى الكاهن الشرير على المعلم البار وجعل أتباعه يعثرون. وهذه بلا شك، إشارة إلى موت القائد وتبدد الأنصار..).

(ويصور لنا "قانون الجماعة" المسيا مشتركاً في وليمة في العصر الجديد، وكان الحاضرون يجلسون بحسب مقامهم. وقام الكاهن الرئيسي بتركة الخبز والخمر، ثم قام المسيا -الذي كان يشغل مركزا ثانوياً- ببركة الطعام أيضاً).

وتقول الموسوعة في الفقرة د - جماعة قمران والمسيحية:

(حاول بعض العلماء أن يروا في جماعة قمران إرهاصاً واضحاً بالمسيحية، باعتبار أن أقوى وجوه الشبه هو المعلم البار كالمسيا، والحياة المنضبطة المنظمة التي لها أسرارها المقدسة)... (إن وجه الشبه الوحيد بين تعاليم جماعة قمران وتعليم يسوع ينحصر في الأصحاح الخامس من إنجيل متى، كما أن أصداء أسلوب قمران في العهد الجديد تقتصر على بعض العبارات مثل "أبناء النور"، "الحياة الأبدية"، "نور الحياة"، "أعمال الله"، و "ليكونوا واحداً")..

ويتحدث د. عبد الوهاب المسيري في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" عن مخطوطات البحر الميت، فيقول: (فطقس التعميد وهو أحد أهم الطقوس المسيحية له نظيره في نصوص قواعد الجماعة حيث يرد: "إن الماء الطاهر ليُطهِّر الشخص الذي يرتضي لنفسه الخضوع للحق

والإيمان بشريعة الرب حقاً، تطهيراً من آثامه ولا يتطهر لو اغتسل بالأنهار والبحار وهو لا يزال على شريعة مخالفة". يرد ذلك تمشياً مع المنهج الأخلاقي لسفر أشعياء: "اختتنوا أولاً غرلة قلوبكم قبل ختان غرلة أجسادكم"...).

كما يذكر د. المسيري أسباب عدم نشر المخطوطات كلها منها لتشابه بعضها مع حياة المسيح وتعاليمه المناقضة لتعاليم الكنيسة وبولس.

وما يهمنا هنا من الأسباب الأخرى ما يذكره عن تلك المخطوطات أنها تنقض ادعاءات الصهيونية حول الشعب اليهودي الواحد:

(ثمة جماعات يهودية متعددة وليس مجرد شعب يهودي واحد ذي تاريخ واحد وتطلعات واحدة. ومن ثم، إن ثبت أن هذه الجماعة كانت تمثل رأياً مهماً ورمزاً أساسياً في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية في وقتها، فإن أسطورة الشعب اليهودي الواحد تتهاوى من الأساس وينهار معها أهم الروافد الأيديولوجية الصهيونية. وحينذاك، نستطيع أن نفهم لماذا يتفق الصهاينة مع المعادين لليهود على طمس وإخفاء هذه الحقائق التاريخية طوال هذه الفترة).

٥) الكتاب مصدره مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية:

وهو غير محقق. وورد اسم المؤلف مطهر بن طاهر المقدسي، ووفاته ٥٠٧ هـ. وسنذكره كصاحب للكتاب حتى لا نكرر اسمه واسم المؤلف الآخر.

لقد ذكر المؤلف في مقدمته بأنه سيكتب عن التاريخ حتى زمنه وهو ٣٥٥ هـ، وانتهى التأريخ في كتابه عند سنة ٣٥٠ هـ!!

وفي كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني "حاجي خليفة"، وردت أسماء كثيرة للقب المقدسي منها: أبو

الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي المتوفى ٥٠٧ هـ وهو عالم ومحدث مشهور، وليس مؤلف الكتاب التاريخي [ج ١ – ص ٨٨، و ص ٦٠٨].

ولم يرد أي ذكر للكتاب المذكور لأي مقدسي، ولكن ورد اسم الكتاب للبلخي في ج ١ – ص ٢٢٧ : (البدء والتاريخ: للشيخ الإمام أبي زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة أربعين وثلثمائة. وهو كتاب مفيد مهذب عن خرافات العجائز وتزاوير القصاص لأنه تتبع فيه صحاح الأسانيد في مبدأ الخلق ومنتهاه. فابتدأ بذكر حدود النظر والجدل وإثبات القديم، ثم ابتدأ الخلق وقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم وتواريخ الملوك والخلفاء إلى زمانه في ثلاثة وعشرين فصلاً وهو في مجلد واحد).

وتلك الصفات لكتاب البلخي قريبة إلى ما نسب للمقدسي، فالكتاب المنسوب للمقدسي يتألف من اثنين وعشرين فصلاً، ولكنه موزع على ستة أجزاء صغيرة، وموضوعات بدايته متوافقة أما سنة انتهائه ففيها فارق عشر سنوات. كما ورد كلام في المقدمة صفحة ٦ متطابق حرفياً مع كلام كشف الظنون " وخرافات العجائز وتزاوير القصاص".

وقد ورد اسم المقدسي في الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتاني – ج ١ – ص ١٢٣: شمس الدين أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، ويصفه الكاتب بالحافظ الكبير وبكثرة التجوال، ويذكر وفاته سنة ٧٠٧ أو ٧٠٨ هـ!!

ووفاة المقدسي المذكور مختلف فيه فقد ذكر أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب في كتابه "الوفيات للقسنطي" ج ١ – ص ٢٨٢: أن المقدسي المحدث توفي ٥٥٦ هـ.

فمن هو مؤلف الكتاب، أهو المقدسي الجغرافي المشهور، أم المحدث الكبير، أم الذي اختصر تاريخ الشام لابن عساكر في عشرين مجلداً، أم

المقدسي الذي اختصره في ثلاثة.. أم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي الذي له كتاب في الجغرافية أيضاً؟!

إن الخطأ في نسبة بعض أسماء الكتب إلى مؤلفيها بدقة سببه عدم التحقيق؛ حيث ترد عدة أسماء لكُتّاب يحملون اللقب نفسه مع تداخل قليل في النسب. كما أن بعض المؤلفين يذكرون اسمهم الأول مع اللقب، أو الكنية مع الاسم الأول، أو الكنية واللقب، وأحياناً يضيع الاسم.. والالتباس نفسه وقع مع كثيرين كما في نسب ابن الأثير المؤرخ، ولا سيما وله أخوان مؤلفان.

٦) يوسف بن كريون:

المسمى يوسفوس فلافيوس، وهو كاهن يهودي استسلم للرومان خلال تمرد اليهود، وتنبأ لقائد القوات الرومانية فسباسيان بأنه سيصير إمبراطوراً، فعفى عنه وقربه منه فغير اسمه تملقاً للرومان وتسمى بيوسفوس فلافيوس. وقد شهد مع تيتوس القضاء على اليهود وتشتتهم وخراب أورشليم والمعبد ٧٠ ميلادي. وعاد مع تيتوس إلى روما، ومن كتبه: "تاريخ اليهود القديم وكتاب حرب اليهود". وهو في كتابه عن حرب اليهود يدافع عن سياسة تيتوس وما فعله![١]

واعتماد ابن خلدون على يوسف بن كريون لا يعفيه من تحمل مسؤولية نقل الأكاذيب، فالكاتب كاذب وغير ثقة عند الجميع ولا فرق بين كذبه وكذب التوراة.

٧) وهذا يذكرنا بالمؤرخين حيث لم يرق لهم أن يتزوج إسحق ومن بعده ابنه يعقوب من عشيرتهم الوثنية في حران، فلذلك أدخلوا العشيرة في بوتقة الإيمان! ولكن كيف نسي المؤرخون أن إبراهيم نفسه الذي أرسل ابنه إسحق إلى خاله حتى لا يتزوج كنعانية وثنية، هو نفسه تزوج كنعانية وثنية بل تزوج اثنتين كما يذكر المؤرخون،

---

١ - الموسوعة البريطانية: (Britannica)، مادة: (Josephus, Flavius).

٨) وكذلك تزوج إسماعيل وثنية، ويوسف أيضاً..!

٩) الحكاية كما في التوراة:

أحب شكيم بن حمور دينة ومارس الجنس معها. ثم طلب من أبيه أن يخطبها له ليتزوجها. فوافق الأب وطلبها من يعقوب فوافق. وتم الاتفاق على الزواج لكن بشرط أن يختتن شكيم وكل قومه (تكوين ٣٤/ ١٥ - ١٦).

ويوافق حمور وشكيم. ويختتن أفراد القبيلة كلهم. لكن الاختتان كان "كيد ومكروا بهما لأنه دنس دينة أختهم" (تكوين ٣٤/ ١٣).

وفي اليوم الثالث، انقض عليهم شمعون ولاوي من أبناء يعقوب، وقتلوا بالسيف كل ذكر في القبيلة بما في ذلك حمور وشكيم. ثم نهبوا القبيلة وسبوا الأطفال والنساء. (تكوين ٣٤/ ٢٥ وما بعد..).

١٠)صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ج ٤ - ص ١٦٠.

١١)صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ج ٤ - ص ١٦٤.

الفصل الثالث عشر
ما تجاهله المؤرخون العرب القدماء

إن التوراة برؤيتها المريضة لكنعان/ شعب فلسطين، شوهته ووصفته بأقبح الصفات.. ولكن ولضعف القدرات عند مؤلفي الأسفار لم يتمكنوا كلياً من تشويه كنعان، فهناك نصوص عديدة تشهد بأن كنعان شعب موحِّد، ومسالم وطيب القلب، وصانع للحضارة..

ومؤرخونا لم يقرؤوا ذاك الوجه الآخر لكنعان في الأسفار بروح موضوعية. فالمحطات التي تستحق التوقف عندها ولو قليلاً، قفزوا سريعاً مبتعدين عنها.. بل هم زايدوا على التوراة في تشويه كنعان أكثر كما عند اليعقوبي وابن كثير.

وسنستعرض هنا بعض تلك المحطات: عقاب كنعان البريء، دعوة كنعان للإيمان، كنعان الموحد، طيبة كنعان ونبله، نضال شعب كنعان.

١. عقاب كنعان البريء:

لقد تداولوا قضية حام مع أبيه ولكن الغريب في الأمر أنه لم تلفت انتباههم العقوبة التي أسقطت على كنعان، بينما الذي ارتكب الخطأ بحسب النص هو حام!

لِمَ لم يسأل أحد منهم: ما ذنب كنعان إذا أخطأ أبوه حام بحسب أسطورة التوراة، وكلهم يؤمن بالآية القرآنية: (**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولً**) (سورة الإسراء/ الآية ١٥، والزمر الآية ٧)، كما جاءت بتوضيح أكثر في سورة الأنعام/ الآية ١٦٤: (**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**)،

في سورة فاطر/ الآية ١٨: (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**)

فلِمَ لمْ يجعلوا القرآن الذي يؤمنون به هو المقياس في الحكم على نص التوراة؟!

حام لم يعاقب ولم يمسه شيء مع أنه هو الذي واقع امرأته في السفينة كما جاء عند بعضهم، أو رأى عورة أبيه نوح كما روى من اعتمد على التوراة.

✍ **فلِمَ لم يعاقب الأب صاحب الجريمة؟!**

وهل العقوبة قصاص عادل على تلك الخطيئة/ الجريمة؟ ما تلك الجريمة الشنعاء التي قصاصها اللعنة الأبدية والعبودية، ألا يكفي التأنيب والتوبيخ مع التوجيه التربوي؟!

ونوح وقد لفه الغضب هل نسي أنه نبي وأب، أليس حام ابنه من لحمه ودمه وسلالة حام من دمه؟! أين الأبوة والحب والتسامح؟!

✍ **العقوبة أن يكون كنعان/ شعب فلسطين:**

١. ملعوناً ومطروداً من رحمة الله.
٢. عبداً.
٣. أسود!

صحيح أن بعضهم انتبه إلى تفاهة عقوبة اللون، وأعني ابن خلدون، ولكن الآخرين اقتنعوا بها وعدوا السواد عقوبة ولم ينتبهوا إلى العنصرية! بل ربطوا بين البياض/ الشقرة ونسل سام المبارك ويافث!

وابن حزم نقد فكرة اللعنة من منطلق آخر وهو أن الدعاء على نسل حام لم يتحقق فقد كونوا دولاً وسادوا في مناطق واستعبدوا في مناطق أخرى، والأمر نفسه ينطبق على سلالة سام فهما متساويان، وبالتالي القضية أكذوبة نسبت إلى نوح: (وبعد ذلك أن نوحاً إذ بلغه فعل ابنه حام أبي كنعان قال ملعون أبو كنعان عبد العبيد يكون لإخوته، مستعبداً يكون لأخويه، يبارك الإله ساماً ويكون أبو كنعان عبداً لهم. إحسان الله ليافث ويسكن في أخبية سام، ويكون أبو كنعان عبداً لهم.

ثم نسي نفسه المحرف أو تعاظم استخفافاً بهم فلم يطل، لكنه بعد ستة أسطر قال إذ ذكر أولاد حام: فقال بنو حام كوش ومصرايم وفوح وكنعان وبنو كوش وصبان وزويلة ورغاوة ورعمة وسفتخا وبنو رعمة السند والهند، وكوش ولد نمرود إلى ابتدأ يكون جباراً في الأرض الذي كان جبار صيد بين يدي الله عز وجل، وكان أول مملكته بابل.

فحصل من هذا الخبر تكذيب نوح في خبره وهو بإقرارهم نبي معظم جداً وإذ وصف أن ولد أبي كنعان صاروا ملوكاً على إخوة بني كنعان وعلى بنيهم. ثم العجب كله على أن ما توجبه توراتهم كان ملك نمرود بن كوش بن كنعان بن حام على جميع الأرض، ونوح حي وسام بن نوح حي، لأن في نص توراتهم أن نوحاً عاش إلى أن بلغ إبراهيم بن تارح عليه السلام ثمانية وخمسين عاماً. وأن سام بن نوح عاش إلى أن بلغ يعقوب وعيصاً ابنا إسحق بن إبراهيم عليهما السلام خمساً وأربعين سنة على ما ذكره من مواليدهم أباً فأباً.

فما لنا نرى خبر نوح معكوساً، فإن قالوا إن السودان تملكوا اليوم قلنا وفي السودان ملك عظيم جداً وممالك شتى كغانة والحبشة والنوبة والهند والتبت والأمر بينهم سواء، يملكون طوائف من بني سام كما يملك بنو سام طوائف منهم، وحاش لله أن يكذب نبي)[1].

١. ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل - ج ١ - ص ٩٨ ، ٩٩.

فابن حزم عدّ اللعنة كذباً لأنها لم تتحقق، ولأن نوحاً نبي معصوم وما يقوله يجب أن يتحقق. ولم ينقدها كفكرة في حد ذاتها!

لذلك نستغرب ألا يحس المؤرخون بشيء ما غير طبيعي ومبالغ فيه إلى حد يتجاوز المعقول، فلماذا جعلوه أحط وأحقر من إبليس!

ولِم زايد بعضهم على التوراة في طعن كنعان والنيل منه أكثر، واستنساخه عدة مرات ككافر وشرير وفاسق وماجن.. !

لم يكن الأمر عند عزرا وغيره من الكتبة إلا تعبيراً عن حقدهم وكراهيتهم لشعب كنعان لأنه صدهم عن محاولة احتلال أرضه!

وطبعاً نحن نقول ذاك بناء على قراءة معطيات التوراة، والإسرائيليات التي غزت فكر المؤرخين والمفسرين، أما على أرض الحقيقة فكل ذلك دجل وكذب!

وعلى كل عوقب إبليس باللعنة لأنه هو نفسه صاحب المعصية وأية معصية هي، ولكنه بقي رغم ذلك حراً طليقاً ولم يعاقب بالسواد ولا بالعبودية أبداً. بينما كانت عقوبة كنعان المسكين أقسى وأشد؛ اللعنة والعبودية إلى الأبد وهو نفسه بريء لم يقترف أي خطأ!

٢. دعوة كنعان للإيمان:

لقد افترض المؤرخون بناء على معطيات التوراة أن كنعان وثني، والسؤال الذي كان ينبغي أن يسأله المؤرخون القدماء كلهم: هل حاول أحد من الآباء (إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف) ثم موسى ويوشع ومن جاء بعده.. أن يهدي الكنعانيين إلى الإيمان، بما أنهم وثنيون بزعمهم؟!

لا يوجد ما يشير إلى ذلك أبداً، لكن بعض المؤرخين القدامى، ادعوا ذلك من عندهم دونما اعتماد على أي مصدر أو سند يتكئون عليه!

إذاً كيف يحل قتل قوم مسالمين لم يعتدوا على أحد، واحتلال أرضهم واغتصاب نسائهم واستعبادهم والتمتع بأرضهم وممتلكاتهم وخيراتهم.. قبل دعوتهم للإيمان كما يُفترض في الدين؟! بينما هناك الهداية المستمرة لبني إسرائيل عندما يضلون ويخرجون على تعاليم أنبيائهم.. وما أكثر فسوقهم ورغم ذلك كان الإله يتحملهم ويصطفيهم! فلم الدلال كله للإسرائيليين، بينما رأس كنعان تحت السيف دائماً؟!

لم حاول الأنبياء بإلحاح هداية شعوبهم وزعمائهم ومناقشتهم كما جاء في حكاية إبراهيم والنمرود ثم موسى وفرعون.. فلم شعب كنعان مستثنى من الهداية؟!

فهل كان شعب كنعان مؤمناً ولا يحتاج لهداية؟ إذا صح ذلك وهو صحيح حقاً، فكيف تعطى أرضه للآخرين، أليست التوراة هي الكاذبة؟!

٣. كنعان الموحد:

على الرغم مما ادعته التوراة ومؤرخونا القدماء نقول: كنعان كان موحداً أكثر من أبي التوحيد إبراهيم النبي كما ورد في نص التوراة.

لقد جاء في التوراة أن ملكي صادق ملك أورشليم استضاف إبراهيم بعد عودته من ملاحقة الملوك وانتصاره عليهم.. وقال له: (مبارك أبرام من اللّه العلي، مالك السماوات والأرض. ومبارك اللّه العلي الذي أسلم أعداءك إلى يديك. وأعطاه العشر من كل شيء) [تكوين ١٤/ ١٩ - ٢٠].

لنتأمل هذه الكلمات التي قالها ملك الفلسطينيين/ الكنعانيين (اللّه العلي، مالك السماوات والأرض. مبارك اللّه العلي)، أليست قمة التوحيد؟

ولم يكن الملك وحده المؤمن بل شعبه أيضاً؛ أليس الناس قديماً على دين ملوكهم، أم أن ملكي صادق وحده المؤمن دون شعبه؟

ولا ننسى أن ملكي صادق جمع بين الحكم الديني والزمني فقد كان ملكاً وأيضاً (كاهناً للّه العلي) [تكوين ١٤/ ١٨].

لقد عرفت فلسطين والمنطقة التوحيد قبل مجيء إبراهيم، ومن هنا لفت توحيد ملكي صادق نظر اللاهوتيين المسيحيين فأعطوه مكانة عالية، بل جعلوا توحيده أجلّ من توحيد إبراهيم، بينما لم يلفت نظر مؤرخينا المسلمين لا من قريب ولا من بعيد، وكأنما لم يقرؤوا عنه أو يسمعوا به!

وهناك موحِد آخر وهو أبيمالك ملك جرار والذي أرادت التوراة أن تحقره بفعل الرذيلة، لكنها ودون قصد منها أعطت صورة تفوق بإنسانيتها وتوحيدها ما صورت به إبراهيم ومن بعده ابنه إسحق؛ حيث تتكرر الحكاية نفسها معه رغم أن اللاهوتيين يدعون بأنه ملك آخر، وعلى كل ليست هذه بمشكلة لنقف عندها!

وحكاية أبيمالك هي تكرار لما جرى لإبراهيم مع فرعون مصر، وقد جاء في سفر التكوين ـ الإصحاح ٢٠:

(١ .... وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ. ٢ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. ٣ فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْلٍ». ٤ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا. فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟ ٥ أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي إِنَّهَا أُخْتِي وَهِيَ أَيْضاً نَفْسُهَا قَالَتْ هُوَ أَخِي؟ بِسَلاَمَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هَذَا». ٦ فَقَالَ لَهُ اللهُ فِي الْحُلْمِ: «أَنَا أَيْضاً عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلاَمَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هَذَا. وَأَنَا أَيْضاً أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ لِذَلِكَ لَمْ أَدَعْكَ تَمَسُّهَا. ٧ فَالْآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ فَيُصَلِّيَ لأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتاً تَمُوتُ أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ». ٨ فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هَذَا الْكَلاَمِ فِي مَسَامِعِهِمْ. فَخَافَ الرِّجَالُ جِدّاً. ٩ ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالاً لاَ تُعْمَلُ عَمِلْتَ بِي!». ١٠ وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِبْرَاهِيمَ: «مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هَذَا الشَّيْءَ؟» ١١ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ الْبَتَّةَ فَيَقْتُلُونَنِي لأَجْلِ

امْرَأَتِي. ١٢ وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضاً هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً. ١٣ وَحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هَذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قُولِي عَنِّي هُوَ أَخِي». ١٤ فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَماً وَبَقَراً وَعَبِيداً وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. ١٥ وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هُوَذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسُنَ فِي عَيْنَيْكَ». ١٦ وَقَالَ لِسَارَةَ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكِ أَلْفاً مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكِ غِطَاءُ عَيْنٍ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكِ وَعِنْدَ كُلٍّ وَاحِدٍ فَأُنْصِفْتِ». ١٧ فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ – ١٨ لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ).

تلك الآيات تحمل في طياتها صورة نبيلة عن أبيمالك لم يقصدها واضعو التوراة ولم يلتفت إليها مؤرخونا:

١. اتصال الله مباشرة بأبيمالك ودون وساطة عبر الحلم.
٢. معرفة الله بسلامة قلب أبيمالك ونيته.
٣. منع الله أبيمالك من الوقوع في الخطيئة.
٤. استجابة أبيمالك لطلب الله وإطاعته.
٥. معاتبة أبيمالك إبراهيمَ على ما قام به وبأنه عمل لا يفعله أحد.
٦. تقوى الله تجعل أبيمالك يخشى الله ويخاف من عقابه إن أذنب هو أو شعبه.
٧. وهب أبيمالك إبراهيمَ غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفاً من الفضة، وعرض عليه أن يختار ما شاء من أرضه ليسكن فيها.
٨. قدم اعتذاراً لزوجة إبراهيم سارة.

ثماني نقاط من الإيمان بالله، والأخلاق العالية كالصدق والأمانة والصراحة والشهامة والتواضع والكرم..

بينما إبراهيم هو الذي ارتكب الخطأ وكذب، ولم ينبهه الله إلى أي شيء، بل لم يحذره من المجيء إلى جرار كما لم يحذره في الحكاية السابقة المشابهة من دخول مصر والتعرض للمهانة على يد فرعون، بينما أسرع إلى أبيمالك في المنام ليعصمه من الخطأ!

✍ **فأيهما مكانته أقرب إلى الله بحسب قراءة النص؟**

لم أغفل مؤرخونا هذه الحكاية وساروا ضمن ما يريده كتبة التوراة؟!

وتستمر الأحداث فنقرأ أن الملك أبيمالك يأخذ عهداً من إبراهيم ألا يغدر به وبذريته، فمن هو الشرير ومن هو الصادق والمستقيم؟!

(٢٢ وَحَدَثَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنَّ أَبِيمَالِكَ وَفِيكُولَ رَئِيسَ جَيْشِهِ قَالاَ لإِبْرَاهِيمَ: «اللهُ مَعَكَ فِي كُلِّ مَا أَنْتَ صَانِعٌ. ٢٣ فَالآنَ احْلِفْ لِي بِاللهِ هَهُنَا أَنَّكَ لاَ تَغْدُرُ بِي وَلاَ بِنَسْلِي وَذُرِّيَّتِي. كَالْمَعْرُوفِ الَّذِي صَنَعْتُ إِلَيْكَ تَصْنَعُ إِلَيَّ وَإِلَى الأَرْضِ الَّتِي تَغَرَّبْتَ فِيهَا». ٢٤ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «أَنَا أَحْلِفُ»).

ويحلف إبراهيم للملك ألا يغدر به وبأسرته. ولو كان ابيمالك ملكاً فاجراً طاغية مستبداً، هل يخاطب إبراهيم بتلك اللغة، أم يقتله شر قتلة؟!

والحكاية كما قلنا تتكرر مع إسحق في الإصحاح السادس والعشرين: (٦ فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ. ٧ وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ فَقَالَ: «هِيَ أُخْتِي». لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةَ» لأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. ٨ وَحَدَثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ وَإِذَا إِسْحَاقُ يُلاَعِبُ رِفْقَةَ امْرَأَتَهُ. ٩ فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ وَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ! فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟» فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا». ١٠ فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلاَ قَلِيلٌ لاَضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ فَجَلَبْتَ عَلَيْنَا ذَنْباً». ١١ فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ: «الَّذِي يَمَسُّ هَذَا الرَّجُلَ أَوِ امْرَأَتَهُ مَوْتاً يَمُوتُ».....

(٢٦ وَذَهَبَ إِلَيْـهِ مِـنْ جَـرَارَ أَبِيمَالِـكُ وَأَحُـزَّاتُ مِـنْ أَصْـحَابِهِ وَفِيكُـولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ. ٢٧ فَقَالَ لَهُمْ إِسْحَاقُ: «مَا بَالُكُمْ أَتَيْتُمْ إِلَيَّ وَأَنْتُمْ قَدْ أَبْغَضْـتُمُونِي وَصَـرَفْتُمُونِي مِـنْ عِنْـدِكُمْ؟» ٢٨ فَقَـالُوا: «إِنَّنَـا قَدْ رَأَيْنَـا أَنَّ الـرَّبَّ كَـانَ مَعَـكَ فَقُلْنَا: لِيَكُنْ بَيْنَنَـا حَلْفٌ بَيْنَنَـا وَبَيْنَـكَ وَنَقْطَـعُ مَعَـكَ عَهْداً: ٢٩ أَنْ لاَ تَصْـنَعَ بِنَـا شَرّاً كَمَا لَمْ نَمَسَّكَ وَكَمَا لَمْ نَصْنَعْ بِكَ إِلَّا خَيْراً وَصَرَفْنَاكَ بِسَلاَمٍ)...

فلِم تجاهل مؤرخونا ذلك كله!؟

وهناك موحد آخر وهو بلعام بن بعور وقد ورد ذكره في الحديث عن تاريخ الطبري الهامش الثامن: (بلعم بن باعور المعروف وكان رجلاً قد آتاه الله علماً وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون، الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى...).

لقد عده بعضهم كنعانياً، إضافة إلى التخمينات العديدة وكلها غير يقينية، والمهم في الأمر هو أن التوحيد كان موجوداً في كنعان ومنتشراً!

وقد وردت حكايته في سفر العدد – الإصحاح ٢٢: فقد استدعاه بالاق ملك مؤاب ليساعده على الانتصار على موسى وبني إسرائيل وقال له: (٦ لأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالذِي تَلعَنُهُ مَلعُونٌ)..

كان بلعام موحداً وعلى علاقة بالله ودعوته مستجابة، ولكن فجأة تمسخه التوراة وتحوله إلى كافر عاق وملعون..! ومؤرخونا يسيرون في ركاب التوراة فيقومون بتحطيمه بصورة أشنع!

والغريب أن موحداً يصل إلى مستوى معرفة الاسم الأعظم لله، وهذا له من الدلالات ما ملأ كتب التصوف والعارفين بالله في التراث الإسلامي... فهل يمكن بعد ذاك الارتقاء في السلم الإلهي أن يسقط سقوطاً ذريعاً؟!

إن من يقرأ حكايته في التوراة يكتشف ضعفها وتناقضاتها؛ فالتوراة تقول إن الرب جاء إلى بلعام ليطلب منه ألا يلعن بني إسرائيل لأن لعنته مستجابة، أليس الطالب عدم الدعاء هو نفسه الذي سيستجيب، أم هناك إلهان؟!

وهنا سنذكر مقتبساً لتعليق على قضية اللعنة والذي ورد في كتابنا: "الشخصيات الأسطورية في العهد القديم وثالوث عزرا": (فمن الذي سيحقق دعوته ولعنته، أليس من المفترض أنه الرب الذي جاءه. فهل يقول له: لا تلعن لأنني مجبر على استجابة لعنتك؟!

أم هناك ربّان: رب لموسى ورب لبلعام، فجاء رب موسى إلى بلعام راجياً ألا يلعن قومه. وهذا يعني أن موسى نفسه كان يخشى لعنة بلعام عليه وكان يؤمن بأن رب بلعام أقوى من ربه، وإلا أين دور ربه في درء اللعنة!؟

✍ والسؤال: لِمَ انقلب بلعام؟!

التوراة تقول: بسبب ضغط بالاق والشيوخ. والموسوعة الكتابية تسميه النبي الكذّاب. والمؤرخون العرب يقولون: لقد ضل..

ولكن من خلال السياق نتبين أن الهدف هو تشويه توحيد بلعام وتشويه سمعة الموآبيين، ولتعليل إخفاق موسى بسبب المعصية التي أوقعهم فيها بلعام)[١].

لماذا لم يقرأ مؤرخونا كنعان في التوراة بعمق، ولو من باب الفضول لمعرفة حقيقة المارق كنعان النقيض لأبناء الله الملائكة والمعادل لإبليس في نظرهم، طالما هم آمنوا بشكل ما بتحريف التوراة، وشنعوا كثيراً سلوك اليهود؟!

لماذا ربط بعضهم الآية ١٧٥ من سورة الأعراف [وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ] ببلعام التوراتي؟ أكان صعباً على الآية تحديد العلم صاحب العلاقة، أم عدم التعيين هو منهج في القرآن لأنه ينطبق على كل من يتصف بتلك الصفة التي ذكرتها الآية؟!

١- جميل خرطبيل: الشخصيات الأسطورية في العهد القديم وثالوث عزرا – ص ١٢٣.

وبما أن شعب كنعان مؤمن وموحد وأخلاقي أو على الأقل بعضه، فهل يعقل أن يمنح الله إبراهيمَ وذريته من بعده أرضَ كنعان بل ومن الفرات إلى النيل، بناء على الحجة الواهية التي يكررونها؟!

كيف صدقوا تلك الأكاذيب وشوهوا معها الله، وهو الحق والخير والعدل؟!

٤. طيبة كنعان ونبله:

لقد كان شعب كنعان مسالماً ومحباً للخير، ومر معنا ترحيبه بإبراهيم ومن بعده إسحق ويعقوب.. وكيف تجاوز أبيمالك أخطاء إبراهيم وإسحق وشهامته معهما، كما تذكر التوراة نفسها.

وهنا نموذج لطيبة كنعان ونبله، وقد ورد ذلك في حكاية مغارة المكفيلة في التوراة: (٢ وَمَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَعَ "الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ" فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَى إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِيَ عَلَيْهَا. ٣ وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامِ مَيِّتِهِ وَقَالَ لِبَنِي حِثَّ: ٤ «أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مُلْكَ قَبْرٍ مَعَكُمْ لأَدْفِنَ مَيِّتِي مِنْ أَمَامِي». ٥ فَأَجَابَ بَنُو حِثَّ إِبْرَاهِيمَ: ٦ «اِسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا ادْفِنْ مَيِّتَكَ. لاَ يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْرَهُ عَنْكَ حَتَّى لاَ تَدْفِنَ مَيِّتَكَ». ٧ فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ لِبَنِي حِثَّ ٨ وَقَالَ: «إِنْ كَانَ فِي نُفُوسِكُمْ أَنْ أَدْفِنَ مَيِّتِي مِنْ أَمَامِي فَاسْمَعُونِي وَالْتَمِسُوا لِي مِنْ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ ٩ أَنْ يُعْطِيَنِي مَغَارَةَ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي لَهُ الَّتِي فِي طَرَفِ حَقْلِهِ. بِثَمَنٍ كَامِلٍ يُعْطِينِي إِيَّاهَا فِي وَسَطِكُمْ مُلْكَ قَبْرٍ». ١٠ وَكَانَ عِفْرُونُ جَالِساً بَيْنَ بَنِي حِثَّ. فَأَجَابَ عِفْرُونُ الْحِثِّيُّ إِبْرَاهِيمَ فِي مَسَامِعِ بَنِي حِثَّ لَدَى جَمِيعِ الدَّاخِلِينَ بَابَ مَدِينَتِهِ: ١١ «لاَ يَا سَيِّدِي اسْمَعْنِي. الْحَقْلُ وَهَبْتُكَ إِيَّاهُ وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ لَكَ وَهَبْتُهَا. لَدَى عُيُونِ بَنِي شَعْبِي وَهَبْتُكَ إِيَّاهَا. ادْفِنْ مَيِّتَكَ». ١٢ فَسَجَدَ إِبْرَاهِيمُ أَمَامَ شَعْبِ الأَرْضِ ١٣ وَقَالَ لِعِفْرُونَ فِي مَسَامِعِ شَعْبِ الأَرْضِ: «بَلْ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ إِيَّاهُ فَلَيْتَكَ تَسْمَعُنِي. أُعْطِيكَ ثَمَنَ الْحَقْلِ. خُذْ مِنِّي فَأَدْفِنَ مَيِّتِي هُنَاكَ». ١٤ فَأَجَابَ عِفْرُونُ إِبْرَاهِيمَ: ١٥ «يَا

سَيِّدِي اسْمَعْنِي. أَرْضٌ بِـأَرْبَعِ مِئَـةِ شَـاقِلِ فِضَّـةٍ مَـا هِـيَ بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ؟ فَادْفِنْ مَيِّتَكَ»...).

لقد قرأ مؤرخونا تلك الحكاية ومنهم من ذكرها، ولكن لم يقف عندها!

تتجلى إنسانية إحدى قبائل كنعان بكل أبعادها؛ فإبراهيم يقف مكسور الخاطر ويبكي متألماً من جراحه: "أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي"، فكان جوابهم ينبع بالطيبة وكرم الأخلاق والتعاطف مع آلام الآخرين، والسمو في التعامل مع الغريب: "اسمعنا يا سيدي، أنت رئيس من الله بيننا، في أفضل قبورنا ادفن ميتك"..

لقد قالوا له: اختر ما شئت وليكن أفضل مكان عندنا فهو لك!

ولما حدد المكان تقدم صاحبه عفرون بشهامة النبلاء والكرماء ووهبه المكان "المغارة" بل والحقل كله معها!!

كيف فوت مؤرخونا هكذا حكاية ولم يعلقوا عليها منساقين وراء مؤلفي التوراة بأن الله داس ذاك الشعب الطيب وأعطى أرضه وغيرها لإبراهيم ومن بعده..

أين الشهامة والأخلاق الحميدة والفضيلة ولا سيما حفظ المعروف ورد الجميل؟!

ولا ننسى كيف احتضن الفلسطينيون داود المشرد والملاحق والمهدد بالقتل. كما لا ننسى أن الإسرائيليين بحسب نصوص الأسفار، عاشوا على أرض كنعان، فغفر كنعان لهم جرائمهم وصفح وتسامح، وأكثر من هذا فقد أقام معهم علاقات طبيعية اختلاطاً وتزاوجاً، ولكن كهنة الإسرائيليين هم الذين كانوا يصبون على أتباعهم نار الغضب احتجاجاً واستنكاراً ورفضاً لذاك!

إن عزرا والكتبة لم يبالوا بتوحيد كنعان ولا بنبله وأخلاقه وتسامحه، فما كانوا يريدونه هو الاستيلاء على أرض كنعان بأي شكل ما، وانساق وراءهم مؤرخونا طامسين ومشوهين حقيقة كنعان ومتجاهلين صورته المشرقة التي تسربت من بين أصابع الرقيب!!

٥. نضال شعب كنعان:

لقد تم توضيح خطأ المفسرين للآيات التي تتحدث عن الأرض المقدسة والقرية.. وهي تختلف عن الأسفار التي جوهرها استعمار فلسطين.

جاء في التوراة: (٧ لأَنَّ \الرَّبَّ إِلهَكَ آتٍ بِكَ إِلى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي \البِقَاعِ وَ\الجِبَالِ. ٨ أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِينٍ وَرُمَّانٍ. أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ وَعَسَلٍ. ٩ أَرْضٌ لَيْسَ بِالمَسْكَنَةِ تَأْكُلُ فِيهَا خُبْزاً وَلا يُعْوِزُكَ فِيهَا شَيْءٌ) [التثنية: الإصحاح ٨ - الآيات ٧، ٨، ٩].

وفي سفر القضاة [١٨/ ١٠]: (... لِأَنَّنَا رَأَيْنَا الْأَرْضَ وَهُو ذَا هِيَ جَيِّدَةٌ جِدّاً وَأَنْتُمْ سَاكِتُونَ. لاَ تَتَكَاسَلُوا عَنِ الذَّهَابِ لِتَدْخُلُوا وَتَمْلُكُوا الْأَرْضَ. ١٠ عِنْدَ مَجِيئِكُمْ تَأْتُونَ إِلَى شَعْبٍ مُطْمَئِنٍّ وَالْأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرَفَيْنِ. إِنَّ اللهَ قَدْ دَفَعَهَا لِيَدِكُمْ. مَكَانٌ لَيْسَ فِيهِ عَوَزٌ لِشَيْءٍ ممَّا فِي الْأَرْضِ)!

فتلك الآيات تلخص هدف الكتبة. والقارئ النزيه لحقيقة التوراة يصل إلى ذلك بيسر وسهولة، ويدرك الإسقاطات والتزوير.

وعلى أرضية تلك الأيديولوجيا التوراتية يعتدي الغزاة الإسرائيليون على كنعان المسالم المطمئن في أرضه، ليقتلوه ويسرقوا أرضه وينهبوا خيراته ويستبيحوا نساءه ويستعبدوا أولاده..

فهل المطلوب من كنعان الطيب أن يمنحهم أرضه وممتلكاته، ويسلم رقبته لشفرة السيف والنوارج؟!

لم يستسلم كنعان، وناضل وضحى من أجل أهله وشعبه وأرضه وممتلكاته.. ونصوص الأسفار على امتدادها تتحدث عن استمرار القتال بين الشعب الكنعاني/ الفلسطيني والغزاة الهمج؛ فالإسرائيليون هم المعتدون وكنعان دافع عن حريته وكرامته وحقوقه وكينونته.. ولم يتوقف عن كفاحه ولم يدع الغزاة يستقرون آمنين.. وذاك ما يقرأه المنصف.

لقد أثر الغزو الثقافي اليهودي على فهم مؤرخينا للتاريخ القديم، ولعبت شجرة العائلة التوراتية فعلها. ومع أن مؤرخينا ذكروا أن كنعان من أجدادهم العرب ولكنهم أسقطوه من خارطة الكرامة البشرية ليلهثوا وراء حقد كتبة التوراة وجشعهم وأنانيتهم وطمعهم بأرض كنعان!

وبالتالي أفنوا كينونته، وجعلوا بني إسرائيل يمتلكون فلسطين وبلاد الشام.. ولم ينتبه معظمهم إلى أنفسهم وهم يتابعون سرد تاريخ الإسرائيليين بأنه بين فينة وأخرى يتحدثون عن قتال بين الإسرائيليين والكنعانيين أو الفلسطينيين، فكيف ذاك وقد أفنوا كنعان ودفنوه، ورحلوا من بقي منه ليتحول إلى شعب آخر في إفريقيا وهم البربر؟!

وقد انتبه ابن حزم إلى ذلك وبالتالي اعترف بكفاح شعب كنعان، كما أنه رفض أن يكون الإسرائيليون قد سيطروا على فلسطين كلها، بل عدهم كاذبين وأخذ يحسب بالأميال ما سيطروا عليه ولفترات ليست بالدائمة، فظهرت له رقعة صغيرة لا أكثر، والسبب واضح وهو مقاومة ونضال شعب كنعان (التي لم تزل تحاربهم طول مدة دولتهم وتذيقهم الأمرين إلى انقضاء دولتهم)[1].

✍ **فلماذا انتبه ابن حزم لتلك القضية ولم ينتبه لها مؤرخونا؟!**

ولما أخفق الكتبة بمشروعهم ولم يقدروا على استعباد كنعان، عكس لاشعورهم انتصارات وهمية؛ فصار الإسرائيلي ممثلاً بداود الولد الصغير

---

١ - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل - ج ١ - ص ١٠٢.

رمز الشجاعة والذكاء؛ فبالمقلاع يقضي على رمز الفلسطينيين جالوت المدجج بالسلاح. ومن مؤرخينا من زايد على الحكاية فجعل حجر المقلاع يتناثر إلى ثلاثة: فالأول يقضي على جالوت والثاني يقضي على ميمنة جيشه والثالث يقضي على ميسرته!

لقد كان صعباً على مؤرخينا القدماء أن يستوعبوا مقصود عزرا بمقلاع داود؛ وهو تصوير الفلسطيني، بأنه برميل مصفح أجوف وخال من العقل. بينما اليهودي الشجاع والذكي يفكر بعقله ويقدر أن ينتصر بسهولة على عدوه مهما كان قوي الجسم ومدججاً بالسلاح!

وتلك الفكرة نشرها وعممها الغرب والصهاينة في كتبهم وموسوعاتهم، فقد جعلوا الكنعانيين/ الفلسطينيين قبيلة هامشية مرت عرضاً في تاريخ الإسرائيليين الأصيل في فلسطين. وجعلوا الفلسطيني المجسد في جالوت طبلاً أجوف وضخامة فارغة وعقلاً أخرق! بينما جعلوا الإسرائيلي المجسد في داود الذكي والشجاع رمز البناء والتقدم والتطور.. !

ومن الانتصارات الوهمية الأخرى التي عكسها اللاشعور عند الكتبة حكاية شمشون المسروقة من تراث المنطقة. ونقلها مؤرخونا فصارت حكاية شمشون البطل الإسرائيلي وزوجته الفلسطينية الخائنة والغادرة!

والأسفار بعد أن وجدت كنعان أمامها صلباً في صموده وتصديه لهم لم ترد أن ترى الحقيقة، فلجأت إلى خداع الذات؛ فادعت بأن شعب كنعان أنهته، وبأن الذي يقاتلهم هو شعب آخر غير كنعان، إنهم فلسطينيون غرباء قدموا من جهة البحر!

وهم بذاك جعلوا الصراع الأساسي في فلسطين، يدور بين الإسرائيليين أصحاب الأرض الشرعيين الذين عادوا من الأسر المصري إلى أرض آبائهم وأجدادهم بإرادة مطلقة من يهوه وبصك أبدي، وبين الفلسطينيين الوثنيين والمتخلفين الهمج، وهم غرباء أجانب لا علاقة لهم بفلسطين!

إن الفلسطينيين هم أنفسهم الكنعانيون الذين لم يرضخوا لمطامع بني إسرائيل وظلوا يقاتلونهم حتى النهاية.

تلك لمحات عن كنعان المغيب عند مؤرخينا، والتي اعتمدنا فيها على التوراة نفسها، ولكن مؤرخينا القدماء قفزوا فوقها وتجاهلوها. وهذا يجعلنا نستنتج بأن مؤرخينا لم يكونوا منصفين وعادلين مع كنعان!

انعكاس أخطاء المؤرخين القدماء على المعاصرين

إن ما كتبه علماؤنا القدماء في التاريخ أو التفسير.. اعتمد على الجمع، دونما دراسة أو تمحيص أو اعتماد على منهجية. وهذه العقلية التجميعية/ التكرارية وصلت إلى طريق مسدودة، حيث أخذت المؤلفات تتناوب ما بين اختصار وتطويل وشروحات وحواشٍ على الشروحات.. مما أدى في النهاية إلى تراكم كمي في تراثنا بكل تنوعاته حتى الفقه والنحو.. ولم ينتج قفزة نوعية باتجاه الإبداع والتطوير بحسب القانون الطبيعي، والسبب لأن ذاك الكم لم يكن تنوعاً كيفياً إنما كان تكريراً، حيث سيطرت معلومات محددة تداولها المؤلفون عن بعضهم عبر الزمن، كنسخ كربونية.

وهم بانحيازهم إلى النص التوراتي كحقيقة، شرعوا الأبواب للغزو الثقافي اليهودي؛ فانتقل التراث اليهودي إلى التراث الإسلامي عبر قناة الأخبار والقصص والتاريخ القديم ولا سيما تاريخ الأنبياء!

وما ارتكبه المؤرخون والمفسرون القدماء من أخطاء بحق فلسطين وكنعان وبلاد الشام ومصر والعراق.. ما زلنا نكتوي بناره حتى الآن؛ فهناك كثير من المعاصرين يكرر مقولاتهم.. مما أوقع تلك الكتابات في مأزق ووضعها أمام إشكالية حرجة، ولا سيما أمام استعمار فلسطين وقضية القدس ومشروع إعادة بناء هيكل سليمان..

ونذكر من هؤلاء مصطفى مراد الدباغ ومحمد عزة دروزة وأحمد السوس وكذلك المفسرين الحديثين كالصابوني وعفيف طبارة.

ونتيجة ذلك أيضاً تخبط بعض المفكرين والباحثين في مناقشة الصهيونية، ففي أطروحاتهم ربطوا يهود العصر بيهود التاريخ، وربطوا يهود التاريخ ببني إسرائيل، ومملكة داود وسليمان المزعومة.

وهم يردون على الصهاينة بمنطق القدماء نفسه: الوعد ينطبق على الماضي في عصر بني إسرائيل، في زمنهم، وليس على امتداد الزمان كله، وكان مشروطاً بالتمسك بالدين.

ويتابعون: نعم أقام أجدادكم المملكة، لكنها لم تدم طويلاً فهي لم تتجاوز السبعين سنة أو المئة أو المئتين... ثم انهارت وتحطمت وانتزع كل شيء منكم. ولما جاء الإسلام انتهى أمركم وطوى الصفحة نهائياً وإلى الأبد!

وأمام هكذا طرح خاطئ لا تكون المشكلة كم من الزمن استمرت المملكة، ومتى انتهت.. **فهنا ثلاثة أخطاء فاحشة:**

١. الاعتراف بارتباط اليهود الحاليين بيهود التاريخ، وارتباط يهود التاريخ ببني إسرائيل القدماء. وهذا يعني جعل اليهودية إثنية.
٢. الإقرار بتاريخية التوراة وجغرافيتها على أرض فلسطين.
٣. الاعتراف بقيام المملكة المزعومة، وهيكل سليمان.

والصهيوني يكتفي بما حصل عليه من الإقرار، ويعلن بأنه يؤمن بالوعد المطلق وهو الوريث الشرعي له، ومن ثم لا تهمه فكرة أن الإسلام أنهى ذلك أم لم ينهه، لأنه لا يؤمن بالإسلام. ومنطقه الوحيد قائم على الخزعبلات المدعومة بالبندقية. فهو يدعي بأنه استعاد جزءاً من حقه التاريخي الذي صودر منه منذ أن طردهم الرومان، وطبعاً في أعماقه الاستعمارية: والبقية قادمة!

إن الرد لا يكون في الدخول إلى متاهة التزييف الصهيوني واليهودي، إنما يكون بتصحيح أخطاء الماضي وعدم تبنيها والاعتماد على الأسس السليمة؛ فلا توجد أية علاقة أو رابطة إثنية/ عرقية لليهود المعاصرين بيهود التاريخ وبني إسرائيل القدماء. فالتجمعات اليهودية تختلف في جنسها/ عرقها/ إثنيتها.. والانتماء إلى اليهودية هو انتماء إلى الديانة.

ويهود العالم معظمهم أوروبيون أشكناز من أصل خزري، ونسبتهم اليوم أكثر من ٨٠ % بحسب الموسوعة البريطانية، وحوالي ٨٥ % بحسب موسوعة الإنكارتا.

كما أنه لا يوجد دليل علمي واحد يثبت أن إبراهيم ونسله كانوا في فلسطين، وكذلك مجيء موسى ودخول يوشع إلى فلسطين، وأيضاً بناء داود وسليمان للمملكة المزعومة والهيكل.. فكل ذاك تاريخ ديني. وعلماء الآثار الموضوعيون يؤكدون ذلك.

إن مناقشة الصهاينة ليست أكثر من مماحكات فارغة إن تم التسليم بالتوراة، فالأسفار ليست وثيقة تاريخية ولا جغرافية، ولا يمكن أن تكون الهلوسات علماً. والكاتب الواعي لا يساير من يؤمن بتلك الأساطير، ولا يقبل بأخطاء مؤرخينا القدماء. فهم قد عرّفوا اليهود بشعب وأمة، مثل الشهرستاني حيث عرف اليهود بـ: (أمة موسى ÷).

وسحب ذاك التعريف الخاطئ على امتداد التاريخ اليهودي المزعوم، يعني الإقرار بنقاء العرق اليهودي المتوارث عبر التاريخ لأكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، وهذه فكرة عنصرية لم يقلها أحد سوى النازية والصهيونية!

إن اليهود لا يمتون بأية صلة إثنية ليعقوب أو لموسى أو لداود وسليمان. ولا علاقة للارتباط الديني بالجغرافيا أو التاريخ أو العرق والجنس، كما هو الحال بالنسبة للمسيحي الأوروبي أو الروسي وكذلك المسلم الباكستاني أو التركي!

كان سهلاً على الكاتب المؤمن بخرافة الوعد التوراتي أن يسأل الصهيوني: ما علاقتك الآن أنت أيها الصهيوني بذلك الوعد، فهل أنت من سلالة يعقوب أيها المحترم!؟

فالوعد بحسب التوراة كان لأسباط يعقوب إثنياً وليس دينياً فلم تكن هناك ثمة ديانة، وقد انقرضوا كلهم.

وحتى موسى وجماعته إذا تجاوزنا قضية كونهم من السلالة أو لا، هم أيضاً انقرضوا جميعاً قبل وأثناء السبي باعتراف الأسفار. ثم ظهرت اليهودية كدين جديد مع الكتبة ولم تكن الرابطة إثنية مطلقاً.

إن تغيير منهج البحث وآليته وتغيير الطرق التقليدية في التفكير والنقاش، يتبعه تغيير في المنظومة الفكرية.. وهذا ما يساعد في إعادة دراسة التاريخ الفلسطيني القديم، بل دراسة التراث العربي الإسلامي على ضوء العقل والعلم والمعرفة، وهذا يؤدي بالضرورة إلى تحديث الفكر العربي. فتحت شعار قضية التراث والمعاصرة وقع كثيرون وما زالوا يقعون في تزييف واستغباء العقل العربي. ولقد آن الأوان لنمتلك العقل الحكم النزيه والناقد الموضوعي والرؤية الشاملة.. بدلاً من تلك النظرة المتشنجة التي تدعي أن كل شيء قديم مقدس، وهي ترفض وجود السلبيات والأخطاء وتجد المبررات الجاهزة لها، وكذلك رأيها في التاريخ والأحداث والحكام وكل ما كتب.. تلك النظرة التي تجمع التناقضات كلها والإيجابيات والسلبيات في سلة واحدة، وتختلق المبررات الواهية لتعليل الثغرات والنواقص والأخطاء، مما يجعل التبرير سمة من سمات الفكر العربي!

ومهمة المؤرخين المعاصرين في بحثهم عن الحقيقة بموضوعية، صعبة. فليس الأمر سهلاً أمام بحر من التراث كتب باتجاهات متعددة وبدوافع متعددة؛ فمنه ما كتب من وجهة نظر السلطة ومنه ما كتبته المعارضة، ومنه ما كان نتيجة الأهواء والاتجاهات والتحزبات، ومنه ما كان مغرضاً أو متحاملاً أو مناصراً دونما استناد إلى الحقيقة الموضوعية.. ومنه ما اختلط فيه الخيال بالحقيقة، أو شطح نحو الخرافة والأسطورة.

وليست القضية أمام ذاك الخليط مجرد تمسك بالتراث والتغني به، بقدر ما هي مدى مساهمة التراث في بلورة هويتنا ومساعدتنا في نهضتنا وقدرتنا على مواجهة الإمبريالية والاستعمار الصهيوني وما يحوكانه هما وآخرون ضدنا باستنادهم البراغماتي إلى ذاك التاريخ التوراتي المزيف.

إن سايكس/ بيكو جزأت الحاضر، ولكن سايكس/ بيكو الأخرى الفكرية والثقافية جزّأت ماضينا، وما زالت تحاول غسل أدمغتنا ومسخنا وتقزيمنا.

وهي بعد أن صادرت جغرافية فلسطين وتاريخنا القديم وذاكرتنا لصالح الصهيونية ولصالح مشروعها الاستعماري لفلسطين، تريد استلاب حاضرنا!

ولكن العربي ليس عاجزاً عن البحث والدراسة، واستعادة حقه المستلب في كشف تاريخه وماضيه، وتجسير ما ضيعه الغرب من ذاكرته.

وصراعنا ضد الصهاينة والإمبريالية الأمريكية ليس مجرد صراع سياسي وعسكري فقط، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك صراع حضاري وثقافي وفكري وتاريخي.. صراع وجود وكينونة وهوية.

الفصل الرابع عشر
مؤرخين مصريين أرخوا لمصر فى العصور الوسطى

مؤرخين مصر فى العصور الوسطى*Historians of Egypt in the Middle Ages* ، فى عصر الدوله المملوكية (١٢٥٠ - ١٥١٧) شافت مصر ازدهار ثقافى كبير شمل حركة تأريخ مش مسبوقة ولا اتكررت بعد كده، وظهر فى مصر مؤرخين فطاحل كتبوا مؤلفات تأريخية ضخمة ساعدت الباحثين والمؤرخين فى العصر الحديث على التعرف على أحوال مصر ومنطقة جنوب البحر المتوسط فى العصور الوسطى، واهتم الأوربيين بمؤلفات المؤرخين المصريين وترجموها من المخطوطات القيمة المحتفظ بيها فى المكتبات والمتاحف فى مصر تركيا وفرنسا وانجلترا وروسيا ألمانيا وغيرها وبقت مصدر رئيسى للمعلومات للمؤرخين والباحثين الغربيين والشرقيين فى العصر الحديث.

المؤرخين المصريين اتميزوا بالموسوعيه والدقه فى كتاباتهم، ولأنهم فى أحوال كتيره كانوا مقربين لرجال وأمراء الدولة المصرية، وكان فيهم رجال دوله زى الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار، فكانت معلوماتهم عن الأحداث وخلفياتها متكاملة، وكانوا بيستعينوا بأعمال بعض لما يستعصى عليهم معرفة أو فهم حدث، و كانوا حريصين على توضيح ده للقارىء عشان ما يتحملوش المسئولية، و لما كانوا بيقولوا حاجه مش متأكدين منها أو مش مقتنعين بيها كانوا بيقولوا فى بداية النص عشان ينبهوا القارئ. و بكده كانوا مؤرخين موضوعيين و بيكتبوا على أسس تأريخيه سليمه. حركة التأريخ اللى نشطت فى العصر المملوكى اتعرفت باسم المدرسه التأريخية المصرية.

- المقريزى (١٣٦٥ - ١٤٤١):

يعتبر عميد المؤرخين المصـريين من العصور الوسطى للآن، وكتبه "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثـار" بتعتبر أفضل التي كتبت عن تاريخ مصر، وله كتاب قيم اسمه "إغاثـة الأمـة بكشـف الغمـة" حققـه ونشـره المـؤرخ الحـديث جمـال الـدين الشـيال وفيـه معلومـات قيمـة عـن أحـوال مصـر الإقتصـاديه والماليـة. علـى يديـه تلمـذ مؤرخين كبار منهم المؤرخ الكبير ابن تغرى بردى (١٤١٠ - ١٤٧٠).

- ابن تغرى:

كان بينتمى لطبقة الأمراء المصريين موظفين الدولة المصـرية الكبـار و أبوه كان من كبار الأمراء فى عهد السلطان الظاهر برقوق و ابنه الناصر فرج.

ابن تغرى ألف حوالى١٢ كتـاب منهـا كتابـه الضـخم "النجـوم الزاهـرة فـي ملـوك مصـر والقـاهرة" اللـى أرخ فيـه لمصـر لغايـة سـنة ١٤٦٧. ابـن تغرى اهتم بـ النيل مثل المؤرخ ابن أيبك الدوادارى اللى سبق عصره سجل منسوب المياه والفيضان باعتباره شريان الحياه فى مصر.

عندما دخل العثمانيين مصـر سنة ١٥١٧ سليم الأول شـاف مخطوطـة النجوم الزاهره وأمر بنقلها لتركيا فأترجمت هناك للتركى ولسـه المخطوطـة محتفظ بيها فى مكتبة أيا صـوفيا فـي اسـتانبول، وفيـه نسـخ منهـا فـى القـاهره وبرلين و سانت بطرسبورج و باريس ومكتبة المتحف البريطـانى فـي لنـدن. هذا الكتاب ترجم منه المستشـرق الهولاندى جونبل، ونشـر اللـى ترجمـه فـى مجلـدين ضـخمين فـى مدينـة ليـدن مـا بـين سـنة ١٨٥١ و سـنة ١٨٥٥، والمستشــرق الأمريكــانى ولــيم بــوبر تــرجم منــه عشــر أجــزاء قامــت بنشرهم جامعة كاليفورنياما بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩٢٩.

فى مصر اهتمت دار الكتب المصرية بالكتاب وصورت مخطوطته الموجوده فى آيا صوفيا فى استانبول وحققتها ونشرتها بتوصيه من عبد الخالق ثروت رئيس الحكومه المصرية أنذاك، و نشرته مرة أخرى سنة ٢٠٠٥ فى ١٦ جزء.

- ابن إياس(١٤٤٨ - ١٥٢٣):

بيعتبر من المؤرخين المصريين المميزين جداً من حيث أسلوبه فى الكتابة ومن حيث الأحداث اللى ذكرها، لأنه عاصر نهايات عصر الدولة المملوكية وشاف الأتراك العثمانيين وهما بيحتلوا مصر سنة١٥١٧ اللى قال بمناسبته: "نوحوا على مصر لأمر قد جرى .:. من حادث عمت مصيبته الورى".

جد ابن إياس كان أمير كبير فى عهد السلطان الظاهر برقوق، وأبوه كان على إتصال بالأمراء وموظفين الدوله المصرية. إبن إياس كان بيحب الشعر وكان مع التأريخ بيألف أشعار كمان و كانت تحتوي كتبه التاريخيه بالأشعار، وكانيكتب بإسلوب جميل وبسيط ويستخدم اللهجة المصرية التي يتحدثها المصريين.

أهم كتب ابن إياس: كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ويعتبر أهم كتاب تاريخى كتب عن نهايات الدوله المملوكيه المصرية المستقلة وبدايات الإستعمار التركى العثماني. وابن إياس كتب عن هذه الفترة بطريقة الحوليات، وبين قدراته التاريخية المميزة، وكان من أسباب اهتمام الباحثين والمستشرقيين الغربيين بكتاب بدائع الزهور فعملوا على دراسات كثيرة، وكلفت جمعية المستشرقين الألمانية باحثين مصريين بتحقيق الكتاب ونشرته فى ٦ أجزاء ضخمة. وحتى فى الأدب المصرى الحديث استلهم الأديب جمال الغيطانى شخصيه حقيقية من الكتاب وألف رواية "الزينى بركات" الذي لاقت نجاح عالمى وترجمت

للغـات كثيـرة. العصـر العثمـانى أرخ لـه كمـان ابـن أبـو السـرور البكرى (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الذي يعتبر أخر مؤرخين مصر العظـام بتـوع العصر المملوكى مع أنه عاش وكتب بعد زوال الدولة المملوكية.

جمعيـة المستشـرقين الألمانيـة التـي نشـرت بـدائع الزهـور لإبـن إيـاس تهتم بالتراث التاريخى المصرى ونشرت أيضاً كتاب زبدة الفكرة في تـاريخ الهجرة للمؤرخ الأمير بيبرس الدوادار (ح١٢٤٧ - ١٣٢٥).

- بيبرس الدوادار:

بالإضافة إلى أنه مؤرخ كان منك بار أمراء مصـر وعاصر عهود كبار سلاطين الدوله المملوكية البحرية مثل الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون، وكان حاضر حروب كبيرة مثل غزو انطاكيه وفتح عكا وقلعة الروم، ومعارك كبيرة ضد المغول، وشارك في أخد وصنع قرارات سياسيه مهمة، وبيعتبر مصدر موثوق بيه للمعلومات ولذلك نقل عنه كبار المؤرخين المصـريين مثل المقريزى وابن إياس وابن تغري والعيني وغيرهم. " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " بيعتبر أهم كتاب لبيبرس الدوادار.

- جرجس ابن العميد (١٢٠٢ - ١٢٧٣):

يعتبـر أيضـاً مـن أهـم المـؤرخين المصــريين. وأهميتـه لهـا سـببين رئيسـيين، الأول أنـه عـاش وكتـب فـى فتـره سـبقت فتـرة زملائـه مـن أمثـال المقريـزى وابـن تغـرى، وعاصـر فتـره انتقاليـة مهمـه فـى تـاريخ مصـرحكم فيهـا شـجر الـدر وعـز الـدين أيبـك والظـاهر بيبـرس. السـبب الثـانى أنـه كـان مسيحى ويهتم بتاريخ المسيحية فى مصر وكان ضليع فى اللغه القبطيـة. كل هذا أعطـى لـه أهميـة كبيـرة وبعـد إضـافي سـاعد بقيـة المـؤرخين بعـده. ابـن العميد كان رجل دولة في العصـر المملوكى و اتلقب بـ "الشيخ المكين". من أهم الكتب القيمة التي كتبها كتاب "المجموع المبارك" وهذا كتاب ضخم

أرخ فيه من بداية العالم لغاية عصر الظاهر بيبرس، و اهتم به الباحثين والمستشرقين الأوروبيين واترجم في ليدن للاتيني حوالي سنة ١٦٢٥.

- شهاب الدين النويرى (١٢٧٨ - ١٣٣٣):

لم يكن مؤرخاً بحسب أيضاً كان عالم موسوعى، وألف كتاب عبارة عن دائرة معارف ضخمة اسمها "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، وضعت مخطوطته فى طبعة تتكون من ٣٢ جزء كبير. الجزء اللى بيخص التاريخ فى هذه الطبعة يمتد من الجزء ٢٥ للجزء ٣١. مخطوطة الكتاب ده محفوظه فى مكتبة كوبريللى فى استانبول، وله نسخه مصورة فى دار الكتب المصريه فى القاهره برقم ٥٤٩ معارف عامة. النويرى عاصر سلاطين مصر الكبار مثل قلاوون والأشرف خليل، واتصل بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونقل عنه الكثير من المؤرخين.

- النويرى:

أنه ليس المؤرخ الاسكندرانى الذي عرف باسم النويرى الاسكندرانى الذي ألف كتاب عن حملة بيير دو لوزينان ملك قبرص على اسكندريه سنة ١٣٦٥، والمعروفة باسم "واقعة الإسكندرية" "أو كتاب"الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية"، واللى قال فيها عن بيير دو لوزينان : "جه المدينه حرامى وخرج منها حرامى".

- ابن أيبك الدوادارى:

عاش فى حارة الباطليه فى القاهره، وعين أمير على صرخد وكان هو وأبوه على إتصال بكبار الرجال من الأيوبين والمماليك وكانوا شهداء عيان لأحداث تاريخية كتيرة ومهمه جداً مثل سقوط الدولة الأيوبية وبزوغ نجم الدوله المملوكية. كتابه الضخم "كنز الدُرر وجامع الغُرر" يعتبر من

أهم الكتب التي كتبها والتي كتبت عن العصر الأيوبي والعصر المملوكي وفيه حاجات نقلها عنه المؤرخين الكبار اللى جم بعده بحكم أنه حضر بنفسه أحداث حصلت وحكى عنها وغير موجوده فى كتب معاصريه. جمعية المستشرقين الألمانيه نشرت هذا الكتاب فى تسع أجزاء كل جزء عن فتره تاريخية معينة أهمها العصر الأيوبى والمملوكى الذين عاصرهم. الجزء التاسع بيختص بفترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى يعتبر من أعظم اللى حكموا مصر على مر التاريخ.

ابن أيبك الدوادارى اتلقب بـ مؤرخ النيل لإنه اهتم بـ النيل، وفى كتابه كنز الدرر كان يستهل أحداث كل سنة بعنوان لم يغيره وهو "النيل المبارك فى هذه السنة" ثم يقوم بتدون أحوال النيل ومنسوبه فى هذه السنة، وبهذا كان أول مؤرخ يعمل كده يقوم بهذا العمل، وسبق ابن تغرى فى هذا الموضوع. ابن الدوادارى وابن تغرى كانوا متفهمين تأثير النيل على اقتصاد مصر وعلى حياة المصريين في ذلك الوقت.

- أبو العباس القلقشندى (١٣٥٥ - ١٤١٨):

من المؤرخين المصريين الموسوعيين الذين عاصروا فى العصور الوسطى كان المؤرخ واللغوى أبو العباس القلقشندى (١٣٥٥ - ١٤١٨) سمي القلقشندى لأنه ولد فى قلقشنده فى القليوبي. القلقشندى علامة لغوى عمل فى دار الانشاء فى عهد السلطان الظاهر برقوق وألف كتاب مهم جداً اسمه "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا". طبع هذا الكتاب فى ١٥ جزء، ويعتبر من أهم الكتب كتبت فى مصر فى العصور الوسطى لأنه شرح فيه مصطلحات الدوله المملوكية المستخدمة في ذلك الوقت ودون فيه نصوص مراسلات الدولة والسلاطين والمعاهدات، وبقى كتابه ليس مجرد تأريخ ولكن كان أيضاً شرح وافى لنظام الحكم والإدارة فى العصر المملوكى.

- محيى الدين بن عبد الظاهر (١٢٢٣ - ١٢٩٢):

من المؤرخين الذىن خدموا فى دار الانشا، ولعبوا دور كبير فى تطويرها والنهوض بيها كان المؤرخ محيى الدين بن عبد الظاهر (١٢٢٣ - ١٢٩٢) الذي لقب بـ "شيخ أهل الترسل" و "الكاتب الناظم الناثر".

ابن عبد الظاهر كان قاضى وعين رئيس لدار الانشا التي كانت مسئولة عن مراسلات الدولة المصرية، وكان أول "كاتب سر" عُرف فى الدولة المصرية، فبالتالى كان مطلع على أحداث كتيرة فى عصره. ابن عبد الظاهر عاصر سلاطين كبار أمثال قطز والظاهر بيبرس وقلاوون، والأشرف خليل. ودخل مصطلحات جديده فى المراسلات وكتابة العقود، وهو اللى كتب جواب الظاهر بيبرس لـ بركاى خان ملك القبيله الدهبية المغولية لكي يألبه على هولاكو ويضمه لصف بيبرس. ابن عبد الظاهر كان له أسلوب بديع فى الكتابه والقلقشندى قال عنه أنه كان "من فحول الكتاب". فوق كده، ابن عبد الظاهر أرخ للسلطان بيبرس وكتب سيرته فى كتاب مشهور اسمه "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" اللى كتب فيه معلومات مهمه ومتكاملة عن عصر الظاهر بيبرس. مخطوطة الكتاب ده وصلت للعصر الحديث تقريباً كاملة، ولولاها لغابت معلومات كتيرة عن الباحثين والمؤرخين فى العصر الحديث عن احداث عصر بيبرس.

مخطوطة الكتاب محتفظ بيها فى مكتبة الفاتح فى إستانبول، وفيه مخطوطة تانيه فى المتحف البريطانى فى لندن ضاعت منها هى كمان كام صفحه. ابن عبد الظاهر أرخ كمان للسلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل فى كتابين مهمين اسمهم "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" و "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية" وله كتاب أخر مهم اسمه "الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة" و هذا الكتاب ليس له مخطوطات وجدت لكن المقريزى لحسن الحظ نقل عنه فى كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار - الخطط المقريزية".

كان هناك أيضاً الأدفوى والسيوطى والسخاوى وغيرهم. المدرسة التاريخية المصرية فى العصور الوسطى أو بالأحرى فى عصر الدولة المملوكية كانت ظاهرة ومنظومة علمية مذدهرة ومتطورة ليس لها مثيل ليس فى مصر فقط لكن فى كل العالم.

الفصل الخامس عشر
مصر في كتابات المؤرخين العراقيين في العصر العثماني

أدى احتضانُ العراق للخلافة العباسية، في العصور الوسطى الإسلامية، وما شهدته مدنُه من توسعٍ هائل بمن قصدها من مثقفي الأقطار العربية، والإسلامية عامة - إلى أن تتسم نظرة المؤرخين العراقيين، إبان تلك العصور، بسمة عالمية شاملة، فكتب مؤرخون بارزون، أمثال: اليعقوبي، والمسعودي، والطبري، تواريخَ أمم الأرض جميعًا، بوصفها تمثِّل تجاربَ متنوعة لجنس بشري واحد، ومع أنهم أفردوا لتاريخ العراق أروعَ فصولهم وأكثرها متعة وتفصيلاً، إلا أن ذلك لم يُلْغِ نظرتهم الشاملة إلى هذا التاريخ، بوصفه جزءًا مهمًّا من تاريخ العرب المسلمين خاصة، الذي هو خلاصة تاريخ البشرية عامة.

ولقد استمرت هذه الرؤية حيةً في أذهان المؤرخين العراقيين الذين عاشوا في أواخر عهد الدولة العباسية، فعلى الرغم من الضعف الشديد الذي كانت تمر به هذه الدولة في أيامهم، وانسلاخ معظم أقاليمها منها، إلا أن صورةَ عالَم إسلامي فسيح يحتل فيه العربُ موقع الصدارة، ظلت تراود أذهانَ أولئك المؤرخين، فحفلت مؤلَّفاتُهم بإشارات واستطرادات ذات شأن، تتصل بتواريخ أقطار عربية وإسلامية، وترجموا لأعداد غفيرة من العلماء العرب والمستعربين في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، متخذين من وَحدة الثقافة أساسًا لعملهم، بعد أن لم تَعُدْ وحدة النظام السياسي أو المؤسسة الحاكمة، بقادرةٍ على تكوين ذلك الأساس.

ولم تَحُلِ الكوارثُ البشرية والحضارية التي تمثلت بالغزو المغولي - وما أعقبه من غزوات مدمرة لقوًى أجنبية متخلفة - دون استمرار هذه الرؤية في أعمال مؤرخين مخضرمين، أمثال: ابن الساعي البغدادي)المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٤م(، وابن الفوطي) المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م (وابن الكازروني) المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م(،

وغيرهم، فحفلت مؤلَّفاتُهم بالعديد من الأخبار المهمة عما كان يجري في الأقطار العربية الأخرى، لا سيما في مصر والشام، من حوادث وتطورات اجتماعية وثقافية، على أن من المهمِّ أن نذكر هنا أن نجاح القيادة المصرية في دحْر المغول في (عين جالوت) وما تلاها من معاركَ حاسمة، وضم بلاد الشام إلى مصر في دولة واحدة كما كانتا في معظم حِقَب التاريخ - أدى إلى تحول أساسي في نظرة المؤرخين العراقيين، فلم تعُدْ هذه الأقطار تمثل في نظرهم امتدادًا سابقًا للدولة العباسية، وممتلكات منتزعة منها، وإنما غدت ملاذًا لِما تبقى من الأمة العربية، وحصنًا لِما سلِم من عوادي الدهر من تراثها الثقافي والحضاري التليد، وأملاً لأهلها في استعادة عهود المَنَعَة والاستقلال، ولنا أن نلمح هذا التغيير في النظرة العامة للمؤرخين العراقيين التالين لجيل المخضرمين، متمثلاً في كتابات مؤرخ بغدادي عاش في أواخر القرن التاسع للهجرة15) م (هو عبدالله بن فتح الله الغياث البغدادي) المتوفى بعد سنة ٩٨١هـ/١٤٨٦م[1](، فقد اضطرته ظروف الاحتلال الأجنبي للعراق، إلى أن يغادره إلى بلاد الشام، يوم كانت هذه البلاد جزءًا من دولة واحدة عاصمتها القاهرة، فسجل - وهو مقيم هناك - تاريخَ وطنه العراق، من خلال كلامه على الدول التي تعاقبت على حُكْمه، بَيْدَ أنه عرَّج فجأة إلى تاريخ دولة المماليك الجراكسة في مصر، مع أنه لم يكن لها حُكْم في العراق أصلاً، كما أنه لم يقصُرْ كتابته على تراجم سلاطينها وما جرى في أيامهم، وهو منهجه في سائر الكتاب، وإنما عرض بسرعة إلى تاريخ مصر بدءًا من عهد الطولونيين، فالإخشيديين، فالفاطميين، ثم مرورًا بالأيوبيين، فدولة المماليك البحرية، وانتهاء بدولة المماليك الجراكسة؛ مما دل على إدراكه للدور الخاص الذي كانت تؤديه مصرُ في سياسات المنطقة في العهود المتعاقبة، وليس في عهده فحسب.

ويتضح لنا هذا المعنى في عناية المؤرخ الكبيرةِ بكل ما له صلةٌ بسياسة مصر الخارجية، سواء ما يتعلق منها بالدول التي كان لها حكم في العراق،أو الدول التي برزتْ على المسرح الجغرافي القريب منه، لا سيما الدولة العثمانية، وبذا فإنه أضاف معلومات جديدةً عن العلاقات الحربية بين العثمانيين والمماليك لم تذكُرْها المصادر العربيةُ والتركية الأخرى.

وكان تعرُّضُ العراق، والأقطار العربية الأخرى، إلى السيطرة العثمانية في القرن السادس عشر، وتحوُّل مصر وأقاليمها: بلاد الشام والحجاز واليمن، إلى مجرد ولايات عثمانية - قد أفقَد هذه الأقاليمَ ميزتَها التاريخية القومية لدى المؤرخين العراقيين، كما أن إلغاء الخلافة العباسية منها، وفِقدانها مسؤولية حماية الحرمين الشريفين، أدَّيَا إلى اضمحلال ملحوظ لدورها الرُّوحي أيضًا، بوصفها الراعيةَ لمقدسات الأمة.

صحيح أن تعرُّضَ هذه الأقطار إلى سيطرة دولة واحدة قد أزال الحواجز السياسية التي خلَّفتها الدولُ المتنازعة السابقة، إلا أن وجود رأس الدولة خارج الحدود الطبيعية للوطن العربي، دعا إلى أن تكون صلاتُ كل ولاية من ولاياته مشدودةً إلى خارج هذا الوطن لا إلى داخله.

وهكذا، ففي الوقت الذي كانت فيه معظم الولايات العربية ترتبط إداريًّا وسياسيًّا بالعاصمة القسطنطينية، تَستقبل منها ولاتَها وموظَّفيها وقضاتها وأوامرَها المركزية - كانت صلاتها الإدارية بالولايات العربية المجاورة تكاد تبدو منقطعة تمامًا، ومع أن عددًا غيرَ قليل من الموظفين، بل من الولاة أنفسهم، كان من أصول عربية، إلا أن توليَهم مناصبهم كان بصفتهم موظفين عثمانيين لا غير، فإذا أضفنا إلى ذلك كله ضعْفَ حالة الأمن، وتعرُّض الطرق التجارية إلى أخطار مداهمة قُطَّاعها، وهو - في الحقيقة - أحدُ مظاهر ضعف دور المدينة الإداري والحضاري في ذلك الحضر، بدا واضحًا لِمَ فتَر اهتمام المؤرخين العراقيين - مثلهم في ذلك مثل كثير من المؤرخين العرب - بما هو خارج عن نطاق ولاياتهم، بل بما هو

خارج نطاق أسوار مُدُنِهم، لا سيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، واهتمامهم - بالمقابل - بالحياة الداخلية للمدينة أو توابعها، أو الترجمة لعلمائها وأدبائها الذين كان يتمثل بهم إرث أمةٍ لم يعُدْ لسلطانها السياسي ظلٌّ يومذاك.

وعلى الرغم من انتقال مركز الثقل السياسي من مصر، حيث قلب الوطن العربي، إلى خارجه، فإن مصر ظلت تحتفظ بقدرٍ كبير من أهميتها الثقافية لدى المثقفين العرب بوجه عام، وهو أمر لم تَقْوَ صروفُ التحولات السياسية على إفنائه؛ فمصر - بحُكم موقعها الجغرافي الفريد - ملتقى العلماء والأدباء العرب والمسلمين عامة من القارتين، وفي أروقة أزهرها تتلاقح ثقافاتٌ جمة؛ لتتبلور على وَفق تقاليد هذه المؤسسة العريقة ومناهجها الموروثة، وفي باحات مدارسها العديدة، التي سلِم أكثرُها من التخريب، ينتشر العلماء، ويتحلق الطلبة، وتكثُر النُّسخ الخطية من الكتب التي عزَّ وجودُها في مدن العراق بعد قرون التخريب والتدمير، وهكذا فقد غدت القاهرةُ تمثل - لدى طلبة العلم العراقيين - إحدى أهم محطات الثقافة العربية الإسلامية، ورمزًا لِما تبقى من هذه الثقافة في الأقل.

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحدد حجم الصلات الثقافية في الشطر الأول من العصر العثماني؛ لندرة المصادر الثقافية نفسها، فإن لنا أن نتصوَّرَ أنها لم تكن منقطعة على الإطلاق، وإن بدا عليها الفتورُ للأسباب التي قدمناها قبل قليل.

وعلى أية حال، ظلت الرحلة العلمية إلى مصر - على قلتها في هذا العصر - مصدرًا أساسيًّا استمد منه المثقفون العراقيون تصوُّرهم لمختلف جوانب الحياة العامة في هذا القُطر، ففي القرن السابع عشر11 هـ كتب أديب مؤرخ بصري، عاش في ظل الإمارة الآفرسيابية شبه المستقلة في البصرة، هو الشيخ عبد علي بن ناصر بن رحمة الله الحويزي (المتوفى سنة ١٠٧٥هـ/١٦٤٤م) كتابًا جمع فيه تراجم الأدباء العرب المعاصرين له،

فكان ثمة قسم خاص بأدباء مصر، ويظهر أنه استمد معلوماته - في هذا الشأن - من رحلة قام بها إلى هناك، أو من رحلة غيره من أدباء مدينته.

وفي الوقت نفسه، كان أديب شهير، ولغوي بارع، هو عبدالقادر بن عمر البغدادي) المتوفى سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م (قد غادر موطنه بغداد إلى مصر، حيث اغترف العلم من كنوزها الخطية، فترك آثارًا مهمة في الأدب والنحو والتراجم، لعل أدخلَها في نطاق الكتابة التاريخية مؤلَّفُه تراجم العلماء، الذي ترجم فيه للمتقدمين من الأدباء والشعراء العرب، ومنهم عراقيون وشاميون ومصريون، على نحو لا يميِّز بين قُطر وآخر[6]، ومن المؤكد أن نظرتَه القومية الشاملة لتاريخ الأدب، جاءت بسبب إقامته الطويلة في مصر، حيث تتوفر مصادرُ الأدب العربي، والثقافة العربية عامة، وحيث تلتقي سبُلُ هذه الثقافة ورجالها.

ويظهر لنا انبهارُ هذا المؤرخ العراقي بآثار مصر القديمة، فيما كتبه عن أهرام الجيزة في مخطوطته: "القصد المرام في عجائب الأهرام"، وهو كتاب حاول فيه استكناه تاريخ جانب من تاريخ مصر في العصور الغابرة، مستمدًّا معلوماتِه من المصادر الإسلامية، ومن ملاحظاته الآثارية التي اتسمت بدقةٍ ملحوظة.

وفي وُسْعنا أن نَعُدَّ المؤرخَ البغدادي أحمد بن عبدالله الغرابي (المتوفى سنة ١١٠٢هـ/١٦٩٠م) أولَ مؤرخ عراقي عُرِفَ في العصر العثماني، وجَّه انتباهًا قويًّا لتاريخ مصر عبر حِقَب مختلفة؛ ففي كتابه الكبير الذي عَنوَنه: "عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان"، نجد فصلاً كبيرًا عن تاريخ مصر في العصور القديمة، إضافة إلى تواريخ اليونان والروم والعرب.

وبطبيعة الحال، فإنه استند في معلومات هذا الفصل على ما كان متيسرًا له من مصادرَ تاريخيةٍ عربية، لكن منهجه في ترتيب حوادث

تاريخه جاء منسجمًا ومحكَمًا، فبحث في تاريخ ملوك مصر القدماء، ومن اتصل بهم من الأنبياء والمرسلين، وتناوَل ما أُثِر عن المصريين القدماء من حكمة ومعرفة، وما شادُوه من منشآت، لا سيما الأهرامات العجيبة، وما يتصل بذلك من شؤون.

وفي الفصول الأخرى يتابع الغرابي تاريخ مصر باهتمام، بوصفه جزءًا من تاريخ الإسلام، متَّبعًا في ذلك منهجين، يلتزم أولهما بالوحدة الموضوعية، ويأخذ ثانيهما بالوحدة الحولية؛ ففي الفصل الرابع من المقالة الأُولى تناول تاريخ بعض الدول التي نشأت في مصر، بوصفها من (دول الإسلام)، وذلك على سبيل الإجمال.

وبعد أن خصص الفصل الأول من المقالة الثانية للسيرة النبوية الشريفة، تتبع في الفصل الثاني - وهو أهم الفصول وأكثرها سَعة – تاريخَ "ما كان بعد الهجرة" على حسب الحوليات، وكثيرٌ منه يخص مصرَ؛ ملوكًا وخلفاء، وولاة وأعلامًا، وحوادث سياسية.

ونحسب أنه صدر - في جمعه بين المنهجين: الموضوعي والحولي - عن إحساسٍ ما بأن لتاريخ مصرَ خصوصيتَه، ضمن إطار التاريخ الإسلامي العام، وهو - من دون ريب - إحساسٌ له أهميته.

وما دوَّنه الغرابي عن تاريخ مصر في العصر العثماني جديرٌ بالملاحظة؛ فإن بعض ما ذكره انفرد به عن غيره من المؤرخين المصريين أنفسِهم، وهو أمر يوجب على الباحث أن يتوقفَ لدراسة مصادره، صحيحٌ أنه لم يصرح بأسماء هذه المصادر، إلا أننا نجده يصرح بإقامة أخٍ شقيق له في القاهرة، **يقول:**

"حكى لي شقيقي الشيخ محمود حين ذهب إلى الحج عن طريق مصر قال: "لَمَّا أتيت بلدة مصر أكرمني حاكمها عبدالرحمن باشا، ورفع محلي، وطلب مني أن أبقى عنده هذا الموسم، ثم في السنة المقبلة يرسلني إلى الحج، فأجبتُه إلى ذلك".

فتكون إقامة شقيقه قد حدثت بين سنتي (1087 و١٠٩١هـ/١٦٧٦-١٦٨٠م)، وهي مدة ولاية عبدالرحمن باشا المذكور، ولا نشك في أن يكون الغرابي قد استمد من شقيقه هذا كثيرًا مما أورده من معلومات تتعلق بتاريخ استيلاء العثمانيين على مصر، وأنه نقل عنه ما كان متداولاً من روايات على ألسنة العامة في القاهرة، وما كان يرويه الموظَّفون العثمانيون، على حد سواء، وهي روايات فيها إضافاتٌ مهمة عما ذكره المؤرخون المعاصرون للحدَث نفسه، **يقول واصفًا - بإيجاز - ظروف معركة مرج دابق الحاسمة التي كانت سببًا في انهيار المقاومة المملوكية:**

"وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة عبر السلطان إلى اسكدار قاصدًا ديار العجم في الظاهر، وفي نيته إزالةُ ملوك الجراكسة من مصر وغيرها، ففطنت الجراكسة إلى ما أراده، فجمعوا عساكرهم، وأخذوا حذرهم، فسار إليها السلطان سليم من اسكدار، وسار ملِك الجراكسة الغوري من مصر، فالتقوا في مرج الدوابق) كذا رسمه والمعروف: مرج دابق (فتصافَّا هناك، ووقعت الحرب بينهم، فأصاب حجَر من الطوب أُذُنَ الغوري، فذهبوا إلى مكان أمين، فحين وصوله إلى هناك توفي، فاختلَّ أمرُ العسكر من غيبته، وقُتل عدة من الأمراء المتعينين، وما لا يحصى من آحاد العسكر، وانهزم من بقِي منهم".

فهذه الرواية - على إيجازها - تختلف في بعض تفاصيلها عما ساقه المؤرخون المعاصرون للمعركة، فموت السلطان الغوري - عند ابن إياس الحنفي - كان بسبب إصابته بالفالج، أو لمرض أصاب كبده، أو بسبب ابتلاعه فص ماس كان معه[12]، أمَّا أن حجرًا من الطوب - أي: شظية من قنبلة - أصابه في أذنه، فكان سببًا في موته؛ فذلك ما لم يرْوِه أحدٌ من قبل، ويظهر أن الغرابي استمده مما كانت تتناقله العامة في القاهرة بعد مدة من الحادثة.

ومثـل ذلـك مـا ذكـره فـي وصـف مجريـات اقتحـام العثمـانيين القاهرةَ، وحرب الشوارع التي دارت فيها، انتهاءً بإعدام السلطان المملوكي الأخير طومان باي، **قال:**

"فـي أول الربيـع سـار السـلطان سـليم قاصـدًا بلـدة القـاهرة، فتأهـب لمحاربته مِلِك مصر طومان باي إلى طرف الصعيد، وكان ذلك النهار سلخ ذي الحجة من السنة المزبورة، وفي الغد، وهو غرة سنة ثلاث وعشـرين وتسعمائة دخلت عساكر السلطان سليم إلى مصـر، ودام النهب والقتل ثلاثة أيام، ثم نودي بالأمان، وبعدها سار طومان باي من الصعيد، وعلى حين غفلة مع جم غفير يقصد أن يطأ عسكر السلطان سليم، فما أمكنه ذلك، فدخل مصر، واجتمع عليه من كان من الجراكسة هناك مختفيًا، فغضب السلطان سليم من هذا الفعل، فأمر العسكر بالدخول إلى مصر، وقتل من فيها من الأشقياء، فدام القتل فيها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع عفا عنهم، وانهزم طومان باي إلى الصعيد قاصدًا بلاد المغرب، فأرسل خلفه من لحقه فأتى به، فصُلب بباب زويلة، وبه انتهت دولة الجراكسة".

ومن المرجح أن يكون الغرابي قد استمد معلوماتِه هنا من روايات عثمانية كان يتداولها الموظَّفون الرسميون في مصر، في محاولة لتقديم صورة أكثر تبريرًا لقيام سليم الأول بقتل السلطان المملوكي الأخير، وإلا فإن طومان باي لم ينهزم إلى الصعيد قاصدًا بلاد المغرب، وإنما غدر به بعض زعماء القبائل في البحيرة، فأسره واقتاده إلى سليم الأول، وغدر به الأخير بعد أن استأمنه.

وليس ببعيد أن يكون هدف ترويج مثل هذه الروايات هو تحسين صورة الفتح العثماني للوطن العربي يومذاك، لا سيما وأن الغرابي ساق - فيما نقله من روايات - أخبارًا وتفاصيلَ عن كرامات لبعض الصالحين تفيد تنبُّؤَهم بمجيء العثمانيين، وزوال المماليك، وكأن الأمر كان قدرًا لا فكاك منه.

بيد أنه إذا كان ظهور الغرابي، باهتماماته التاريخية الواسعة، يُعَدُّ شيئًا نادرًا في بيئة محدودة كعراق القرن الحادي عشر17م، فإن ظهور أمثاله من المؤرخين لم يعُدْ شيئًا غريبًا في القرن التالي، وهو القرن الذي شهد تولي الأسر المحلية - غالبًا - مقاليدَ السلطة في الولايات العراقية، وتحمُّلها - من ثم - مسؤوليةَ حماية التجارة المحلية والترانسيت، وما يستتبع ذلك من ضرورة توفير حدٍّ معقول من الأمن للقوافل المتنقلة بين المدن، فبعد أن كان تأليف تاريخ، أو جمع تراجم لقطرٍ ما يستلزم انتقالَ المؤرخ نفسه إلى ذلك القطر، وهو ما فعله بعض مدوِّني التراجم الأدبية أحيانًا، فإن مهمة كهذه لم تعُدْ تستلزم من مؤرخ القرن الثاني عشر18م إلا تسمُّع ما تأتي به القوافل في حركتها المستمرة، من أخبار وروايات، تفيده في الاطلاع على جوانبَ من مجريات الحوادث في الأقطار الأخرى.

ويمكننا أن نعُدَّ المؤرخَ المَوْصلي ياسين بن خير الله الخطيب العمري (المتوفى بعد سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م (واحدًا من أبرز المؤرخين العراقيين الذين انعكس في مؤلَّفاتهم ذلك التحسنُ المحسوس في طرق الاتصال، فهذا المؤرخ الذي لم يغادر مدينته المَوْصل قط، استطاع أن يؤلِّف نحو خمسة عشر كتابًا مستقلاً في تواريخ مدن عدة، وتراجم البارزين من أعلامها[16]، وهو المؤرِّخ العراقي الوحيد - فيما نعلم - الذي سجَّل في مؤلَّفاته خبر اندلاع الثورة الفرنسية، وذلك في كتابه "غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر".

وكان لغزو الفرنسيين مصرَ دورُه في تنبيه ياسين العمري إلى خطورة ما يجري في مصر يومذاك، وأثر ذلك على المنطقة بأسْرها، فكتب في "غرائب الأثر" أخبار ذلك الغزو، وأورد تفاصيلَ فيها شيءٌ كثير من الدقة والموضوعية، من ذلك أنه ضبط تواريخ مراحل الغزو، وحدد عدد قِطَع الأسطول الفرنسي، وقدَّر عدد الجنود بثمانين ألف مقاتل، وهو ما يبلغ ضِعْف العدد الحقيقي للحملة.

وتحدَّث عن احتلالهم الإسكندرية، ووصف بأنه جرى "بالغدر والحيلة"، وتابع زحفهم إلى القاهرة، ومقاومة البيكات - أي: المماليك - لهم، ثم دخولهم القاهرةَ، والاستيلاء على ما في مصر من السلاح، وخروج الوالي العثماني من القاهرة بأمواله، ونهب أهل الصعيد ما معه، وتوجّهه إلى حلب، ووصف رد فعل الدولة العثمانية من هذه الحوادث، وأخبر بأن السلطان لم يعلم بها حتى مضى شهران، وأنه عاقب موظَّفيه، ومنهم شيخ الإسلام؛ لإهمالهم أمْرَ مصر، وولي الوزير يوسف باشا مسؤولية تخليصها من الفرنسيين، وأن الفرنسيين لما ملكوا مصر طمعوا في البلاد، وملكوا غزة والرملة ويافا، وعزموا على أخذ بيت المقدس.

ووصف مقاومة الشعب هناك، وعطف إلى ذكر محاصرة الفرنسيين عكا، ودفاع واليها أحمد باشا الجزار عنها، وعن يافا، وما أوقعه الفرنسيون من مذابح في الأخيرة.

ثم تكلَّم على محاولات العثمانيين إخراجَ الفرنسيين من مصر، وتحالفهم مع الإنكليز في سبيل ذلك، ووصف مغادرة الفَرنسيين البلاد، فقال: "وفيها حاصر الوزير الأعظم يوسف باشا مصر، وشدد الحصار، فأرسل الفرنسيون يطلبون الأمان، ويسلِّمون له مصر، فصالحهم وخرجوا من مصر، وتوجهوا إلى بلادهم، وكان جملة من كان منهم في مصر ستة آلاف عِلْج، ودخل الوزير الأعظم يوسف باشا، وجلس على سرير يوسف ÷ كما ذكر الشيخ محيي الدين س في الشجرة حيث قال: ويجلس يوسف على سرير يوسف، وأرسل البشائر إلى جميع البلاد، ونعم البشائر للعباد، فعمل الولاة ثلاثة أيام مهرجانًا وأفراحًا وسرورًا.. وهرب مقدمهم وقائدهم إلى الضلال برته بول يريد: بونابرت (في مركب خفيف ومعه أموال لا تحصى، فتبعته مراكب الإسلام والأنكروس) يريد الإنكليز (فنجا وسلِم وهرب إلى بلاده، ثم خرجت الجيوش الفرنسية من مصر كما ذكرنا، وهم

عشرة آلاف علج، وساروا إلى الإسكندرية بالمراكب، فحاربهم عسكر الإسلام، وعليهم أحد الوزراء العظام، وجرت وقعةٌ عظيمة، وقتل من الفرنسيين، ولم يسلم منهم سوى ثلاثة آلاف، وهربوا بالمراكب إلى بلادهم.

ولا نشك في أن حوادث مهمة كهذه، كانت سببًا في توجيه العمري عنايتَه إلى تاريخ مصر في الحقبة السابقة أيضًا، فقد أورد في كتابه: الآثار الخطية في الحوادث الأرضية فقراتٍ مطولةً، على السنين، تغطي أخبار دخول السلطان سليم الأول مصر، وما جرى في عهد واليها خاير بك، وتتبع تواريخ ولاتها المهمين في الحِقبة التالية، وترجم لبعضهم، وخص محاولة علي بك للاستقلال بمصر وضم بلاد الشام إليها باهتمامٍ خاص، وإن أظهر الميل إلى وجهة النظر العثمانية الرسمية، ولم يقفْ عند التاريخ السياسي فحسب، وإنما أورد أخبارًا عديدة عن حوادثَ طبيعية، مثل: الغرق، والفيضان، والزلازل، وانتشار الأوبئة... إلخ.

وعلى الرغم من أن العمري سكت عن ذكر أسماء مصادره، إلا أننا نعلم أنه اعتمد بشكل أساس على كتاب النهروالي المعنون: "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام " في نقله كثيرًا من تلك التفاصيل.

وهكذا، فإن كتابات العمري عن تاريخ مصر الماضي، والمعاصر له، كانت تمثل ارتفاعًا محسوسًا في أهميتها لدى المؤرخين العراقيين، فلم تعُدْ مجرد ولاية ساكنة من ولايات الدولة العثمانية، وإنما بُوتقة ساخنة لكثير من الحوادث الخطيرة، التي كان لها أثرها على مجمل الأوضاع في المنطقة، بل وعلى موطنه الموصل نفسها، ألم تأمر الدولة والي الموصل عبدالفتاح باشا الجليلي بقتال علي بك الكبير؟ ألم يتوجه عراقيون، من أهل عقره، القريبة من الموصل، لجهاد الفرنسيين في مصر؟ ثم ألم يؤثِّر الغزو الفرنسي في ارتفاع أسعار بعض المواد في سوق الموصل؟ وهو ما سجله العمري بكل عناية.

وإذا كانت مصر قد بدت في كتابات العمري قريبة - من حيث التأثير - من العراق، كما لم تَبْدُ سابقًا، فإن المرحلة التالية أكدت ازدياد قربها من أحداثه، وتفاعلات الحياة فيه؛ إذ لم تعد مصر تكتسب أهميتها مما يجري حولها من صراع، وإنما أخذت تكتسبها بفعل ما أخذت تؤديه من دور حقيقي في موازين ذلك الصراع، ففي سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م دحرت قوات مصرية حسنةُ التدريب قواتِ الدولة السعودية الأولى في شرقي نجد، واستولت على قاعدتها الدرعية ودمَّرتها، وكانت قوات هذه الدولة الناشئة تشكل خطرًا حقيقيًا على مدن العراق الغربية، بدأً من عانة شمالاً، وحتى البصرة جنوبًا، ولطالما عجزت قوات ولاة بغداد عن دحرهم، بل فشِلت محاولاتهم في الحيلولة دون وصولهم إلى تلك المدن؛ لذا لم يُخْفِ المؤرخون العراقيون الذين كانوا يراقبون الأحداث الدائرة قربهم، دهشتَهم البالغة حينما تناهت إليهم أنباء انتصار القوات المصرية الساحق على القوات السعودية، فقد تابعوا باهتمام شديد تطورات الصراع وراقبوا نتائجه.

ونستطيع أن نلمح مدى ما حققته مصر من مهابة إثر تلك المعركة،في عيني غير واحد من المؤرخين العراقيين المعاصرين، فكتب المؤرخ رسول حاوي الكركوكلي، مستندًا إلى رسالة رسمية أرسلها الشيخ حمود الثامر شيخ قبائل المنتفق العراقية إلى والي بغداد داود باشا، أن قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا دك حصونهم، ودمر قلاعهم، وأطاح برئيسهم، وأن الجيوش المصرية استولت على الدرعية التي كانوا يتحصنون فيها، ونلمح فيما كتبه تعاطفًا واضحًا مع الجيش المصري فيما حققه من نتائجَ عسكرية وسياسية.

ويجد هذا الموقف تعاطفًا أعمق في كتابات مؤرخ بصري، من جزيرة فيلكة(، هو عثمان بن سند البصري الوائلي) المتوفى سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م، فإننا نلمح في كتابه: مطالع السعود" الذي دوَّن فيه

تـاريخ العـراق خـلال نصـف قـرن من ١١٨٨ ـ ١٢٤٢هـ/١٧٧٤ـ ١٨٢٦م إدراكًا أوسع للدور المتزايد لمصر في المنطقة، وتعاطفًا أشد معها لـم يشـأ أن يخفيـه، بـل بـدا جليًّـا فـي كـل مـا كتبـه عنهـا، وهكـذا فإنـه أرَّخ ـ بتفصـيل ـ للانتصـارات المصــرية فـي نجـد، مسـتندًا فـي ذلـك إلـى شـهود العيـان، وأشـاد بقيـادة إبـراهيم باشـا المحنكـة، وببسـالة الجنـود المصـريين وصبرهم على مكاره الحرب، ووصف العمليات العسكرية للقوات المصرية في نجد وفيافيها، واستيلاءها علـى قرى عُنيزة وبريدة والقَصيم والشقراء، وحصـارها الدِّرعيـة، ثـم الاسـتيلاء عليهـا، ومـا فعلـه إبـراهيم بـالقوات السـعودية، وسـجَّل بدقـة بعـض مـا دار بـين إبـراهيم والقـادة السـعوديين مـن رسائل وحوارات، عادًّا تلك الانتصاراتِ فتحًا فتحه الله على إبراهيم وجنده، وبلـغ من تعاطفـه مـع القـوات المصـرية أن أرسـل إلـى قائـدها ـ وهـو فـي حصاره الدرعية ـ رسالة ضمَّنها نصائح ومصالح عديدة.

وعلى الرغم من أن الإطار المفترض للكتـاب هو تسجيل سيرة والـي بغداد داود باشا، فإن ابن سند أورد فصلاً مهمًّا عن حرب الجيش المصــري في بلاد المورة، وسجل ـ بـاعتزاز ـ دخول هذا الجيش مدينـة المورة، ومـا حققه فيها من إنجازات عسكرية.

ومن المؤسف أن وفاته المفاجئة، وتوقفه عن الكتابة عند حـوادث سـنة ١٢٤٢هـ، حالت دون أن توضِّح موقفه من الانتصارات المصـرية في جبهة الجزيرة وبلاد الشام، وهي الانتصارات التي كان لها الأثرُ البالغ فـي تـداعي الموقف العثماني في المدن العراقية، ومع ذلك، فإن لنـا أن نؤكـد بـأن موقـف ابن سند المتعاطف مع الدور المصري كانت لـه امتداداتُه فـي الحِقبـة التاليـة، مجسَّـدًا فـي مواقـفِ العديـد مـن القيـادات والحركـات الشـعبية فـي العـراق، المساندة للقيادة المصرية، والمناوئة للسلطة العثمانيـة،؛ كانتفاضـة الموصـل سـنتَي ١٨٣٢ و ١٨٣٩، وبغـداد سـنة ١٨٣٢، وإعـلان قيـادات عديـدة فـي عانة، وهيت، ومدن فراتية أخرى ـ الانضمامَ إلى جانب مصر.

وإذا كانت رسالة المؤرخ ابن سند إلى القيادة المصرية تمثِّلُ بادرةً جديدة في مجال قيام صلات مباشرة بين المثقفين العراقيين ومصر، فإننا نعلم أن رسائل عديدة من مثقفين آخرين، وزعماء قبَلِيِّين، وحكام مدن، قد انهالت على هذه القيادة تدعوها للتدخل من أجل تخليص العراق من السيطرة العثمانية، وضمه إلى الدولة الموحدة الجديدة التي انبلج فجرُها في المشرق العربي يومذاك.

وهكذا فقد بدت مصر - في عيون الكثير من المثقفين العراقيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر - أملاً لتغييرٍ واسع يشمل المشرقَ العربي بأسره.

ولقد أدى انسحابُ القوات المصرية من القسم الآسيوي، وانكفاؤها - نتيجة الضغوط الاستعمارية الأوربية - على نفسها، ثم انشغالها فيما بعدُ بالتوسع جنوبًا في إفريقيا، إلى وصول المشروع المصري إلى نهايته، ومن ثم تبدد فكرة أن تكون مصر القوية) أملاً (و)ملاذًا (كما بدت في المرحلة السابقة، ومن ناحية أخرى، فإن إسقاط العثمانيين حُكْمَ الأُسَر المحلية في العراق، وإعادة ربط ولاياته بالإدارة العثمانية المركزية، وهو ما تزامن مع ربط اقتصادياته بالهيمنة الاقتصادية البريطانية - قد أدى إلى ضعف إمكانات التطور المستقل للعراق في ذلك العهد، ومن ثم قصوره عن بلورة علاقاته القومية الخاصة بعيدًا عن هيمنة الإدارة العثمانية، وهكذا، لم يجد المؤرخون العراقيون، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يمكن أن يرصدوه من تاريخ مصر وأخبارها، وبدا كل قطر قد أخذ بالدوران على نفسه، مكونًا محوره الخاص.

ولقد أدرك شاعرٌ بغدادي قاد انتفاضةً مهمة ضد السلطة العثمانية في بغداد، هو عبدالغني آل جميل المتوفى سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م، أن وحدة النظام السياسي لم تَحُلْ دون حقيقة تفرُّق العرب وتجزئهم ضمن هذا النظام نفسه:

ألاَ نخْوةٌ منهمْ فيُضْحُوا إلى الذي   أيادِي سبَا قد غادرتْ ذلك المعنى

بيد أن أية محاولة لم تجرِ طيلة النصف الأخير من القرن التاسع عشر لِلَمِّ ذلك الشعث، وبذا فإن اهتمامات المؤرخين العراقيين ظلت قاصرة على تناول موضوعات محلية، أولها يتعلق بتاريخ الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية في أكثر تقدير، كما فعل إبراهيم فصيح الحيدري) المتوفى سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م في عنوان "المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد" ومحمود شكري الآلوسي) المتوفى سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م (في أخبار بغداد وما جاورها في البلاد.

وبتشكيل أول حكومة عراقية بعد الحرب العالمية الأولى، أصبحت الدولة العراقية هي المحورَ الجديد لاهتمامات أولئك المؤرخين وعنايتهم.

الفصل السادس عشر
وزارء العصر العباسي الأول والمؤرخين١٣٢ ـ ٢٣٢هـ

ليس المقصود من هذه الدراسة تعريف القارىء بماهية منصب الوزارة ، أو إعطاء القارىء ترجمة عن حياة وزراء هذا العصر، فقد ألفت في هذا الموضوع العديد من الكتب والبحوث المتأنية، وإنما الهدف الذي قصدناه من وراء هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الدور الذي لعبه أشهر وزراء هذا العصر في مختلف الجوانب العامة مما أحدث تغييرًا في أوضاع المجتمع الإسلامي؛ سواءً سياسيًا، أم اقتصاديًا، أم إداريًا، أم اجتماعيًا.

ونظام الوزارة واحد من النظم السياسية الهامة في الإسلام، بل هو أهم النظم السياسية بعد الخلافة، إلا أن منصب الوزارة ـ كمؤسسة مستقلة لها صلاحيات معينةـ لم يعرف إلا في العصر العباسي، وفي ذلك يقول ابن طباطبا " الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس. فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار بذوي الحجة والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير "وزيرًا" ، وكان قبل ذلك يسمى "كاتبًا أو مشيرًا".

فكلمة "وزير" كانت تعني عند العرب في صدر الإسلام "المؤازر أو المعين" ولم يتعد هذا الاصطلاح المشاورة والمؤازرة بالرأي والعمل. وعندما أصبحت الخلافة ملكًا في بني أمية احتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونهم في أمور الدولة ويستعينون بهم في أمور القبائل والعصائب، واصطناع الأحزاب منهم فاختاروا بعض البارزين من ذوي الرأي والسياسة ليقوموا بمثل هذا العمل، فكان هؤلاء يقومون بمهام المعاونين والمستشارين والكتاب، لأن الوزارة كمنصب أو رتبة سياسية لم يكن قد تقرر أمرها بعد بصورة رسمية حتى أن بني أمية كانوا ينكرون أن يطلق

على كتابهم ومعاونيهم لقب " وزير" وفي ذلك يقول السعودي: كانت ملوك بني أمية تنكر أن يخاطب كاتبًا لها بالوزارة وتقول: الوزير مشتق من الوزارة، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة ولا يستثنى من هذا إلا زياد بن أبيه؛ إذ لقبه بعض الناس "بالوزير" في عهد معاوية بن أبي سفيان.

ويظهر من هذا أن العباسيين هم الذين عرفوا المعنى السياسي للوزارة وإن لم تظهر أهميتها من أوائل هذا العصر أيضًا. فقد عرف أبو سلمة الخلال أحد أركان الدعوة العباسية باسم وزير آل محمد إلا أنه لم يتمتع بصلاحيات أو سلطات كاملة في جميع الدواوين، كما أنه لم يسكن للوزارة أبهتها ورونقها في عهد أبي جعفر المنصور.

وباستقرار نظام الخلافة وتطور النظم الإدارية تطورت سلطة الوزير في تصريف شئون الحكم، ولم تكن صلاحيات من تولوا هذا المنصب محدودة، بل كانت تتوقف على مدى سلطة الخليفة من قوة وضعف، فبعض الوزراء تمتع بصلاحيات وسلطات إدارية واسعة وبعضهم لم يعط إلا سلطات محدودة حتى إن الماوردي صنف الوزارة صنفين رئيسيين:

أولهما: وزارة التفويض: الذي يمارس فيها الوزير صلاحيات الخليفة كاملة في الإدارة فيما عدا ثلاثة أمور، هي حق تعيين ولي العهد، أو عزل الخليفة من عينه الخليفة.

الثاني: وزارة التنفيذ: وتأتي في مرتبة تالية لوزارة التفويض وتقتصر فيها سلطات الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة وقرارته.

ونظرًا لأهمية منصب وزير التفويض فإن هناك شروطًا يجب توافرها في من يلي هذا المنصب، وهي غير معتبرة فيمن يلي منصب وزارة التنفيذ وهي:

- ✓ الحرية.
- ✓ الإسلام.

- ✓ العلم بأحكام الشرعية.
- ✓ المعرفة بأمرى الحرب والخراج.

ولا أدل علـى أن منصب الـوزارة يعد مـن أهـم مناصـب الدولـة بعـد منصب الخلافـة، مـن أن أصـحاب هـذا المنصب شـاركوا الخليفـة فـي صـنع القرار السياسي وتركوا بصمات واضحة فـي النـواحي السياسية، والإدارية والاقتصـادية، والاجتماعيـة والفكريـة. كمـا اسـتغل بعضـهم هـذه الرتبـة لأغـراض معينـة ولعـل أشـهر مـن اسـتغل هـذه المرتبـة لأغـراض سياسـية خاصـة هو أبـو سلمة الخـلال؛ أول الـوزراء العباسـيين مـن حيـث الترتيـب الزمنـي.

أ. نشاط أبي سلمة الخلال السياسي قبل تسلم بني العباس السلطة:

قاد أبو سلمة الخلال الدعوة للعباسيين في الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلم بني العباس السلطة، وهو أول من تلقب بالوزارة فـي العصـر العباسـي. كان فارسي الأصل، واسمه: حفص بـن سليمان الهمذاني الخلال مولى بـن الحارث بن كعب من العراق، وقد اتفق أغلب المؤرخين القدامى علـى أنـه كان من مياسير أهل الكوفة ، وكـان يعمل بالصيرفة . أمـا تلقيبـه بـالخلال ـ نسبة إلى الخل ـ فربما يعود إلى أن منزله بالكوفة كان في حارة الخلالين.

تعرف أبو سلمة على الدعوة العباسية عن طريق "بكيـر بـن ماهـان"، رئيس الدعاة بالكوفة، وأهمهم على الإطلاق، نظرًا لطول المدة التـي قضـاها في رئاسة الدعوة ، وإخلاصه لهـا وتفانيـه فـي خدمتـه ولعل أول عمل جدى قام به أبو سلمة في خدمة الدعوى العباسية هو تكليفه من قبل بكير بن ماهان بالذهاب إلـى خراسـان ليهيـىء أنصـار وشيعة العباسـيين هنـاك ليـوم الثـورة المرتقب، وقد طلب منه أن يأمر الشيعة بتسويد الثياب، وأعطاه ثلاثة رايـات سـود؛ واحـدة لمـن بمـرو مـن الشـيعة، والأخـرى لمـن بجرجـان؛ وأن يبعـث بالثالثة إلى ماوراء النهر. واستطاع أبو سلمة أن يـؤدي عملـه بكفـاءة عاليـة، وأن يبث دعاته ورسله. وكانت مدة إقامته في خراسان أربعة أشهر رجع

بعدها إلى الكوفة، فكان بذلك أول من أدخل الرايات السود إلى خراسان وعمل على نشر الدعوة بها.

وبعد وفاة بكير بن ماهان سنة ١٢٧هـ / ٧٤٤م تسلم أبو سلمة قيادة الدعوة بناء على توصية ابن ماهان. واتخذ من الكوفة مركزًا له كما فعل ابن ماهان من قبل ، وذلك لوقوعها في منتصف الطريق بين الحميمة في الأردن مقر إبراهيم الإمام وبين خراسان. وأخبر إبراهيم الإمام شيعته بخراسان أنه عين أبا سلمة الخلال كبيرًا للدعاة بالكوفة، وأمرهم بطاعته. وقد عمل أبو سلمة في خدمة الدعوة العباسية بكل إتقان وإخلاص، وبذل أموالاً طائلة من أجل إظهارها، وذلك في أكثر مراحلها حرجًا. وكثيرًا ما كان يتردد على خراسان مشرفًا على أمورها هناك مصطحبًا معه أبا مسلم الخراساني.

وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية لعب أبا مسلمة دورًا سياسيًا مهمًا وبارزًا. فما أن انتصرت الجيوش الخراسانية في خرسان ودخلت العراق حتى أرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد بن عبدالله القسري أن يعلن الدعوة بالكوفة مظهرًا السواد شعار العباسيين.

وكان أن مضى محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فدخله ، ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد، بعد أن هرب صاحب الشرطة الموالى للأمويين إلى واسط ملتحقًا بابن هبيرة والى الأمويين على العراق. وبعد ذلك طلب أبو سلمة من الحسن بن قحطبة قائد القوات الخراسانية أن يدخل الكوفة، فدخلها يوم الجمعة ١٠ محرم ١٣٢هـ / ٣٠ أغسطس ٧٤٩م . وأقبل الحسن إلى أبي سلمة وسلم إليه الرئاسة، وخاطبه باسم "وزير آل محمد" وبايعه أهل خراسان وأهل الكوفة، وأضحى بذلك صاحب السلطة الفعلية والممثل الشرعي لآل محمد. ثم خطب أبو سلمة وهنأ القواد والجنود من أهل خراسان بالنصر وأعلن الإمامة الهاشمية دون أن يسمى الخليفة بالاسم.

ب. دور أبو سلمة السياسي والإداري بعد ظهور الدعوة العباسية بالعراق:

وبعد هذا الانتصار الذي حققه أبو سلمة في الكوفة وتسلمه جميع السلطات الفعلية بوصفه الممثل الشرعي لآل محمد، رحل إلى حمام أعين على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة وعسكر بها. ومن هناك أخذ بتنفيذ سلطاته ومسئولياته، فبدأ بتأسيس الدواوين وتعيين العمال عليها، ووجه القواد إلى النواحي ليقاتلوا فلول الجيوش الأموية بها. وفرق العمال في البلدان ليضبطوا أمورها.

أما فيما يتعلق ببيت المال والخزائن فقد حمل ما فيها إلى المعسكر وأخرج أعطيات الجند منها. وأنفذ عمال الخراج إلى الأقاليم فجبا الخراج.

ومن معسكره بحمام "أعين" أخذ أبو سلمة يصدر الأوامر ويراسل أبا مسلم الخرساني في مستجدات الأمور، ويدير شؤون الثورة باسم الدعوة للإمام القائم من بنى العباس دون أن يسمى الخليفة.

حاول أبو سلمة وللمرة الثانية أن يلعب دورًا سياسيًا بارزًا وخطيرًا على مسرح الأحداث. فكما كان له دوره الذي لا يستهان به في قلب الحكم الأموي، أراد كذلك قلب الحكم العباسي إلى علوى في أشد أوقات تاريخ الدعوة العباسية حرجًا. فعندما وصل أبو العباس وآل بيته إلى الكوفة في صفر سنة ١٣٢هـ سبتمبر ٧٤٩م ، لم يستقبلهم أبو سلمة وأبقاهم خارج المدينة منكرًا قدومهم بقوله: (خاطروا بأنفسهم وعجلوا) وكتم أمرهم عن جميع القواد ، ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال.

ويتفق أغلب مؤرخينا التقاة على انحراف أبي سلمة في هذه الفترة عن العباسيين، ورغبته في استغلال الدعوة لصالح العلويين، فاليعقوبي يرى أن سبب إخفاء أبي سلمة وآل بيته (أنه دبر أن يصير الأمر إلى آل أبي طالب)، بينما يرى المسعودي أن أبا سلمة حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام

أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية لآل أبي طالب، (لأنه خاف انتفاض الأمر وفساده عليه). أما الجهشياري فيذكر (أنه لما صح عند أبي سلمة موت إبراهيم الإمام لقي رجالاً من شيعة علىّ فناظرهم على نقل الأمر إلى ولد علىّ)، أي أنه لما درس أحوال بني العباس لم يجد فيهم من يصلح أن يتولى إمامة المسلمين، كما أشار الطبري، ومؤلف كتاب أخبار الدولة العباسية إلى أن تنكر أبي سلمة لأبي العباس وأهل بيته وتضيقيه عليهم.

على أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل، إذ لم ترض تلك الأطراف قبول دعوة أبي سلمة الخلال، وبذلك وقع أبو سلمة ضحية سوء تقديره، وعدم بعد نظره.

وكان أبو سلمة الخلال في تلك الأثناء يتغيب عن أبي العباس وأهل بيته، وكان كلما أرسل إليه أبو العباس ليسأله عن موعد ظهورهم يطلب منه التريث، ويخبره بأن الوقت لم يحن بعد. وبقوا على هذه الحالة أربعين يومًا وكذلك كان يفعل مع الخراسانيين عندما يسألونه عن الإمام، إلى أن أكتشف الخراسانيون عن طريق أبي الجهم بن عطية الباهلي وعدد من القادة الآخرين مكان اختفاء أبي العباس وبايعوه وأعلنوا اسمه خليفة للدولة الجديدة.

وبعد فشل أبي سلمة في جهوده التي بذلها لنقل الخلافة إلى العلويين وجد نفسه في مأزق حرج ، فلا هو عباسي كما كان مع إبراهيم الإمام، إذ أن قادة الثورة لم يكونوا مستعدين أن يتنازلوا على سلطاتهم التي أحرزوها، وكانوا على يقين من أنه لتأمين استمرار نجاح ثورتهم لا بد من التمسك بالعباسيين أصحاب الدعوة، ومبايعة أبي العباس إمامًا لدولتهم الناشئة. كما أنه لم يجد من العلويين من ينصره ويأخذ بيده.

ولم يكن أمام أبي سلمة، الذي تمت مبايعة أبي العباس له دون علمه ، إلا أن يقبل بالأمر الواقع ويبايع الخليفة ، مبررًا موقفه بأنه كان يحاول تمهيد الأمور لاستقامة الأمر. وتقبل السفاح عذره قائلاً: "عذرناك يا أبا سلمة غير مفند، وحقك لدينا معظم وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة".

ويبدو مما تقدم أن أبا سلمة ـ بصفته الرئيس الفعلي للحكومة المؤقتة بالكوفة ـ كانت تقع على عاتقه مسئولية اختيار غمام جديد بعد موت إبراهيم الإمام ، ترضى عنه جميع الأطراف الهاشمية، والخراسانية، وقادة الثورة . لهذا ظل لمدة شهرين يبحث عن شخص قادر على استقطاب جميع هذه الأطراف، لأن أبا العباس في رأي أبي سلمة لم يكن الشخص المناسب لتولي هذا المنصب.

وعلى الرغم من معرفة أبي العباس بكل ما فعله أبو سلمة لأبعاده عن منصب الخلافة، إلا أنه استوزره وأقر تلقيبه بوزير آل محمد. وقد أجمع المؤرخين على اكتساب الخلال لهذا اللقب قبل فترة الدعوة إلا أنهم اختلفوا حول الصلاحيات التي ترتبت على منحه، فبعضهم يرى أنه كان لقبًا تشريفيًا أطلق على الخلال نظير خدماته، وبعضهم يرى أنه ينطوي على مسئوليات محدودة.

وإذا دققنا النظر في طبيعة المهام التي مارسها الخلال والمسئوليات التي تقلدها في الفترة ما بين مقتل إبراهيم الإمام وتولي أبي العباس الخلافة نرى أنه كان صاحب السلطة الفعلية في الكوفة. وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الدعوة. وذكر الجهشياري أنه: "عسكر في حمام أعين قرب الكوفة وأقام بها ووزع عماله على السهل والجبل، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ منه وترد عليه"، بمعنى أنه أسس دواوين جديدة، وقام بتعيين العديد من الولاة والعمال على الأقاليم ، وجهز بعض الجيوش للقيام ببعض العمليات، إلا أن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة ، لأنها

بقيت في يد أبي الجهم بن عطية الباهلي، مندوب أبي سلمة السياسي الذي رافق جيش قحطبة.

أما عن سلطاته وصلاحياته خلال توليته الوزارة بعد تولي أبي العباس الخلافة فيبدو أن ديوان الخراج، وديوان الجند لم يكونا داخلين في سلطته، لأن الخليفة كان قد قلدهما لخالد بن برمك. ولا ريب في أن هذين الديوانين كانا من أهم الدواوين في الدولة، فالأول يشرف على جبابة الخرج، والمصدر الرئيسي لدخل الدولة، بينما ينظم الثاني السجلات المتعلقة بمصروفات الجند، وهي أهم باب في مصروفات الدولة آنذاك. وكثيرًا ما وقع الصدام بين سلطة أبي العباس وسلطة وزيره أبي سلمة، لعدم تحديد صلاحيات الثاني، الذي كان يرغب في السيطرة على الجهاز الإداري كله . وقد ذكر التقاة من مؤرخينا (بأن أبا سلمة كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة، أي دون مشاورة وأنه كان يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين).

وبعد أن ثبت أبو العباس أقدامه في الحكم أحس بأن الفرصة مواتية له بأن يتخلص من وزيره ومنافسه السياسي الخطير. فكتب إلى أبي مسلم الخراساني في خراسان يستشيره في قتل أبي سلمة، فوافقه أبو مسلم على ذلك، وأرسل رجاله من خراسان لينفذوا عملية القتل في رجب سنة ١٣٢هـ فبراير ٧٥٠ م ، وأعلن رسميًا أن الخوارج اغتالته وقد كان للمنافسة بين العملاقين أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال دور كبير في التعجيل بالتخلص من الخلال.

وهكذا قتل أول من وقع عليه لقب الوزارة في الدولة العباسية، ولم تغفر له سابقته في الدعوة وإسهاماته من الناحية السياسية في قلب حكم الدولة الأموية، وإسهاماته الجليلة في خدمة الدعوة العباسية، حيث أنفق كثيرًا من أمواله الخاصة على رجالها إلا أن هذه الجهود والخدمات لم تشفع له عند أبي العباس.

اختلف المؤرخون على من احتل منصب الوزارة بعد أبي سلمة الخلال، فقيل أن أبا الجهم بن عطية الباهلي هو الذي تسلم مسئوليات الوزير دون اتخاذ اللقب، وكان المهيمن على الجيش خلال تولى أبي سلمة الوزارة. وبعد مقتل أبي سلمة أصبح من المقربين من الخليفة، وبمثابة حاجبه ومستشاره. وبذلك يكون قد جمع بين السيطرة على الجيش والسيطرة على الإدارة دون أن ينال لقبًا معينًا أو مرتبة سياسية أو إدارية معينة.

وقد بقي أبو الجهم موثوقًا به ومقربًا من الخليفة أبي العباس مدة خلافته، فهو الذي أخرج العباس من موضعه الذي أخفاه فيه أبي سلمة، وقام بأمره حتى بويع، ولكنه لم ينل تلك الثقة من قبل أبي جعفر المنصور، فقد اتهمه أبو جعفر بأنه جاسوس لأبي مسلم الخراساني، وأنه يكاتبه بأخباره فتخلص منه بالسم.

على أن بعض المؤرخين يرون بأن أبا العباس بعد مقتل أبي سلمة استوزر خالد بن برمك وزارة تنفيذ . غير أن ه رفض أن يسمى "وزيرًا" لأنه شؤم على صاحبه، قد خلف أبا سلمة في جميع مهامه ومسئولياته بالإضافة إلى إشرافه على ديوان الجند، وديوان الخراج والغنائم، وفي الواقع أن إشراف خالد على الشئون المالية يرجع إلى ما قبل تولي أبي العباس الخلافة، فقد تقلد خالد خراج ما يفتحه جيش قحطبة بن شيب الطائي من البلاد. كما أشرف على الغنائم وتوزيعها بين الجند، وعرف عنه أنه كان عادلاً في توزيعها، فأرضى بذلك جميع أهل خراسان حتى وصفه الجهشياري: "بأن ما من أحد من أهل خراسان إلا وكان عليه يد ومنة، لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله"، ويبدو أن أبا العباس أراد الاستفادة من خبرة خالد في الشئون المالية، إضافة إلى خبرة قومه في الناحية الإدارية، فأقره على ما كان تحت يده من الغنائم، ثم قلده ديوان الخراج وديوان الجند. وظل شخصًا موثوقًا به عند الخليفة يستشيره في الأمور العظيمة ويعمل بنصائحه وبتدبيره.

فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة أبقى خالدًا في منصبه مدة فكان خير سند له في تثبيت دعائم حكمه، وفي إخماد الفتن والثورات. كما كانت له جهود بارزة في الإصلاح الإداري، فهو أول من ثبت الدواوين في دفاتر بعد أن كانت تثبت في صحف. وكان أول من سمى المستسمحين الذين يدخلون على الوزير لطلب العفو والسماح "بالزوار" وكانوا قبل ذلك يسمون بالسؤال، لأنه كان يستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف. ويبدو أن لخالد بن برمك دورًا سياسيًا مهمًا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي ابن منصور.

إلا أن أبا جعفر عزل خالدًا من جميع مهامه وقلد أبا أيوب سليمان بن مخلد المورياني وزارته. وولى خالد ولاية فارس لمدة سنتين، ثم عزله عنها بسبب وشاية أبي أيوب المورياني. فصادر أبو جعفر أملاكه وألزمه بدفع ثلاثة ملايين درهم. ثم عفا عنه بعد ذلك وولاه الموصل سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥ م وظل خالد واليًا عليه حتى توفي المنصور، فأبقاه عليها، وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م في أوائل خلافة المهدي.

أبو أيوب سليمان بن مخلد المورياني:

يبدو أن أبا جعفر المنصور استفاد من تجربة أخيه أبي العباس مع وزيره أبي سلمة الخلال، فعمد إلى إتباع سياسة إدارية صارمة نجحت في تحديد سلطات وزرائه. فبعد أن تخلص من أبي الجهم بن عطية، وأبعد خالد بن برمك، تردد المنصور في اتخاذ وزير، خوفاً من تضخم نفوذه. وكان معظم وزراء المنصور في أعمالهم أقرب إلى الكتاب والمساعدين الإداريين منهم إلى الوزراء.

وفي ذلك يقول صاحب الفخري: "فلم تكن الوزارة في أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء، وكانوا لايزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق".

ولعل أبرز من ظهر على مسرح الأحداث من وزراء المنصور هو أبو أيوب المورياني، وهو فارسي الأصل من مؤريان من قرى الأهواز. وكان ذا خبرة إدارية بشئون العراق، كما كان ضليعًا في الكيمياء، والطب والفلك، والرياضيات، والسحر، ولكنه لم يكن متمكنًا في الفقه والشريعة الإسلامية.

وترجع مقدرة أبي أيوب الإدارية وخبرته بالشئون المالية إلى أواخر العهد الأموي، فقد عمل كاتبًا لأمير الأهواز سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة. كما كان مستخدمًا في الديوان في ولاية يوسف بن عمر، على العراق في عهد هشام بن عبدالملك.

أما عن كيفية اتصاله بالعباسيين، فقد حدث ذلك عندما كان أبو أيوب كاتبًا لسليمان بن حبيب بن المهلب. عندما قلد سليمان هذا أبا جعفر كورة ايدج بين خوزستان وأصبهان، كان على أبي جعفر أن يرسل بعض الأموال إليه، إلا أنه احتجزها لنفسه فقبض عليه سليمان وأمر بضربة، فخلصه أبو أيوب منه وكان ذلك بداية اتصال أبي أيوب بالمنصور.

وعندما تولي أبو جعفر المنصور الخلافة رأى أن ينتفع بخبرة المورياني الطويلة بشئون العراق الإدارية والمالية ، وفي نفس الوقت مكافئته على ما أسداه إليه من معروف، فاستدعاه، وأسند إليه بعض الأعمال. فكان أول عمل إداري لأبي أيوب في خلافة المنصور هو النيابة عن عبدالملك بن حميد، كاتب المنصور، في حال غيابه عن مجلس الخليفة. وحدث أن مرض عبدالملك بداء النقرس فلزم داره وقام أبو أيوب بالعمل نيابة عنه، وقد وفق في أدائه، مما زاد منزلته عند المنصور، حتى قلده وزارته، والإشراف على الدواوين وتدبير شئون الدولة. ومما يدل على علو منزلته عند المنصور أنه عين جميع أهله وأقربائه في المناصب الإدارية.

ونفى جواتياين صفات الوزارة وما يترتب عليها من صلاحيات عن أبي أيوب على الرغم من إبرازه حجم قوة مركزه بقوله : "ونستطيع أن نبرز قوة مركز أبي أيوب لو عرفنا حشد الموظفين الذين حشدهم المنصور ليحلوا محله في المهام التي كان يشغلها بعد عزله"، مستندًا في ذلك على رواية الجهشيارى بأن المنصور بعد عزل أبي أيوب عين ثلاثة مكانه ليقوموا بعمله، أحدهم للخاتم، والثاني لشئون الخلافة العامة والمراسلات الخاصة، والثالث لإدارة ضياعه. وحصر جواتياين بذلك عمل أبي أيوب الأساسي في تقديم الخدمات الشخصية للخليفة **وتشمل:**

- مصاحبة الخليفة في المناسبات العامة.
- العمل كمستشار خاص له.
- النظر في البريد الخلافي، والإشراف على الإنشاء.
- النظر في ضياع الخليفة الخاصة.

والحقيقة أن الجهشياري أطلق لقب وزير على أبي أيوب في عدة مناسبات، ولم يحصر سلطاته في المهام التي حددها جواتياين، إذ ذكر في عدة مواضع الصلاحيات الوزارية التي منحها المنصور لأبي أيوب مثل تقليده للدواوين مع الوزارة. واستطاع أن ينال حظوة كبرى عند المنصور، وأن يكون له نفوذ في الدولة حتى أنه عين جميع أقربائه في المراكز الإدارية، إضافة إلى جباية الخراج، كما كان يشارك المنصور في اتخاذ القرارات السياسية ومنها: القضاء على أعداء أبي جعفر، فهو الذي طمأن أبا مسلم الخراساني عندما أراد المنصور أن يتخلص منه، حتى يتمكن من القبض عليه. كما كان له دور إيجابي في القضاء على عبدالجبار الأزدي وإلى خراسان، وفي العفو عن سفيان ابن معاوية قاتل عبدالله بن المقفع.

وهكـذا نـرى أن أبـا أيـوب لـم يكـن كاتبًـا أو مستشــارًا خاصًــا لـدى المنصور وإنما كان نفوذه وسلطاته أكبر من ذلك بكثير، حتـى أصبح مهابًـا عند الخاصة من أهل بيت الخلافة وعند العامة، فهم يلجئون إليه لقضـاء حوائجهم، وإذا بدرت منهم بادرة يلتمسون العفو من المنصور على يديه.

استمرت علاقة المورياني بالمنصور وثيقة جدًا إلى أن بدأت سموم الوشاية تعمل عملها في نفس المنصور، وبدأ المنصور يشك في إخلاص المورياني، ووفائه له نتيجة لسعاية الربيع بن يونس حاجب المنصور وأبان بن صدقة كاتب أبي أيوب، وكان في نفسهما شيء منه. فقد نجح الاثنان في إبلاغ أبي جعفر عن أدق تفاصيل تحركات المورياني وأقربائه الذين عينهم في المناصب لجمع الثروات الضخمة وابتزازهم للأموال.

ويبدو أن المورياني استغل واردات الدولة المالية من جباية وخراج والنظر في ضياع وممتلكات الخليفة الخاصة لصالحه الخاص، ومن ذلك:

- احتكار لرخص المواد الغذائية في سواد الكوفة والبصرة طمعًا في الربح.
- أخـذه مبلـغ ثلاثمائــة درهـم لإصــلاح ضـيعة ابـن الخليفـة (صــالح المسكين) بالقرب من الأهواز فأخذ المال ولم يصلحها.
- المتاجرة باسمه، ومركزه، ومن ذلك بيع اسمه لصاحب ضيعة من الأهواز بمبلغ من المال، يقدر بمائة ألف درهم في كل سنة، وذلك حتى يرهبه العمال والناس فلا يعتدون على ضيعته.
- مشاركته هو وأخوه خالد في الأرباح مع العمال الذين يعينهم على الجباية، حتى قيل بأن الأموال التي كانت تجمع مع جباية الأهواز كان يذهب نصفها لبيت المال والآخر يذهب إلى بيت مال خالد شقيق أبي أيوب.

وعندما تحقق للمنصور سوء تصرفات وزيره وأعوانه وابتزازهم للأموال، أمر بعزل المورياني عن الوزارة ، كما عزل جميع أقربائه وسجنهم وصادر أموالهم وضيق عليهم سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م . وبقي المورياني في السجن حتى مات في السنة التالية سنة ١٥٤هـ / ٧٧١م .

وبعد عزل أبي أيوب قلد أبو جعفر الفضل بن سليمان الطوسي الخاتم، وقلد أبان بن صدقة ديوان الرسائل، وقلد صاعدًا مولاه النظر في ضياعه وممتلكاته الخاصة، كما ولى ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة، وديوان خراج الكوفة وأرضها عمرو بن كليغ.

وهكذا يبدو أن تولية أبي أيوب المورياني الوزارة كانت تجربة أبطلها المنصور بعد ذلك، إذ أنه لم يعين أحدًا مكانه، واستمر كعادته يمارس السيطرة المباشرة على شئون دولته.

أشهر وزراء مرحلة الاستقرار وأثرهم على النواحي الاقتصادية والسياسية:

١. أبو عبيدالله معاوية بن يسار وأثره على النواحي الاقتصادية:

عرف عهد المهدي بأنه بداية عهد الاستقرار والازدهار للدولة العباسية، لأن والده المنصور ترك له دولة أمنة مستقرة مليئة خزائنها بالأموال. ففي عهده نمت المؤسسات الإدارية ورسخ النظام الوزاري، فازدهرت نتيجة لذلك الحياة الإدارية، والسياسية، والاقتصادية، وبدأ منصب الوزارة يتخذ معالمه وتتسع صلاحيات الوزراء. وقد منح المهدي الوزراء سلطات واسعة واعتمد عليهم بشكل كبير، وكان يتم تعينهم وفقًا لكفاءتهم الإدارية والكتابية.

ومن أشهر وزراء المهدي أبو عبيدالله معاوية بن يسار الأشعري الطبراني، وهو جد محمد بن عبدالوهاب الكاتب، أصله من فلسطين، حيث خدمت أسرته الإدارية الأموية، وكان والده كاتبًا لقائد جند الأردن في طبرية.

ومن هنا جاءت نسبة الطبراني إلى أبي عبيدالله. واختار المنصور أبا عبيدالله بن يسار لتربية ابنه المهدي، وأن يكون كاتبًا له، يقول صاحب الفخري: "أن المنصور كان قد عزم على أن يستوزه، ولكنه آثر به ابنه المهدي وأوصاه بأن يمتثل لمشورته".

إن اختيار المنصور أبا عبيدالله معاوية بن يسار لتربية ابنه وولى عهده "المهدي" يرجع إلى خبرة أبي عبيدالله وأسرته في الشئون الإدارية. وكذلك إلى علمه وحسن تصرفه، فقد نال ابو عبيدالله في صغره نصيبًا كبيرًا من العلوم المختلفة، مما كان له أثره في حسن تصرفه وإبداعه في تنظيم الشئون الإدارية والمعاملات الاقتصادية. لازم عبيدالله مولاه المهدي طيلة فترة ولايته للعهد، فقد رافقه في حملته على خراسان سنة ١٥٠هـ ٧٦٧م، وأقام معه في الري مدة طويلة عمل أثنائها على تدبير شئونه الإدارية والمالية بكل حرية وكفاءة. كذلك استعان به المنصور في أخذ البيعة للمهدي من عيسى بن موسى، وفي كتابته نص تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمهدي.

وبعد وفاة المنصور أخذ أبو عبيدالله البيعة العامة من الناس في بغداد للمهدي. فكان طبيعيًا أن يقلده المهدي وزارته ودواوينه سنة ١٩٥هـ / ٧٥٥م نظير كفاءته وإخلاصه. ويعد أبا عبيدالله من أكثر وزراء العصر العباسي إنجازًا من الناحية المالية. فكان على عكس سلفه أبي أيوب المورياني، شديد الحرص على بيت المال، يشير على المهدي بالاقتصاد في النفقة، وعدم الإسراف. كما كان عفيفًا يحب الخير ويحض عليه، ويعطف على المحتاجين إلا أنه يؤخذ عليه أنه كان شديد التكبر والتيه.

وعلى الرغم من قصر مدة وزارة أبي عبيدالله إلا أنه أنجز عدة إصلاحات إدارية ومالية لم يعمل بها من قبل، واحتذى بها من جاء من بعده، يقول عنه أبن طباطبا " أنه كان مقدمًا في صناعته فأخترع أمورًا ".

فمن هذه الأمور إصلاحاته الإدارية والمالية والتي منها أنه:

- رتب ديوان الخراج وقرر قواعده.
- أول من صنف كتابًا في الخراج وتبعه آخرون بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج.
- نظم جباية الأموال.
- نقل الخراج من المساحة إلى المقاسة.

وقد تم وضع نظام المقاسة سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م ، وكان الخراج يؤخذ بالنقد وعلى مساحة الأرض ، زرعت أم لم تزرع فرأى أبو عبيدالله أن تطور الظروف يستلزم إجراء تعديل هذا النظام . لأن إهمال الولاة الأمويين كان قد أدى إلى خراب السواد وتدهور الزراعة ، فأشار على المهدي بنظام المقاسمة. الذي يقوم على جعل أرض الخراج من المساحة على الجريب إلى المقاسمة على الإنتاج، **وكان على النحو التالي:**

"النصف على الأراضي التي تسقى سيحًا" والثلث على الأراضي التي تسقى بالدوالي، والربع على تلك التي تسقى بالدواليب .. ولا شيء عليهم سوى ذلك". أما خراج الكروم والنخيل والشجر فإنه بقي على النظام القديم، ولكنه روعي فيه القرب من الأسواق والموانئ ، إضافة إلى جودة الحاصول أو رداءته، فقلل بذلك من عسف الجباة.

ومن ضمن سياسة أبي عبيدالله معاوية بن يسار المالية اهتمامه بتحسين وإصلاح الأراضي الزراعية، لما للعلاقة الوثيقة بين الزراعة وواردات الخراج وغيره من الضرائب الأخرى. وقد أشار الوزير على الخليفة المهدي بأن تكون نفقات الإرواء من إنشاء شبكات الإرواء والتصريف وبناء السدود، وعمل القناطر وسد الشقوق وحفر الأنهار وتقوية الضفاف من بيت المال. ويبدو أن هذا النظام لم يستمر طويلاً، فعندما أمر المهدي بحفر نهر الصلة وإحياء ما على ضفتيه من الأراضي

وجعل نفقتها صلة لأهل الحرمين فإن نفقات حفر هذا النهر دفعت من بيت مال المسلمين، إلا أن المهدي بعد ذلك أمر بمضاعفة الضريبة المفروضة على المزارعين المستفيدين من حفر هذا النهر لمدة خمسين سنة تعويضًا لبيت المال عن تلك النفقات.

وكما كانت إسهامات أبو عبيدالله معاوية بن يسار إسهامات عظيمة في خدمة الاقتصاد الإسلامي كذلك كانت كفاءته الإدارية والكتابية. فقد كان المهدي يستعين به أثناء جلوسه للمظالم، ويشاوره في تعيين ولاة الأقاليم. وكان يخصه بكتابة الرسائل المهمة الصادرة عنه، فهو الذي كتب إلى الأقاليم نيابة عن المهدي كتاب تنازل عيسى بن موسى للهادي، وكذلك فعل عندما أخذت البيعة لهارون وليًا ثانيًا للعهد. وهو الذي قام بتحرير كتاب يأمر فيه عمال الخراج برفع العذاب عن أهل الخراج الذين كانوا يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير عندما لايستطيعون إيفاء ماعليهم من أموال وطالب عمال الخراج بأن يعاملوهم معاملة الغرماء.

ظل أبو عبيدالله معاوية بن يسار، مقربًا من المهدي ومحط ثقته، إلا أن شدة تكبره وتخطيه حدود سلطاته، وتدخله في أمور لا تعنيه نفرت منه الخليفة، وأصبح عرضة للمنافسين له والوشاة، ومن لهم مصلحة في إبعاده عن منصبه.

وكان الربيع بن يونس من أشد هؤلاء المنافسين لأبي عبيدالله، ولم يجد الربيع سبيلاً إلى طعن أبي عبيدالله في شخصه، وذلك لكفائته وتقدمه في صناعته وورعة، وتقواه، ولكنه وجد السبيل إلى ذلك في اتهام أحد أبنائه بالزندقة، واقنع المهدي بذلك، فأمر المهدي بقتلــه وكان ذلك سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م.

وبعد هذه الحادثة صرف المهدي أبا عبيدالله عن وزارته ، مكتفيًا بجعله على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م فقلده الربيع بن يونس. وما زال أبو عبيدالله يؤدي عمله في بلاط الخليفة بكل أمانة وإخلاص إلى أن طلب المهدي من الربيع يحجبه عنه استحياء منه بسبب إقدامه على قتل ولده . فانقطع بداره، واضمحل أمره ولم يطل العمر به إذ توفي سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦.

٢. يعقوب بن داود وسياسة المصالحة مع العلويين:

هو يعقوب بن داود بن عمرو بن عثمان بن طهمان، مولى بني سليم، فارسي الأصل، نشأ في بيئة اشتغل أفرادها بالكتابة فقد خدم والده وأعمامه الأمويين، واشتغلوا كتابًا في الديوان في خراسان حتى ولاية نصر بن سيار. وعرف بشغفه بالأدب وصنوف العلم. وبعد قيام الدولة العباسية لم يطمع أفراد هذه الأسرة في خدمة بني العباس، لاتصالهم ببني أمية وعدم ثقة العباسيين بهم . فتقربوا من آل الحسن واعتنقوا المذهب الزيدي وطالبوا بالخلافة لمحمد بن عبدالله بن الحسن "النفس الزكية" طمعًا في أن يكون لهم دولة يعيشون في كنفها. وكان يعقوب هذا يجول في البلاد منفردًا تارة، وأحيانًا أخرى مع إبراهيم بن عبدالله في طلب البيعة لمحمد النفس الزكية. فلما قتل محمد وأخوه إبراهيم وفشلت ثورتهما على يد المنصور سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م توارى يعقوب وأخوته. فطلبهم المنصور حتى ظفر بهم وحبس يعقوب في السجن طوال عهد المنصور لأكثر من عشر سنوات. وعندما تولى المهدي الخلافة أمر بإطلاق سراحه من السجن بعد أن عفى عن أغلب السجناء السياسيين.

أما عن كيفية اتصال يعقوب بالخليفة المهدي وحصوله على ثقته،ومن ثم اختياره وزيرًا له، فقد أرجعتها المصادر إلى أسباب سياسية، وهي ميول يعقوب العلوية، وقربه من الشيعة ومعرفته بهم، ولكنها تختلف في تفسير ذلك، ولكن مهما يكن من اختلاف تفسيرات المؤرخين حول كيفية وصول

يعقوب بن داود إلى الخليفة المهدي. فإن جميعها تدل على أن تقريب يعقوب كان له هدف سياسي محدد وهو السعاية بآل علي.

وبذلك حظى يعقوب برضى الخليفة فأعطاه لقبًا فريدًا من نوعه هو "الأخ في الله" وخط ذلك في خطاباته ومراسلاته الرسمية التي كانت تحفظ ضمن أوراق الخلافة، وأخرج توقيعات تثبت في الدواوين وأسبغ عليه مبلغ مائة ألف درهم.

واستطاع يعقوب في وقت قصير أن يحوز على ثقة الخليفة فكان يدخل عليه وقتما يشاء ويقدم له النصائح في أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العذاب، وفكاك الأسرى والمحبوسين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين.

ولا شك في أن تلقيب المهدي " يعقوب بن داود " بلقب "الأخ في الله" له مغزاه السياسي. فقد أراد المهدي أن يستغل ظروف يعقوب واتصالاته بالعلويين، ليكسب جانبهم ويرصد تحركاتهم وأنشطتهم ، وليأنس العلويين بحكمه من جهة ثانية.

ولتسهيل مهمة يعقوب في سياسة المصالحة مع العلويين منحه المهدي سنة ١٦١هـ / ٧٧٨م سلطات سياسية كبيرة، مثل حق تعيين أمناء له في جميع الولايات، ومنح هؤلاء الأمناء سلطة على الولاة أنفسهم "فكان لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك".

ولم يزل أمر يعقوب يرتفع ويعلو عند المهدي حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة ، أي أنه وزره وزارة تفويض ، وأصدر مرسومًا رسميًا بذلك سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م فازدادت منزلة يعقوب علوًا ، حتى أخذ يقرب الزيدية وأتى بهم من كل ناحية، وولاهم مناصب الدولة ليس في العراق وحدها وإنما في جميع الولايـــات.

✍ **على أن سياسة المصالحة هذه لم تأت بالنتائج المرجوة منها، وذلك لأمور منها:**

أولاً: لأن الخلافات بين العلويين والعباسين كانت عميقة جدًا، فالعلويين لم يستسيغوا سياسة المصالحة كما أنهم لم يثقوا بيعقوب، واعتبروه شخصًا انتهازيًا، ولم يسلم عيسى بن زيد نفسه رغم التأكيدات والجوائز والضمانات التي حصل عليها من الخليفة عن طريق المهدي.

ثانيًا: أثارت الصلاحيات الكبيرة التي منحها يعقوب لأمناء وموظفي الزيدية عداء أصحاب البريد وولاة الولايات، فأخذوا يوغرون صدر المهدي على يعقوب، معللين ذلك بأن ميله للعلويين هو الذي جعله يمنحهم تلك الصلاحيات.

وبذلك بدأت علاقة المهدي تتبدل تجاه يعقوب شيئًا فشيئًا، ووجد حساده الفرصة سائحة للتخلص منه خاصة عندما أطلق يعقوب سراح أحد العلويين الذين عهد بهم المهدي لديه، وهربه. فأمر المهدي بسجن يعقوب وطرد جميع أمنائه، فظل في السجن حتى وفاة المهدي والهادي، وأطلق سراحه الرشيد بعد أن شفع له يحي بن خالد البرمكي، فأخرج من السجن بعد أن ذهب بصره وعمى فطلب أن يجاور في مكة، وأقام بها حتى توفي هناك سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م. وكانت وزارته للمهدي حوالي خمس سنوات.

وكان يعقوب ينتقد إسراف المهدي، وتبذيره للأموال، وكان كثيرًا ما يشير عليه بالاقتصاد في النفقات، وحفظ الأموال، ولا يتورع عن وصف عمله صراحة بالسرف قائلاً له في أحد المواقف التي استشاره فيها: "هذا يا أمير المؤمنين السرف".

كما أنه ينتقد بعض تصرفاته وجلوسه في مجالس الغناء واللهو وإنفاقه ٥٠ مليون درهم من بيت مال المسلمين على بناء منتزه. وبلغ من ضيقه أن طلب منه إعفاءه من منصبه قائلاً: "ليس على هذا استوزرتني، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ، وتسمع السماع.

وقد اتهم المهدي بصرف وتبذير جميع الأموال التي ادخرها والده المنصور في خزينة الدولة، وتقدر بتسعمائة وخمسين مليونًا من الدراهم.

البرامكة وزراء الرشيد:

وفي عهد هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) توضحت أعمال الوزارة وتحددت صلاحيات الوزير، وصارت الدواوين تسجل وتراقب، ولها أصحاب متخصصون وفروع منسقة. ولعل من أبرز العناصر التي ساهمت في تنظيم الوزارة والدواوين أسرة آل برمك، التي لعبت دورًا خطيرًا في هذه الحقبة من الزمن. فلقد هيمن على الوزارة يحي بن خالد البرمكي وأولاده، واستأثروا بالنفوذ والسلطان. ولقد كان لهذه الأسرة أثر واضح وفعال في المجتمع الإسلامي، مما يستوجب منا أن نلقي الضوء على نشاطها في عصر بني العباس.

تؤكد الروايات المختلفة على أن أصول البرامكة يرجع إلى الفرس، وأن هذه الأسرة كانت لها وجاهة قبل دخولها الإسلام.

ويقال أنهم اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعي في عصر الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط آسيا، وأن برمك أسلم زمن عبدالملك بن مروان وكان رجلا عالمًا بالطب والتنجيم.

وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك جد هذه الأسرة الذي لعب دورًا مهمًا في النواحي الإدارية في عهد كل من السفاح، وأبي جعفر المنصور، وشيء من خلافة المهدي، حتى توفي سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩ م "كما سبق وأن أشرت إلى ذلك" أما أشهر شخصية في أسرة البرامكة فكانت شخصية يحي ابن خالد، الذي عرف بمهارته وحسن إدارته لشئون الدولة قبل أن يتولى وزارة هارون الرشيد. ذلك أنه حاز على ثقة المنصور فولاه سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥ م على "أذربيجان"، و"أرمينية" قائلاً له: "أردتك لأمر من الأمور، وأخترتك لثغر من الثغور" فبقى واليًا عليها حتى وفاة المنصور .

وقد ازدادت منزلة يحي شرفًا في عهد الخليفة المهدي، عندما عهد إليه بتربية ابنه هارون، فقام بأداء هذه الرسالة خير قيام، ثم أسند إليه المهدي الإشراف على دواوين هارون، وجعله كاتبًا له بعد أن ولى المهدي ابنه الرشيد ولاية المغرب من الأنبار إلى إفريقيا سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩ م. وقد أستمر يحيى في إخلاصه لهارون طيلة فترة حكم أبيه المهدي، الذي أراد خلعه من ولاية الحكم، وجعلها لابنه جعفر من بعده.

وحرص يحيى البرمكي دومًا على حث هارون على التمسك بحقه في ولاية العهد، وعدم الاستجابة لرغبة الهادي، وظل يسانده حتى وصل إلى سدة الخلافة، مزودًا إياه بالخبرات التي كانت تنقصه. ذلك أن هارون ولي الخلافة وهو في مقتبل العمر، تعوزه الكفاءة والخبرة في إدارة الشئون العامة.

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك عوامل أسرية وعاطفية ربطت هارون بيحيى وأسرته، فقد رضع هارون من زوج يحيى، فأصبح أولاد يحيى أخوته في الرضاعة. كما تربى وتهذب على يدي يحيى، الذي كان يسهر على خدمته وراحته، معرضًا حياته للخطر، فنزل بذلك يحي من نفس هارون منزلة عظيمة، حتى أنه كان يناديه بـ (يا أبت). وقد عبر على حفظه للجميل الذي أسداه له يحيى ـ حين ثبته على التمسك بحقه إلى أن وصل واعتلى كرسي الخلافة ـ بقوله عندما بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦ م : (يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته إليك فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وأسقط من رأيت، فإنني غير ناظر معك في شيء).

إذا فلا غرو بعد ذلك وعجب في أن يسلم هارون عنان الأمور في الدولة ليحيى وأسرته حتى قيل أن هارون سلم لهم خاتم الدولة، فتداولوه بينهم بين سنة ١٧٣ إلى ١٨٩هـ وبذلك أصبحت ليحيى سلطة تكاد تكون مطلقة، فكانت له إدارة الدواوين كلها مع الوزارة. وكانت الكتب التي تنقذ

من ديوان الخراج باسمه، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة، وهي بدعة استنها الرشيد تجعل الوزير بمثابة النائب عن الخليفة.

وقد ساعد يحيى في إدارة شئون الدولة ، ولداه الفضل وجعفر، مدة سبعة عشر عامًا من ١٧٠هـ ــ ١٨٧هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٣ م وقد باشروا في هذه المدة جميع النواحي الإدارية، والعسكرية، والمالية، والعلمية، والأدبية حتى أن الفضل كان يلقب "بالوزير الصغير" في حين لقب جعفر "بالسلطان". وبذلك هيمن يحيى وأبناؤه على دولة الرشيد وحياته في بداية عهده، حتى أنهم كانوا يقيمون معه في قصر الخلد. لهذا فإن جميع الأمور التي كانت تجرى باسم الرشيد في بداية عهده طبعت بطابع البرامكة، فهم الذين يديرون أمور الدولة، وهم الذين يحلون المشاكل وهم الذين يتصدون للأعمال، في حين أن الرشيد حرر نفسه من جميع هذه المسئوليات الإدارية، وتسلم قيادة الجيوش لمحاربة البيزنطيين.

وبينما كان اهتمام الرشيد منصبًا على تأمين الحدود الشمالية مع البيزنطيين، كان يحي يشرف على الأمور الداخلية، ويستقل تدريجيًا عن الخليفة في الرأي، ويختار بنفسه معاونيه في الإدارة، ويهيمن عن كتاب الدواوين، ويراقب أعمالهم في الدواوين المركزية، حتى قيل إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرين رئيسًا من بين صاحب قلم. أما ولاة الأقاليم فكان يعينهم بعد أن يكتفي ظاهريًا باتباع الخليفة).

من ذلك أنه عين ابنه الفضل سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م على ولاية المشرق، وهي الجهات الواقعة غربي إيران "منطقة الجبال، طبرستان، أرمينية طوسن وأذربيجان" لأن الأوضاع لم تكن مستقرة بها، خاصة بعدما التجأ إليها يحيى ابن عبدالله العلوي الذي فر من موقعة فخ سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وقام بثورته في بلاد الديلم في بحر قزوين سنة ١٧٥هـ / ٧٩١ م. وقد نجح الفضل بعد فترة قصيرة في إخماد نيران هذه الثورة باللين، ودون سفك دماء، بعدما أقنع يحيى بقبول الصلح، وكتب له الرشيد أمامًا بشهادة القضاء والفقهاء. وكان أن سلم يحيى نفسه، وحمله الفضل إلى الرشيد.

فازدادت بذلك منزلة الفضل علوًا لدى الرشيد الذي أكرمه أشد إكرام، وأجزل له العطاء.

وفي سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣ م أضيفت خراسان إلى ولاية الفضل من أجل تجنيد قوات جديدة ، إلا أنه لم يذهب إليها حتى سنة ١٧٨هـ / ٧٩٤ م. وقد استطاع الفضل خلال فترة ولايته القصيرة على المشرق أن يقوم بأداء مهمته خير قيام. وبفضل جهوده وسياسته الحكيمة وصلاته الواسعة نجح في إقناع أمراء المنطقة المحليين، وجماعة الدهاقين، في إعداد الجند المطلوبين. فكون جيشًا عظيمًا قومه ٥٠٠٠٠ ألف جندي أطلق عليه اسم "العباسية"، أرسل منهم عشرين ألفًا إلى بغداد وأبقى الباقين في خراسان. ويبدو أن الفضل أراد أن يجعل من العشرين ألف جندي الذين أرسلهم إلى بغداد جيشًا خاصًا به وبأسرته يحميهم ويأتمر بأمرهم، ويقف في وجه الفئة الأخرى من الجند، وهم الأبناء الذين كانوا معروفين بعدائهم لسياسات البرامكة.

والواقع إن الفضل أولى اهتمامًا بالغًا لمنطقة خراسان والمشرق أثناء ولايته عليها، فهو بالإضافة إلى تكوينه جيش العباسية زاد رواتب الجند وبنى مساجد ورباطات كثيرة، وحفر قناة بلخ، وأمر بهدم معبد النوبهار، فلم يقدر عليه لإحكام بنائه فهدم منه جزءًا بنى عليه مسجدًا. وأرسل حملة بمساعدة الدهاقين لفتح بلاد كابل فاقتحمها ، وغنم منها غنائم كثيرة. وقاد حملة ضد مملكة أشروسنة. ومما يدل على عظم مكانة الفضل في خراسان أنه استطاع أن يعلن ولاية العهد لمحمد ابن الرشيد، ويلقبه بالأمين، ويأخذ البيعة له من الخراسانين، قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك في بغداد.

وهذا يعني أن إعلان ولاية العهد للأمين تمت في المناطق الشرقية أولاً بفضل تدبير الفضل، ومن ثم أعلنت البيعة في بغداد والمناطق الأخرى رسميًا رغم معارضة الكثير من الهاشميين.

وبهذا يتضح الدور السياسي والإداري الجاد الذي مارسه الفضل في البلاط العباسي . وقد يرجع ذلك لطبيعته الجدية فقد أثر عنه أنه كان لا يشرب النبيذ، وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته.

كذلك عهد يحيى لابنه جعفر بولايات عدة، ولكنه لم يذهب بنفسه إلى هذه الولايات، وإنما كان يرسل إليها من ينوب عنه. ففي سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م، ولى جعفر على المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية بما فيها مصر، فلم يذهب إليها وولاها من قبله عمر بن مهران كاتب الخيزران.

وفي سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦ م ولى على خراسان فانتدب محمد بن الحسن بن قحطبة لينوب عنه فيها. وفي نفس السنة أرسل جعفر إلى الشام لتهدئة العصبية القبلية التي هاجت بين أهلها، وتفاقم أمرها، فاستطاع جعفر أن يضع حدًا للاضطرابات فسكنت الفتنة، بعد أن أدب المتمردين ونزع السلاح من القبائل وأعاد الأمن إلى المنطقة.

ويبدو أن هذه هي المرة الوحيدة التي أدى فيها جعفر مهمة خارج مدينة السلام. فقد اقتصر عمل جعفر على ملازمة الرشيد ومنادمته لسماحة أخلاقه، فكان لا يفارقه أبدًا. وقد عبر جعفر للرشيد عن حزنه العميق لبعده عنه فترة ذهابه إلى الشام لتهدئة الأوضاع فيها. ولعل إيثار الرشيد له وثقته به جعلته أكثر البرامكة نفوذًا ذلك أن الرشيد أشركه معه في كثير من المهام الخاصة، والتي تعد من واجبات الخليفة الرئيسية، كالنظر في المظالم، والإشراف على البريد ودور الضرب وصك العملة، والطرز في جميع المناطق، بل أكثر من ذلك ظهر اسم جعفر مكتوبًا على كل القطع النقدية في المشرق والمغرب.

كذلك عهد الرشيد إليه بتربية وتأديب ابنه عبدالله المأمون، كما عهد من قبل بتربية ابنه محمد الأمين إلى الفضل فتمكن بذلك جعفر من الحصول على الوصاية على المأمون، وأشار على الرشيد بتوليته العهد بعد أخيه الأمين، وكان له دور في تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه في جوف الكعبة.

وهكذا يبدو أن ظرف، وفصاحة، وذكاء وتأدب جعفر، وسهولة أخلاقه جعلته أكثر حظًا على الرشيد من بقية أخوته، وأكثر إدلالاً، وقد أبدى والده يحيى للرشيد مخاوفه من الصلة الشخصية التي كانت تجمع بينه وبين ابنه جعفر قائلاً له: "يا أمير المؤمنين، إني أكره مداخل جعفر، ولست آمن من أن ترجع العاقبة علي في ذلك منك، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب إلي، وآمن عليه عندي".

ولكن منادمة جعفر للرشيد في مجالسه، وبقاءه في بغداد بالقرب منه لم تمنعه من أداء الأعمال الموكولة إليه على خير وجه. وقد عرف عن جعفر أنه كان فصيحًا بليغًا لبقاً عالمًا بالآداب، والتاريخ والفقه، لأن أباه كان قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي ليعلمه ويفقهه. وقد ذكر عنه أنه فصل في يوم واحد، عندما كان يجلس للمظالم مع الرشيد، في ألف قضية خاصة، ووقع عليها، ولم يخرج في شيء منها عن أحكام الفقه، ولم تكن أي واحدة منها ضد العدالة.

على أن أهم ما يميز سياسة يحيى وأبنائه هي سياستهم المالية، فقد أتسمت هذه السياسة بدقة شديدة لا تنظر إلا في مصالح الخزينة المركزية التي امتلأت بثروات ضخمة لا تقدر بثمن. ولعل أكبر دليل على نجاح سياستهم المالية في ملأ خزينة الدولة بالأموال الطائلة هي قائمة الخراج التي أوردها الجهشياري في كتابه الوزراء.

ذلك أن البرامكة اتبعوا أساليب صارمة في جمع الضرائب لتعويض ما لحق بالخزينة من خسائر أيام خلافة المهدي ، وإن كانت الضرائب في أحيان كثيرة تجمع بطريقة تعسفية غير شرعية. ففي بداية وزارة يحيى فرضت ضريبة العشور الإسلامية على معتنقي الإسلام في السواد، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه بناء على نظام المقاسمة الذي عمل به في أيام المهدي. ولما كان ذلك يعني عقوبة على اعتناق الإسلام فإنه سرعان ما أبطل.

ومن أساليبهم المتشددة في جمع الضرائب أنهم كانوا يطالبون الناس بدفع الضريبة كاملة مع جميع المتأخرات "البقايا" فتولى مطالبتهم في دار السلام عبدالله بن الهيثم بن سام، الذي لم يتوان عن استخدام القوة التي تصل أحيانًا إلى التعذيب، وذلك لإجبارهم على دفع الضرائب أو البقايا، كما عينوا من أجل ذلك في جميع الولايات موظفين للقيام بهذه المهمة. ففي اليمن مثلاً أقام حماد البربري فيها ثلاث عشرة سنة، وسام أهلها سوء العذاب حتى صاح قوم منهم بالرشيد وهو بمكة: اعزل عنا حمادًا البربري، إن كنت تقدر. فامتنع الرشيد عن عزله في البداية، ولكنه ما لبث أن عزله بعد ذلك. والظاهر أن عزله تم بعد القضاء على البرامكة.

وفي الموصل استطاع يحيى بن سعيد الحرشي تحصيل جميع المتأخرات إلى جانب الضرائب التي فرضت على الدواجن والماشية، فبلغت ستة ملايين درهم. وفي أذربيجان التي تم إعفاء أهلها من دفع الضريبة على أراضيهم تشجيعًا لهم للاستطيان في المناطق الحدودية صاروا يطالبون من قبل عمال البرامكة بدفع هذه الضريبة. وطالت هذه الإجراءات المشددة شمال أفريقية فلم ينج أهلها من صرامة البرامكة وموظفيهم. ومن أجل ضمان ولاء أفريقية، عين البرامكة هرثمة بن أعين حاكمًا عليها. وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ترتبط برباط وثيق مع البرامكة، وجعلوا تحت قيادته عددًا من جند العباسية، الذين كان الفضل بن يحيى قد جندهم من الشرق، فوصلها سنة ١٧٨هـ / ٧٩٤ م وعمل على تهدئة الأوضاع بها. فلما بلغ طرابلس أعطى جندهم أرزاقهم الفائتة وآمنهم وعمل مثل ذلك في القيروان التي وصلها سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥ م وبعد أن استقرت الأوضاع في أفريقية رجع هرثمة إلى العراق سنة ١٨١هـ / ٧٩٧ م فأستخلفه جعفر بن يحيى البرمكي على الحرس.

وقد اضطربت الأوضاع في أفريقية بعد عودة هرثمة، ووجدت حكومة بغداد صعوبة في الاحتفاظ بها، وحكمها حكمًا مباشرًا بسبب

المنافسات بين القوات المجندة من البربر والعرب في المنطقة، والقوات الخراسانية من جهة وتوسعات إدريس بن عبدالله العلوي الذي أراد فرض سلطانه على المغرب كله من جهة أخرى، فقرر الرشيد ـ ووزراؤه البرامكة بعد مشاورة هرثمة بن أعين ـ إبقاء جند العباسية الذين تركهم هرثمة هناك بصورة دائمة، وتعيين إبراهيم بن الأغلب واليًا عليهم، والاعتراف به أميرًا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا، على شرط أن تستغنى ولاية أفريقية عن المعونة المالية التي كانت تدفع من مصر، وتقدر بحوالي مائة ألف دينار سنويًا، وأن يدفع مقابل ذلك أربعين ألف دينار سنويًا إلى خزينة الدولة في بغداد. وكان هذا الإجراء بدون شك كسبًا جديدًا لخزينة الدولة.

وبينما انتهج البرامكة سياسة شديدة في جمع الضرائب في كافة أنحاء الدولة في عهد الرشيد، نراهم يتعاطفون مع أهل المشرق، خاصة في جمع الضرائب. فالفضل بن يحيى لكي ينجح في تجنيد القوات العسكرية التي عرفت باسم "العباسية" زاد في أعطيات الجند والقادة، ووصل الكتاب بعشرة آلاف درهم. ولكنه عندما وجد أن هذه العطاءات التي بذلها للجند والقواد والكتاب غير كافية عمل على إحراق دفاتر البقايا، أي عمل على إلغاء متأخرات الضرائب كلها وإلى إحراق السجلات حتى لا يُطالبوا بهذه المتأخرات بعد ذلك.

وهكذا أدت سياسة البرامكة المالية الصارمة إلى امتلاء خزينة الدولة بالأموال، مما رفع من شأنهم في نظر الرشيد. وكما عمل البرامكة على ملىء خزينة الدولة عملوا أيضًا على ملىء خزينة الرشيد الخاصة، وذلك عن طريق مصادرة الأراضي المهجورة التي تركها أصحابها بسبب عبء الضرائب، وأراضي بني أمية، حتى ممتلكات بعض أفراد العائلة العباسية التي مات عنها أصحابها صادروها وأضافوها إلى خزائن الرشيد وعائلتـــــه.

وإلى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بثروات هائلة، ولم يحرموا أنفسهم ولا أصحابهم من هذا النشاط لابتزاز الأموال، فهم يمتلكون أحسن البقاع، وأجمل الأبنية، وهذا جعفر يعمر قصرًا في بغداد أنفق عليه أموالاً طائلة تقدر بعشرين مليون درهم. وذكر أنه كانت لديه بركة في داره أخفى فيها أربعة آلاف دينار، وزن كل دينار مائة دينار ودينار. وكان للبرامكة ممتلكات وأراض كثيرة في البصرة، وقيل إنهم كانوا لا يتورعون عن إبدال قنوات المياه لتنظيف بعض الأراضي السبخة العائدة لهم دون التفكير في الأذى الذي يصيب الأراضي الأخرى. وقد بلغت وأرادت البرامكة السنوية من الأموال ثلاثين مليونًا وستمائة وستين ألف دينار غير ضياعهم ودورهم. وعن طريق هذه الثروات الضخمة التي حصلوا عليها استطاعوا أن يكونوا علاقات ممتازة مع الخاصة والعامة، وذوي الحاجات عن طريق الهبات والأعطيات التي كانوا يعطونها بسخاء، حتى كثر على أبوابهم أصحاب الحاجات وتغنى بهم الشعراء. والظاهر أن علاقاتهم الجيدة مع الخاصة والعامة هي التي حدت من انتقادات الجماهير لهم ولأعمالهم.

وهكذا ظلت أسرة البرامكة تدير أمور الدولة وتحتل المنزلة العظيمة لدى الرشيد لمدة سبعة عشر عامًا، وإن تفاوتت هذه المنزلة في هذه المدة، حتى حصل الانقلاب الخطير في سياسة الرشيد تجاههم، فأمر بقتل جعفر في صفر سنة ١٨٧هـ / فبراير ٨٠٣ م وسجن يحيى والفضل، وقبض على أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق. وعلى الرغم من أننا لانعرف تفاصيل الوضع الذي أدى إلى هذا الإنقلاب، لأن الرشيد نفسه تكتم في إظهار ذلك، فأفسح بذلك المجال أمام الرواة والمؤرخين ومن تعرض لتاريخ هذه الأسرة بأن يؤولوها تأويلات وصور مختلفة.

وقد أتهم البرامكة بأن لهم ميولاً علوية ، فهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحة الرشيد. وهي تهمة عند العباسيين أشد من تهمة الزندقة التي أودت بحياة ابن وزير المهدي. ذلك أن هذه التهمة تشكل خطرًا

جسيمًا على سلامة الدولة. وقد استغلت حادثة إطلاق جعفر البرمكي سراح الثائر يحيى بن عبدالله العلوي أسوأ استغلال من قبل أعداء البرامكة . وهناك عدد من الروايات التي تحاول إثبات انحياز البرامكة إلى العلويين وأنهم يفضلون أن يعتلى عرش الخلافة واحد منهم. وهي روايات يصعب على الباحث المدقق تصديقها، لأن البرامكة لم يكونوا لينالوا تلك المنزلة الرفيعة النى حصلوا عليها في عهد الرشيد لو تولى أحد العلويين عرش الخلافة.

ويمكن القول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف تجاه العلويين كان يتماشى تمامًا مع المناخ الفكري والسياسي في أواخر عهد الرشيد، والذي كان يمثله حلقات المثقفين ويشجعه البرامكة، بعقدهم الندوات والاجتماعات لسماع الآراء والمناقشات الفكرية المختلفة. ذلك المناخ الذي تميز بالتسامح والمرونة تجاه العلويين.

ونحن في الحقيقة لسنا بصدد ذكر الأسباب التي أدت إلى نكبة البرامكة والتي لم يخلُ من ذكرها كتاب من كتب التاريخ.

وقد تولى أمور بلاط الرشيد ـ بعد نكبة البرامكة ـ الفضل بن الربيع، الذي حاول قدر المستطاع أن ينال مركزًا أو حظوة مثل ما ناله البرامكة، ولكن دون جدوى فهو لم يكن على مستوى البرامكة في الكرم، ولا في ذكائهم، أو سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم. ولا شك في أن القضاء على هذه الأسرة كان خسارة على الدولة العباسية وخاصة من ناحية النظم الإدارية .. فقد أورد المؤرخون روايات عديدة عن الفراغ الذي تركه البرامكة بعد القضاء عليهم.

وقد ندم الرشيد على إيقاعه بالبرامكة لما رآه من إهمال عماله وموظفيه الذين لم يستطيعوا سد ماتركه البرامكة من فراغ في جميع مناحي الدولة وأثر عنه قوله: (لا آمن الله من أغراني بقتل البرامكة ، مارأيت رخاء بعدهم، ولا وجدت لذة ولا راحة).

وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء نيتهم لأعادهم إلى مناصبهم وإلى مكانتهم التي كانوا عليها. وكان يقول (حملونا على نصائحنا وكفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنا شيئًا).

وقد شغل الفضل بن الربيع المكانة الأولى في بلاط الرشيد بعد اختفاء البرامكة عن المسرح السياسي. وبعد موت الرشيد أصبح من أبرز شخصيات حزب الأمين في الفتنة التي حدثت بينه وبين أخيه المأمون، وعينه الأمين وزيرًا له.

وزارة الفضل بن سهل وأثرها في تأسيس خلافة المأمون:

لم ينته دور البرامكة بنكبتهم وإنما تركوا في الإدارة ربائبهم وصنائعهم وهم آل سهل، وهي أسرة فارسية تنسب إلى بلدة سرخس في خراسان. وكان سهل بن زادا نفروخ ـ أب هذه الأسرة ـ من أبناء ملوك فارس المجوس، أسلم في أيام الرشيد ، واتصل بيحيى البرمكي وعمل قهرمانا له، وكان ذلك بداية اتصال آل سهل بالبرامكة. ثم أحضر سهل أبنية الفضل والحسن وقدمهما للبرامكة وعرفهما بيحيى بن خالد، الذي أعجب بالفضل وذكائه وطموحه وعمق فهمه، خاصة عندما نقل له كتابًا من الفارسية التي كان يتقنها إلى العربية، وطلب منه أن يعتنق الإسلام حتى يستطيع أن يدخله في خدمته. فوافق الفضل وأسلم على يد المأمون سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦ م. ومن ذلك الوقت أصبح أبناء سهل ملازمين للبرامكة في خدمتهم ويأخذون عنهم أمور السياسة والإدارة، حتى نكب البرامكة، فلزم الفضل المأمون وعمل كاتبًا ومستشارًا له.

وقد اتصف الفضل بن سهل بالذكاء وشدة الطموح فاسترعاه اتزان المأمون وتعقله ونجابته فتوقع له الخلافة، فلازمه من أجل ذلك في حياة أبيه. وبعد وفاة الرشيد لعب دورًا سياسيًا في ضم الخلافة إليه، لأنه كان يعلم تمامًا بأنه لن يكون له شأن وأسرته وحزبه ، إذا آلت الخلافة إلى أخيه المأمون.

وأكبر دليل على شدة طموح الفضل وإصراره على ضم الخلافة إلى المأمون هو تحريضه للمأمون على الذهاب إلى خراسان في معية والده الرشيد سنة ١٩٢هـ / ٨٠٨ م لمواجهة ثورة رافع بن الليث. محذرًا إياه عن البقاء في بغداد مع أخيه الأمين ، لأنه كان يعلم أن الرشيد مريض وقد يواتيه الأجل وهو في طريقه إلى خراسان، فيخلعه الأمين من ولاية العهد. وقد أثبتت الأحداث بعد نظر الفضل بن سهل؛ إذا لم يمض وقت طويل حتى توفي الرشيد في الطريق ، ودفن في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩ م، وبدات بوادر النزاع تظهر بين الأخوين الأمين والمأمون. وكان الرشيد قبل خروجه إلى خراسان قد استخلف على بغداد ابنه الأمين، وجعل معه يحيى بن سليم يدبر أموره، فاصطحب معه إسماعيل بن صبيح، وأيوب بن أبي سمير والفضل بن الربيع، وجعل الفضل بن سهل على كتابه المأمون والقائم على أموره. وبعد أن وصل الرشيد إلى طوس وقبل وفاته بعشرين يومًا أرسل ابنه المامون إلى مرو، ومعه قسم من الجند لمحاربة رافع بن الليث، بينما بقي هو ووزيره الفضل بن الربيع وبقية الجيش والأموال في طوس. وعندما أحس بدنو أجله أوصى أن يسير بقية الجيش إلى المأمون لمساعدته.

ولم ينفذ الفضل بن الربيع ولا قادة الجيش وصية الرشيد، بل غادروا طوس إلى بغداد لاحقين بالخليفة الجديدة الأمين. وقد تذرع الفضل بحجة أنه لا يدع ملكًا حاضرًا لآخر لا يدري ما يكون من أمره. فلما علم المأمون بذلك غضب وجمع من معه من قواد أبيه وشاورهم فأشاروا عليه بقتالهم وردهم إليه. وخالفهم الفضل بن سهل، وقال للمأمون: بعدم استخدام القوة وإرسال وفد إلى الفضل بن الربيع يذكره بالبيعة ويطالبه بالوفاء لوصية أبيه.

وبذلك بدأ يظهر دور الفضل بن سهل على أنه المحرك الأساسي للفتنة التي وقعت بعد ذلك بين الأخوين الأمين والمأمون، حتى أن بعض

المؤرخين يرجعون جميع ما حدث من أحداث في تلك الفترة إلى الفضل، ويغيبون دور المأمون تمامًا. والحقيقة أن المأمون كان موفقًا بوجود الفضل بن سهل وأخيه الحسن في خدمته، وهم الذين تدربوا على يد البرامكة. وكما وقف يحيى البرمكي خلف الرشيد حينما أراد أخوه الهادي خلعه من ولاية العهد، وقف الفضل بن سهل خلف المأمون وسانده وأزره في ساعات ضعفه حاثًا لـــــه على التمسك بحقه في ولايته مطمئنًا له بقوله: (فكيف بك وأنت نازل في أخوالك، وبيعتك في أعناقهم. اصبر وأنا أضمن لك الخلافة).

وقد عرف له المأمون فضله ومنحه سلطات واسعة لإدارة أمور المالية والحربية في هذه الفترة المبكرة والحرجة من أمارته على خراسان، فأقدم الفضل على خفض نسبة الضرائب في المنطقة على الربع مما كان له أكبر الأثر في ولاء الأهالي والتفافهم حول المأمون بقولهم: (ابن اختنا وابن عم نبينا). ونتيجة لهذه السياسة المالية المتسامحة، وبما كان لآل سهل من صلات مميزة مع أمراء المنطقة، استطاع الفضل أن يجند عددًا كبيرًا من الجند الخراسانيين وأن يُبرز على الساحة قادة جدد من أبناء المنطقة، أمثال طاهر بن الحسين، الذي قاد قوات المأمون لمحاربة بغداد فيما بعد.

وتظهر الروايات المتعددة براعة الفضل ودهائه وحسن إرادته في تثبيت مركز المأمون أمام مكائد أخيه الأمين الذي عزم على خلعه. ففي سنة ١٩٥هـ / ٨١٠ م عندما خلع الأمين المأمون من ولاية العهد ونهى عن الدعاء له على المنابر، رد الفضل بن سهل على هذا الإجراء بأن أطلق على المأمون لقب "إمام" توطيدًا لسلطته بإضفاء صفة دينية عليه.

وبعد ذلك حشد الفضل بن سهل الجيوش الكبيرة من أهالي خراسان الذين توافدوا من كـــل صوب وحدب، وجعل على قيادتهم طاهر بن الحسين، بعد حصوله على امتيازات عديدة ، وسارت الجيوش متجهـــــة إلى الري.

ومن ناحيته أشرف الفضل بن الربيع على تجهيز وإعداد جيش الأمين، وجعل على قيادته عليًا بن عيسى بن ماهان ـ أحد أبرز رؤساء الأبناء ـ بعد أن عقد له على كور الجبل كلها نهاوند، وهمذان، وقم، وأصفهان. وقد بالغ الفضل بن الربيع في تجهيز الجيش بالعدة والسلاح، وأعطى الجند مالاً عظيمًا، كما أجزل العطاء لقائده على بن عيسى فأعطاه مائتي ألف دينار، وأعطى ولده خمسين ألف دينار.

وقد أثار تعيين على بن عيسى بن ماهان على قيادة الجيش الموجه لمحاربة المأمون الغضب الشديد في نفوس الخراسانيين، لأنهم لم ينسوا ظلمه وسوء معاملته لهم عندما كان واليًا على خراسان في عهد الرشيد، فأصروا على محاربته والاستماته في قتاله. وقيل إن للفضل بن سهل يدًا في تعيين علي بن عيسى بن ماهان إذ أوعز إلى أحد عيونه وجواسيسه في بغداد بأن يزين للفضل بن الربيع تعيين علي بن عيسى على قيادة الجيش ، لأن هذا التعيين سوف يثير أهالي خراسان ضده لبغضهم وكرههم له.

زحف علي بن عيسى بجيشه البالغ أربعين ألفًا، وقيل خمسين ألفًا من الأبناء والأعراب إلى الري، حيث التقى بجيش طاهر. وقد بدأ تفوق جيش الأمين واضطراب بعض ملوك خراسان في تلك الفترة مما آثار أمام المأمون موقفًا صعبًا حتى أنه فكر جديًا في الهرب واللجوء إلى ملك الترك والتخلي عن الخلافة ، لولا مساندة الفضل بن سهل الذي أشار عليه أن يمنح بعض هؤلاء الملوك الاستقلال الذاتي ، وأن يتنازل لبعضهم عن الجزية ، وأن يتودد للبعض الآخر بالهدايا والتحف كما نصحه بالتريث فإن نجحت خططه مع الثائرين عليه من ملوك المنطقة وانتصرت قواته على قوات أخيه فذلك الذي يأمل وإلا فليلتجئ إلى ملك الترك.

وكان لهذه النصائح وقعها في قلب المأمون، ونجحت خطط الفضل بن سهل، فهدأت ثائرة الملوك العجم، وانتصرت قواته على قوات أخيه في الري انتصارًا ساحقًا، وقتل علي بن عيسى، وتراجع جيشه إلى بغداد في

حالة سيئة، فلما وصلت رسل طاهر إلى الفضل بن سهل تخبره بالنصر دخل على المأمون وسلم عليه بالخلافة ولقبه بأمير المؤمنين.

وبعد مقتل علي بن عيسى بن ماهان أرسل الأمين جيشًا آخر بقيادة عبدالرحمن بن جبلة الأنباوي يقدر بحوالي عشرين ألفًا من الأبناء. كما أدرك المأمون المصاعب التي يواجهها طاهر فأرسل له فرقة قوية من جند العباسية بقيادة هرثمة بن أعين الذي كان أحد قواد الرشيد. فتقابل الفريقان في همذان واقتتلوا، ولم يزل يقاتل حتى قتل.

وعندما بلغ المأمون، خبر هزيمة عبدالرحمن بن جبلة ومقتله، رفع من منزله الفضل بن سهل، وجعله مسئولاً أمامه عن الإدارة المدنية والعسكرية لكل الممتدة من همذان إلى التبت، ومن الخليج إلى بحر الديلم (بحر قزوين)، ولقبه "ذو الرئاستين" أي رئاسة الحرب ورئاسة التدبير، وجعل عمالته ثلاثة ملايين درهم في السنة. وكان ذلك في رجب سنة ١٩٥ هـ / ٨١٠ م وهو التاريخ الذي أصبح فيه الفضل بن سهل وزيرًا رسميًا للمأمون، كما أطلق عليه لقب "الأمير" في حين ولي أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج.

ثم تابع الأمين بعد ذلك إرسال الجيوش لمنع طاهر بن الحسين من الزحف إلى بغداد فوجه أحمد بن مزيد الشيباني في عشرين ألف رجل من الأعراب، وعبدالله بن حميد بن قحطبة في عشرين آخرين من الأبناء. ثم اتبع ذلك بمحاولة أخرى يائسة لإنقاذ جيشه من الهزائم المتتالية بأن عين عبدالملك ابن صالح على الشام والجزيرة يستعين بجنودها، ولكن هذه المحاولات ذهبت سدى، ولم تواجه جيوش طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ـ وهما في تقدمهما نحو العراق ـ مقاومة تذكر وحاصرا بغداد حصارًا شديدًا وضيقًا على أهلها الذين قاوموا الحصار لعدة أشهر، ومن بينهم الأبناء الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم بضراوة لشعورهم بأنهم يخوضون

معركتهم الأخيرة. وعندما شعر الفضل بن الربيع بضعف موقف الأمين هرب تاركًا خليفته يلقى مصيره وحده. وفي ذلك يقول المسعودي (واستتر لما تبين من اختلال أمر محمد ووهاء أمره فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح).

ولكن يبدو أن طاهر وهرثمة لم يكونا متفاهمين حتى في فترة الحصار الشديدة. فهرثمة كان يريد نوعًا من التفاهم مع أهالي بغداد المحاصرين، بينما كان طاهر معارضًا هذه السياسة. والواقع أن الأمين عندما أحس بسوء التفاهم هذا حاول استغلاله لصالح، فأرسل إلى هرثمة بطلب الأمان، فأجابه هرثمة إلى ذلك وأقسم له أن يقاتل دونه إن أراد المأمون التخلص منه بقتله. على أن الأمين لم ينجح في الوصول إلى معسكر هرثمة، إذ غرق قاربه في النهر وقتل على يد جنود طاهر، واجتز رأسه، وأبلغ بذلك المأمون الذي أصبح خليفة دون منازع.

وفي هذه الأثناء وجه المأمون؛ بإيعاز من الفضل بن سهل، الحسن بن سهل إلى بغداد لينوب عنه، بعد أن عينه واليًا على ما افتتحه طاهر من كور الجبال، والعراق، وفارس، والأهواز، وكذلك الحجاز واليمن.

وبينما أبعد طاهر بن الحسين إلى الجزيرة الفراتية بحجة قمع ثورة نصر بن شبث العقيلي، كما أمر هرثمة بن أعين بالتوجه إلى خراسان. وعمل في الوقت نفسه على إبقاء المأمون في مرو، وقطع الأخبار عنه، وعاقب من حاول إخباره بما يجري في بغداد ليصرف الأمور حسب سياسته المخطط لها.

على أن تعيين الحسن بن سهل على العراق لقي معارضة شديدة من العراقيين عامة، وأهل بغداد خاصة بما فيهم الأبناء، الذين أدركوا أن تعيين الحسن بن سهل واليًا ونائبًا عن المأمون في بغداد معناه القضاء على نفوذهم وسلطاتهم، ومكانتهم، التي ظلوا متمتعين بها لسنوات عديدة. كذلك أثار بقاء المأمون في مرو واتخاذها عاصمة له ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل

غضب الهاشمين في العراق من عباسيين وعلويين، فعمت الفتن والاضطرابات في أغلب مناطق الدولة العباسية. وأدى موقف الأبناء العدائي وأهالي بغداد من الحسن بن سهل وجيشه إلى إرغامه على ترك بغداد وسحب قواته منها. كما أدى غياب المأمون عن بغداد عاصمة آبائه وأجداده، وعدم وجود سلطة قوية بها إلى قيام ثورات علوية بجوار الكوفة وفي مكة واليمن.

ومن أجل إرضاء العلويين أغرى الفضل بن سهل، المأمون بتوليته أحد العلويين وليًا للعهد من بعده، فوقع اختياره على علي بن موسى الكاظم ولقبه "بعلي الرضا"، كما أمر الجند بأن يتركوا لبس السواد ويلبسوا الثياب الخضر. إلا أن هذه الخطوة الجريئة لم تقنع خصوم المأمون من العلويين، وأدت غي النهاية إلى إزدياد الاضطرابات في بغداد. وأخيرًا تنبه المأمون لسياسة الفضل بن سهل كما تنبه من قبل والده الرشيد لسياسة البرامكة، وأدرك أن ثورة أهالي بغداد ونقمة أهل بيته عليه ومبايعتهم لعمه إبراهيم بن المهدي ما هي إلا بسبب قبوله رأى الفضل بالبقاء في مرو، والابتعاد عن مقر حكم العباسيين ببغداد، وتعيين علي الرضا وليًا لعهده. فاتخذ أجرأ خطوة في حياته؛ إذ قرر الرحيل والانتقال إلى بغداد وأخذ علي الرضا معه، وكان ذلك سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧ م. وفي طريق العودة تخلص من كل ما يشير إلى تحوله إلى المذهب الشيعي، فرجع إلى لبس السواد شعار العباسيين وطرح عنه لباس الخضرة ، إلا أنه تمسك بلقب الإمام الذي ظل الخلفاء العباسيون يتمسكون به.

وقد أنفق الحسن على زواج ابنته من المأمون مبالغ عظيمة، يذكر انه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك في كل رقعة مكتوب فيها عطية، دار أو ضيعة، أو جارية، أو فرس ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم.

وفرش للمأمون حصيرًا منسوجًا بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة. كما نثرت جدة العروس على المأمون ألف درة كانت في صينية ذهب، وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل. وكان مبلغ ما أنفقه الحسن على هذا العرس خمسين مليون درهم. إلا أن الحسن لم يلبث أن مرض بعلة تسمى "السوداء" سببها حزنه وجزعه على موت أخيه، ولزم منزله.

والواقع أن سياسة آل سهل مثلت انقلابًا على التقاليد العباسية وإدخال كل ما هو فارسي إلى البلاط العباسي. من ذلك أن الفضل بن سهل تشبه بوزراء الأكاسرة، فكان على كرسي مجنح، ويحمل فيه حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت يوضع الكرسي، وينزل عنه فيمشي ويحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم الفضل ويعود فيقعد عليه. كذلك تبع تعيين علي الرضا وليًا للعهد طرح لبس السواد رمز العباسيين، ولبس الخضرة لون لباس كسرى والمجوس.

وبعد مرض الحسن بن سهل استخدم المأمون غيره من الوزراء، من أهمهم أحمد بن أبي خالد أحد قادة الأبناء الذين قاوموا سياسة آل سهل في العراق ، مع إخلاصهم ووفائهم للمأمون.

وقد ظل أحمد في خدمة المأمون حتى وفاته عام ٢١١هـ / ٨٢٦ م، ولكنه رفض أن يعين رسميًا في منصب وزيرًا أو كاتب. ويبدو أن تعيين المأمون لهذا الرجل في هذا المنصب الحساس كان له مغزاه السياسي، وهو المصالحة والتفاهم مع طبقة الأبناء الذين كونوا شريحة مهمة في طبقات المجتمع العراقي.

أشهر وزراء نهاية العصر العباسي الأول:

استخدم المعتصم عددًا من الوزراء من بينهم الفضل بن مروان الذي كان نصرانيًا من أهـــل البردان، إلا أنه وصف بأنه كان عاميًا لا علم عنده ولا معرفة، ردىء السيرة جاهلاً بالأمور، قليل المعرفة يالعلم حسن

المعرفة بخدمة الملوك. ويرجع السبب في تعيين المعتصم له في منصب الوزراء أنه كان كاتبه قبل توليته الخلافة، وأنه قام بأمر البيعة له في بغداد، وضبط الأمور فيها حتى عاد المعتصم، الذي كان يرافق المأمون في غزوته الأخيرة لبلاد الروم التي توفي فيها. وعلى الرغم من صفة الجهل التي اتصف بها الفضل بن مروان إلا أنه تمكن من السيطرة على أمور الخلافة واحتل منزلة عظيمـــة لدى المعتصم، ومنح سلطات وصلاحيــات واسعة.

ولكن المعتصم مـا لبث أن عزلـه من منصبـه في رجـب سنة ٢٢١هـ / يوليو ٨٣٦ م بعدما تبين له جهله ، وتحكمه فـي الإدارة وبيت المـال. فـأمر بحبسه وصادر أمواله ثم أعفاه ، فأخذ الفضل ينتقل في البلاد مدة من الزمن حتى مات أيام المستعين سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤ م.

وبعد أن عزل المعتصم الفضل بن مروان استعان بالتجار في إدارة شئون الدولة خاصة المالية منها، وذلك لما لهم من قوة اقتصادية فعين محمد بن عبدالملك بن أبان الزيات أحد أغنى تجار بغداد وزيرًا له. وقد عرف بابن الزيات، لأن جده أبان كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد ليتاجر فيه، وأصله من جيل. وكان والده تاجرًا موسرًا فنشأ ابنه في رغد من العيش فاتجه لدراسة العلوم والآداب. ونال من ذلك حظًا عظيمًا ساعده على القيام بأعباء الوزارة خير قيام طيلة عهد المعتصم وابنه الواثق .

ومن أعماله المالية أثناء وزارته إلغاء ضريبة العشـر على السفن الواردة من وإلى موانئ الخليج، عبر المحيط الهندي من شرق أفريقية، وجنوب آسيا وجنوبها الشرقي والشرق الأقصى. ويبدو أن هذا التدبير كان بالدرجة الأولى في مصلحة الأغنياء والتجار أمثال ابن الزيات نفسه، لأنه لم يؤد إلى خفض الأسعار ولم يستفد منه عامة الشعب والفقراء، لأنها كانت تتاجر بالسلع الكمالية.

وبعد وفاة الواثق استوزره المتوكل، واستمر ابن الزيات في خدمة المتوكل أربعين يومًا، نكبه بعدها وصادر أمواله وعذبه حتى مات في سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧ م، بعد أن ظل في منصب الوزارة اثنتي عشر سنة. ويعد ابن الزيات ـ رغم عيوبه التي تميزت بالقسوة وعدم الرحمة وعدم محبة الناس له لقسوته في جمع الضرائب ـ آخر وزراء العصر العباسي الأول الأفاضل، العلماء، وكان الوزير الوحيد الذي وزر وزارة واحدة لم يقطعها صوف أو عزل لثلاثة خلفاء متتابعين.

وهكذا نرى من خلال هذه الدراسة الدور الهام الذي لعبه وزراء هذا العصر على مسرح الأحداث في الفترة الممتدة من سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م إلى سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٧ م. وخير دليل على ذلك الدور الذي لعبه البرامكة وزراء الرشيد، حتى ارتفع شأنهم وتولوا مناصب الدولة وعلا سلطانهم فلم يعد يحتملهم الخليفة ، مما حدا به إلى نكبتهم في النهاية.

كذلك الدور الذي لعبه بنو سهل في التأثير على المأمون حتى استطاعوا أن يحققوا آمال الشعوبيين والشيعة بتحويل الخلافة إلى آل علي أوكيف أدى ذلك إلى بيعة علي الرضا بولاية العهد، وانتهاء الأمر بمقتل الفضل بن سهل وعلي الرضا.

كل هذا يبرر أهمية الدور الذي لعبه وزراء العصر العباسي في سياسة بني العباس، وأثر ذلك كله على المجتمع الإسلامي.

المراجــع

(١) ابن طباطبا، فخر الدين بن محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، دار بيروت ١٣٨٥هـ ، ص ١٥٣.

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١، ص٣١٠.

(٣) الكروي، نظام الوزارة، ص ٢٤.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص ٢٥ ـ ٣٣.

(٥) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، حققه إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د .ت ، جـ ٢ ، ص ١٩٥.

(٦) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(٧) كان أبو سلمة صهرًا لبيكير بن ماهان، فهو زوج ابنته، البلاذرى، أنساب الأشراف، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م، جـ٤، ص ١٦٠.

(٨) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبدالعزيز الدوري، بيروت، دار الطليعة ١٩٧١، ص ٢٤٥.

(٩) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٦٠، طباطبا، الفخري، ص ١٥٤.

(١٠) طبرى، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، د . ت . جـ ٧، ص ٣٢٩.

(١١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م، ص ٤٠٠، مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨ . البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٣، الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٤١٧.

(١٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٤٠٠، مؤلف مجهول، تاريخ الدولة العباسية، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٣، الطبري تاريخ ، جـ ٧ ، ص ٤١٨ .

(١٣) الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

(١٤) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ٣٧٦.

(١٥) أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة مصطفى ألباني الحلبي، د . ت، ص ٨٤.

(١٦) الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٤٢٣ ـ ٤٣٠، الجهشياري، الوزراء، ص ٨٥ .

(١٧) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، د . ت ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ .

(١٨) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الفكر، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م، جـ ٣ ، ص ٢٦٨.

(١٩) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٦.

(٢٠) الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٤٢٤ ـ ٤٣٠، مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ٤٠٤.

(٢١) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٤.

(٢٢) محمد أحمد برانق، الوزراء العباسيون، القاهرة، المطبعة النموذجية، جـ ١، ص ٨٢ .

(٢٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٥، اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٥٠.

(٢٤) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٧.

(٢٥) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢٦) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨١ .

(٢٧) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٧ ـ ٨٩.

(٢٨) صالح أحمد العلي، معالم بغداد الإدارية والعمرانية، ط ١، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٨، ص ١٢٩.

(٢٩) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، بيروت، دار المعرفة، د . ت ، جـ ٢، ص ١٢٠ ، أو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، بغداد، مكتبة المثنى، د . ت، ص٣٧٠.

(٣٠) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٠، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٥.

(٣١) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٢٨٤، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٤.

(٣٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٢٨٤، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٤.

(٣٣) الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٤٧١، الوزراء، ص ١٣٦، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٦.

(٣٤) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٦١ .

(٣٥) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٥٣، الجهشياري، الوزراء ، ص ١٣٦، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٦، يذكر المسعودي بأن المنصور استوزر ابن عطية الباهلي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٢٩٨.

(٣٦) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ٣١٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٢١٩، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٦.

(٣٧) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٧.

(٣٨) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٥.

(٣٩) حسن أحمد محمود، وآخرون، العالم الإسلامي في العصر العباسي، طـ ٥، القاهرة، دار الفكر العربي، د . ت، ص ١٠٥.

(٤٠) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٩.

(٤١) الجهشياري، الوزراء، ص ١٥٠، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٥٧.

(٤٢) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٣.

(٤٣) الجهشياري، الوزراء، ص ١٥١.

(٤٤) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٧٤.

(٤٥) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٧.

(٤٦) ابن خلكان، وفيات الأعيا، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٤٧) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص ٣٢٥.

(٤٨) الجهشياري، الوزراء، ص ٨٩، المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص٢٩٨.

(٤٩) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٧.

(٥٠) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٧.

(٥١) س . د . جواتياين، دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، تعريب د. عطية القوصي، الكويت، وكالة المطبوعات ١٩٨٠، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٥٢) الجهشياري، الوزراء، ص ١٢٤.

(٥٣) س . د . جواتياين، دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، ص ٩٠.

(٥٤) الجهشياري، الوزراء، ص ٩٧، ١٠٠، ١١٥، ١١٨.

(٥٥) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٣٤٦، الجهشياري، الوزراء، ص ٩٧، ١١٧.

(٥٦) الجهشياري، الوزراء، ص ١٠٧ ، ١١٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طـ ٢، بيروت دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م، جـ ٤، ص ٣٥٣، ٣٦٧.

(٥٧) الجهشياري، الوزراء، ص ١١٧.

(٥٨) الجهشياري، الوزراء، ص ١١٨.

(٥٩) الجهشياري، الوزراء، ص ١١٨.

(٦٠) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٣٢٦.

(٦١) الجهشياري، الوزراء، ص ١٢٤.

(٦٢) الجهشياري، الوزراء، ص ١٥٨، المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٢٢.

(٦٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٢٢.

(٦٤) الجهشياري، الوزراء، ص ١٢٦.

(٦٥) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٢.

(٦٦) الجهشياري، الوزراء، ص ١٢٧.

(٦٧) الجهشياري، الوزراء، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٦٨) الجهشياري، الوزراء، ص ١٤١.

(٦٩) الجهشياري، الوزراء، ص ١٥٨.

(٧٠) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٧١) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٢.

(٧٢) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٢.

(٧٣) السيح: السقى بدون كلفة ولا مشقة من ماء السماء. والسيح المائ الجاري. انظر ابن منظور، لسان العرب، بيروت، د . ت ، جـ ٢، ص ٤٩٢ .

(٧٤) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، د . ت ، ص ١٨٩، ضيف الله يحي الزهراني، موارد بيت المال في الدولة العباسية، طـ ١، مكة، الفيصلية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م، الكتاب الأول، ص ٢٤٧ .

(٧٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٩ ــ ١٩٠، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٢.

(٧٦) قدامه بن جعفر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، فرانكفورت ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ م، ص ٢٠١، ضيف الله الزهراني، موارد بيت المال، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٧٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠، ضيف الله الزهراني، موارد بيت المال، ص ٢٤١.

(٧٨) الجهشياري، الوزراء، ص ١٤٥ .

(٧٩) الجهشياري، الوزراء، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٨٠) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٣ .

(٨١) الجهشياري، ص ١٥٦.

(٨٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٢٢، ابم طباطبا، الفخر، ص ١٨٤.

(٨٣) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١١٧، المسعودي، مروج الذهب، جـ ، ص ٣٢٢، الجهشياري، الوزراء، ص ١٥٥.

(٨٤) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٥٤ـ ١٥٥، الجهشياري، الوزراء، ص ١٥.

(٨٥) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٥٥.

(٨٦) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١١٧.

(٨٧) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٥٥ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٥٥ ، ابن طباطبا، الفخري ، ص ١٨٤ .

(٨٨) الطبري، تاريخ، جـ ٨ ، ص ١١٩، ١٥٦، الجهشياري، الوزراء، ص ١٥، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٨٤، ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٥٢.

(٨٩) الطبري، تاريخ، جـ ٨ ، ص ١١٩، ابن الأثير الكامل، جـ ٥ ، ص ٥٢ .

(٩٠) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٣٦.

(٩١) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٥٦، الجهشياري، الوزراء، ص ١٥٦، ١٥٨، ابن طباطبا، الفخري ، ص ١٨٤ ، ابن الأثير، الكامل، جـ ٥ ، ص ٦٦ .

(٩٢) فاروق عمر، العباسيون الأوائل، طـ ٢، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٧٧ ، ص ١٥٦.

(٩٣) الطبري، تاريخ، جـ ٨ ، ص ١٥٦.

(٩٤) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٥٧ ، ١٥٩، الجهشياري، الوزراء، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٩٥) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٦٠، ١٦٢ ، الجهشياري، الوزراء ، ص ١٦١.

(٩٦) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٥٧ ، ١٦٠ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٥٩ـ ١٦٠ .

(٩٧) الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٥٨ .

(٩٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٣٠٨ ، أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ ، ص ٨٢ .

(٩٩) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٦ .

(١٠٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٨٦ .

(١٠١) الطبري تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ، ابن طباطبا الفخري ، ص ١٩٨ .

(١٠٢) س .د . جواتياين ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٩٧ .

(١٠٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٣ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٧٧ .

(١٠٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٥ ، ٢٦٥ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٧٩ ، ٢٠٧ ، ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٠٥ .

(١٠٥) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٥ .

(١٠٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٧٨ .

(١٠٧) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٩٨ ، ابن خلدون ، المقدمة ، طـ ٣ ، مكة ، المكتبة التجارية، ١٤١٤ ـ ١٩٩٤ ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(١٠٨) ابن طباطبا ـ الفخري، ص ٢٠٥، ابن خلدون ، المقدمة، جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

(١٠٩) الجهشياري، الوزراء، ص ١٨٩، صالح أحمد العلي، معالم بغداد الإدارية والعمرانية، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(١١٠) الجهشياري، الوزراء، ص ١٧٨، ١٧٩، ١٨٩، ٢١١، ابن طباطبا، الفخري، ص ١٩٨.

(١١١) ابن خلدون، المقدمة ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(١١٢) فاروق عمر، الجذور التاريخية للوزراء العباسية، طـ ١، بغداد ، ١٩٨٦، ص ١١٢ .

(١١٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٤١ .

(١١٤) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٨ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٩٠ .

(١١٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٧ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٩٦ .

(١١٦) يذكر الطبري أن عدد الجند بلغ ٥٠٠٠٠٠ خمسمائة ألف جندي وهو بلا شك عدد مبالغ فيه ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٥٧ .

(١١٧) الأبناء هم أحفاد الخراسانيين الذين أتوا مع الجيش القادم من خراسان عند قيام الدولة العباسية .

(١١٨) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(١١٩) الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٩٤ .

(١٢٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٥٢ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٩٠ .

(١٢١) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٦٦ .

(١٢٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

(١٢٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

(١٢٤) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٠٤ .

(١٢٥) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢١١ ، عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ... ط ٣ ، بيروت دار الطليعة ، ص ١٢٧ .

(١٢٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٢٥ ، عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ١٢٦ .

(١٢٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ .

(١٢٨) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٠٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ .

(١٢٩) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٨١ ، ٢٨٨ .

(١٣٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٦ .

(١٣١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٧٢ .

(١٣٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

(١٣٣) الأزدي ، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م ص ٢٨٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

(134) M . A . Shaban , Islamic history , Cambridge Univ . Press 1976 , II , p . 33 – 34 .

(١٣٥) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٥٦ .

(١٣٦) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٩٦ ، ١٠٣ .

(١٣٧) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٩٥ ، ١٠٤ .

(١٣٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(١٣٩) الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٩١ .

(١٤٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٧ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٣ .

, Vol . II , p 36 . Shaban , Islamic history M . A .

(١٤١) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ٢٩١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١ ، ص ٣٤٤ ، الدميري ، كمال الدين، حياة الحيوان، بيروت، دار الفكر، د. ت، جـ ٢، ص ١٢٨.

(١٤٢) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٤١ .

(١٤٣) فاروق عمر ، الجذور التاريخية للوزراء ، ص ١٢١ .

(١٤٤) توفيق سلطان اليوزبكي ، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٣٧٠ / ١٩٧٠ ، ص ٧٦ .

(١٤٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٧٨ ، المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٧٧ ، الجهشياري، الوزراء ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢١٠ .

(١٤٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٤٣ .

(١٤٧) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣ ، ص ٣٧٧ ، فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، بيروت، دار القلم ، ١٩٧٧، الطبعة الأولى، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(١٤٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٧ .

(١٤٩) الأربلي (عبدالرحمن سنبط قنتو) خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، القاهرة ، ١٨٨٥ ، ص ١٠٧.

(١٥٠) الجهشياري، الوزراء، ص ٢٥٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨ .

(١٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ، جـ ٤ ، ص ٤١ .

(١٥٢) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ، ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٢١ .

(١٥٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣١ .

(١٥٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٣٨ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٦٦ .

(١٥٥) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٤٤ .

(١٥٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٦٦ .

(١٥٧) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٧٠، ابن الأثير ، الكامل، جـ ٥ ، ص ١٣٥.

(١٥٨) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٧١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٣٥- ١٣٦ .

(١٥٩) د. عبدالمنعم ماجد ، العصر العباسي الأول ، طـ ٣ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٤ ، جـ ١ ص ٢٩٤ .

(١٦٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٧٢ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٣٦ .

(١٦١) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٧٢ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٣٧ .

(١٦٢) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٤١ .

(١٦٣) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ .

(١٦٤) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ .

(١٦٥) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٤٣ .

(١٦٦) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ ، ٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٤٣، ابن الوردي ، زين العابدين بن مظفر ، تاريخ ابن الوردي ، طـ ١، بيروت ، دار الكتب العلميـــة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

(١٦٧) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٠٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـــ ٥ ، ص ١٤٠

(١٦٨) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٩٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٤٥، ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، جــ ١ ، ص ٢٠٢ .

(١٦٩) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ١٤٦ .

(١٧٠) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٣٩٤ .

(١٧١) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤١٤ .

(١٧٢) الطبري، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٢٤ ، الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(١٧٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٢٣ .

(١٧٤) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٣١٨ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٣٢.

(١٧٥) الطبري ، تاريخ ، جـــ ٨ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨٨ ، المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٣١٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ .

(١٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

(١٧٧) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢١٨ .

(١٧٨) الطبري ، تاريخ ، جـــ ٨ ، ص ٥٤٣ ـــ ٥٤٤ ، المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٣١٨ .

(١٧٩) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٢٨ ، ٥٤٠ .

(١٨٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٥٤ .

(١٨١) الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٣١٩ .

(١٨٢) ابن طيفور ، أبي الفضل أحمد بن طاهر ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٨٨ ــ ١٩٦٨ ، ص ٢ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٧٥ .

(١٨٣) ابن طيفور ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، ص ١١٤ ــ ١١٥ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

(١٨٤) ابن طيفور ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، ص ١١٤ ــ ١١٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٩ ، الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، جـ ١ ، ص ٢٨١ .

(١٨٥) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٢٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(١٨٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣١٦ .

(١٨٧) ترجع أصول عائلة أبي خالد إلى مرو الروذ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٣٠ .

(١٨٨) ابن طيفور ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، ص ١١٨ ــ ١١٩ ،

(١٨٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٤٥ .

(١٩٠) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٣٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٤٥ .

(١٩١) الطبري ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

(١٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

(١٩٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ، ١٦٠ ــ ١٦١ .

(١٩٤) جيل قرية جنوبي بغداد ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٣ ،ص ٢٠٢.

(١٩٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٥٠ .

(١٩٦) الطبري ، تاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ، ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(١٩٧) الطبري ، تاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٠ .